

المجلس الأعلى للثقافة



فى الفكر الإسلامى من الوجهة الأدبية

د. محمد أحمد العزب



0168720

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

Bibliotheca Alexandrina

المجلس الأعلى للثقافة

في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية

دكتور محمد أحمد العزب

القاهرة

١٩٨٣

مقدمة

لا أزعج أننى بهذه الصفحات أضيف جديداً الى هـرم
الدراسات الاسلاميه ، ولكننى استطيع فقط أن أزعج أننى أفتح
بها باباً للحب الفكرى فى تناول بعض قضايا الاسلام . هذا
الدين الرائع الذى يقدم للفكر البشرى مساحات هائلة من امكان
التطلع والاستقصاء ، ليـجرب فيها هذا الفكر البشرى قدراته
وقواته ، مؤطرا حركته فى هذا المجال بأسوار من الحق والخير
والجمال !!

ان محاولات الاقتلاع لا تحارب بسيف قديمة .. ان دورنا
نحن يتجسد فى استيعاب منطق العصر ، وانتضاء أسلحته الفكرية
والفنية والأكاديمية ، حتى يصبح حوارنا العقائدى مفهوماً من
الاجيال الطالعة !!

هذه الدراسات . تبشر (ربما) بارهاصات هذا الفهم . وهى
بالضرورة تحمل ما تحمله كل البشارات من عفوية الرؤية ،
واندفاع الايمان ، وتوتر المقولات !!

وباسم الحق وحده .. تخوض بحار القبول والرفض !!

دكتور محمد أحمد العزب

كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

قضايا من الفكر الإسلامي

دعوة الى أدب اسلامي

قبل الخوض في هذا الغمار . . . لابد من تفرس وجه الأدب في شكله العام لنعرف ماهو ؟ ان وقوفنا على حقيقة ماهية الأدب هو وحده الذي يمكن ان يتيح لنا ان نعرف الى أي مدى يمكن ان يوجد ادب اسلامي . . . او لا يوجد على الاطلاق !!

ولسنا بالطبع في حاجة الى الضياع في مجاهل التعريفات الغريبة المتشابكة التي يكب عليها جيل من أدبائنا ومفكرينا بلا رأس . . . لسنا في حاجة الى الضياع في مجاهل هذه التعريفات . . . لأنه لا يحبط من قضينا ولا يؤولق من مصاييحها أن يكون الأدب مشتقا من «الدأب» بمعنى العادة . . . وأن يكون هذا الاشتقاق من الجمع وليس من المفرد . . . وأن يكون هذا الجمع هو « آداب » وأن يكون في نهاية الأمر قد حدث فيه قلب فقيل « آداب » كما يقال في « بشر . . . أبار ثم آبار » وفي « رثم . . . أرام . . . تم آرام » . . . الى آخر ما يقال في هذا الصدد . . . مروراً بكون هذا الأدب قد اشتق مرة من «الأدب» بمعنى الدعوة الى الولائم . . . أو اشتق مرة أخرى من «أدب» بمعنى علم وهذب . . . أو

استجلب في نهاية الامر من لغة غير اللغة العربية على
الاطلاق !!! (١)

قلت .. لايعنينا كثيرا أن يكون الأدب مشتقا من المفرد أو
مشتقا من الجمع .. ولا أن يكون مشتقا من مادة دون مادة أخرى
.. ولا أن يكون مصطلحا نابعا من الحس اللغوي للعربية أو
وافدا اليها من الحس اللغوي للهجة من اللهجات أو لغة من
اللغات .. لأن مجال مثل هذه الدراسة الأكاديمية البحتة إنما
هو البحث العلمى المتخصص في تاريخ الأدب بما هو رصد لمساره
في الزمن .. من أين وإلى أين .. وليس هو الأدب نفسه بما هو
معطى فكرى ووجدانى نابع من حاجة الانسان الوجودية الى التعبير
الجمالى عن واقع يختلط فيه الجمال بالقبح .. والخير بالشر
والوجود بهوات من العدم الطاغى بلا قرار !!

يكفى اذن .. أن تقول : ان الادب هو حركة النفس في
الوجود من خلال حلولها الجمالى فى كلمات !!

فاذا اتفقنا على ان نبدأ من هذا المنطلق ، فلست اعرف
حاجزا يمكن ان يقف فى وجه ميلاد حقيقى لأدب اسلامى يضع
شروطه على صعيد الأدب العالمى العائش فى الزمن وما وراء كل
الأزمان .. اننا نقرأ الأدب « الاشتراكى » والأدب « الرأسمالى »
والأدب « الوجودى » والأدب « اللامعقول » .. وكل واحد من هذه
الأنماط إنما يصدر عن رؤيا مذهبية .. ويهدف الى غائية عقائدية
حتى فى أدب اللامعقول يوجد دائما معقول خلف هذا اللامعقول يحرك
الكاتب فى اتجاهه .. ويعطيه مبرر الرفض .. أو مبرر العبث ..
أو مبرر اللاجدوى التى يكشفها ايقاعا جماليا فى السطور !! فلماذا
لنقرأ الأدب « الاسلامى » الذى يصدر عن عقائدية اسلامية بحتة

(١) راجع « فى الأدب الجاهلى » - للدكتور طه حسين .

بكل مافى هذه العقائدية الاسلامية من انفتاح قابل وموصل ..
متأثر ومؤثر .. آخذ من غيره مايلائم مناخه الفكرى والروحى ..
ومعط غيره من روافد مناخه الروحى والفكرى بلا حدود !! قد
يقال هنا .. ان الادب «العربى» فى اطاره العام يعنى بالدرجة
الاولى انه أدب «اسلامى» لانه صادر من منطقة تدين قطاعاتها
العامّة بالاسلام .. وناطق باللغة العربية التى هى لغة القرآن
محور تحرك الاسلام ... ولكن هذا المنطق الساذج يجب ان
لايخدعنا عن حقيقة مانريد ان نقول .. ان أدبا ينطق بالعربية ..
ويصدر عن اديب مسلم .. لايعنى بالضرورة انه أدب «اسلامى»
... الا اذا كان هذا الادب صادرا كما قلت عن «عقائدية»
اسلامية ناضجة .. ومعبرا عن رؤية فنان مسلم موهوب ..
يستشعر فى كل حروفه انه فاتح مطالب بالفتح .. أو مجاهد
محكوم بمنطق المقاومة .. أو ملتزم لايسطيع ان يتحرك الا فى
مناطق التزامه الطوعى .. ان ما أعنيه بالادب الاسلامى ان يكون
على الارض أدب بلامح تصرخ باسلاميته حتى ولو لم تتشدد
السطور بلكنة دعائية من هنا أو هناك .. فماذا اذن نقصد بكلمة
«الادب الاسلامى» ؟ وما ملامح هذا الأدب .. ؟ ان كانت له ملامح
فارقة تحدد أبعاده وأحجامه ؟؟

ان ما أعنيه بالادب الاسلامى كما قلت ليس شيئا غير ان
يكون أدبا عقائديا .. يصدر عن رؤية عقائدية .. ويرسم فى
رحلاته مع الصوت واللون وحبر القلم فلسفة انسانيه المسلم ..
بوضعيته فى الكون .. وبوضعيته من الكون .. وبوضعيته مع
الكون فى أكوان أخرى بلا حدود !! هذا ما أعنيه بمصطلح «الادب
الاسلامى» .

أما ملامح هذا الادب الفارقة ... فلست أجدنى فى حاجة
الى مزيد من المعاناة حتى أقف معها وجها لوجه ..

ان العقائدية اول هذه الملامح ... والعقائدية هنا ليست
موقفا متصليا من قضايا كونية ترفض ماعداها بلا حوار .. وانما
هي بالدرجة الأولى عقائدية « فاعلة » تفتح كل جبهات الحوار
بلا وجل .. وأيضا بلا سأم .. ان عقائديتها تنبعث من رغبة أكيدة
في الفهم .. ورغبة لازمة في الجدل ... ورغبة ظمأى دائما الى
الاشعاع من ... وفي .. وعلى كل المستويات !! ولست أقصد
من الادب العقائدى ان يصوغ العقائد شعرا .. أو مسرحا ..
أو رواية .. ولكنى أقصد أن تكون الرواية .. والمسرح ..
والشعر .. انعكاسا لايمان الفنان بعقائدية اسلامية .. أما
القضايا .. والظواهر .. والقوانين .. فقد يكون في البحث
الاكاديمي متسع لها جميعا .. يجلى غوامضها .. ويكشف عن
أسرارها للجموع !!

والتراثية ملمح من هذه الملامح .. ولقد أعنى بالتراثية
انحناء الادب الاسلامي المعاصر على تراثه المتفجر بالعطاء ..
واستلهاهم هذا التراث بلا ملال .. وقد أعنى بالتراثية
الى جانب ذلك .. أن نخوض بها عباب الواقع المعاصر
.. وأن نعرض اجسادها لشمس العصر .. وهوائه .. وتياراته
... وان نعيد تحليلها وتركيبها من جديد .. وان نضيف الى فهم
السابقين لها فهمنا الآخر المعاصر .. وان نرفض الخوف الكسيح
على جلالها أن يخذش .. وعلى نومها أن يفزع بأحلام عصرنا
القافز !! ان التراثية التي أعنى .. هي نوع من البحث البدئي
عن الذات .. ثم المغامرة بهذه الذات في شتى مجالات الصراع
والابداع .. ان ذلك وحده هو القادر بغير حد على اعطاء التراث
وجهه الحضارى .. وعلى اعطاء وجهه الحضارى ملامح التفرد
... والتمايز .. والتشخيص الواعى بدوره على مسرح
الوجود !!

والقرآنية ملمح من هذه الملامح .. وأرجو أن أكون مفهوما
حين أقول أن القرآنية ملمح من ملامح هذا الأدب الإسلامي
المنشود .. أن القرآن ليس مذهبا أدبيا يدعو إلى احتوائه ..
ولكن الأدب الإسلامي اتجاه يجب أن يستفيد من قرآنية القرآن ..
أن الشعر العربي المعاصر - والشعر الحر منه على وجه
التحديد - قد استفاد من الإنجيل والتوراة أكثر مما استفاد من
القرآن .. ولقد حاول الاستفادة من التاريخ الإسلامي .. إلا أن
اقترابه من القرآن ما يزال مشوبا بحذر لا مبرر له .. ولا منطق
من ورائه .. وربما كان ذلك بعض جناية الفكر الجامد المتعنت ..
الذي يرى في استلهام الشاعر المعاصر لقرآنه لونا من ألوان التجديف
والتحريف .. اننى - بداهة - لا أدعو إلى صوغ القرآن شعرا ..
ولكنى أدعو بلا تهيب إلى أن يكون القرآن بأسلوبه الفذ .. وسياقه
المعجز .. وقصصه الهادف .. وإيقاعه العملاق .. مجالا لتحرك
الشاعر بالشعر .. يعيش به في أعمار قصائده التي تولد من غور
الذات وأغوار الوجود !!

والإنسانية ملمح من هذه الملامح .. وقد يشتجر الخلاف
حول هذا الملمح بالذات .. بما هو قاسم مشترك بين كل الآداب
المحلية والعالمية على السواء .. ولكن هذا الخلاف لا يعفينا من
تقرير هذه الحقيقة .. أولا : لأن احتواء الأدب الإسلامي على
ملمح من ملامح غيره من الآداب لا يطن في تفرد هذا الأدب بحال
من الأحوال .. وثانيا : لأن إنسانية أدب من الآداب لا يمكن أن
تكون إنسانية أدب آخر .. بمعنى أن مفهوم «الإنسانية» في الأدب
الاشتراكي .. غير مفهومها في الأدب الرأسمالي .. غير مفهومها
في الأدب اللامعقول .. أن الإنسان محور كل هذه الصراعات
يعيش في الأدب الاشتراكي وضعية مخالفة تماما لوضعيته في الأدب
الرأسمالي .. ويجب أن يعيش وضعية أخرى في الأدب الإسلامي

.. اننا نطل على الانسان من خلال تقييم معين .. عقائدى قد يكون .. وفكرى ربما .. الا أن اطلالنا عليه مغاير تماما .. ويجب أن يكون مغايرا تماما لاطلال غيرنا عليه .. ولسنا مطالبين باحتذاء نمط من هذه الانماط .. ولكن هذه الانماط جميعها يجب أن تكون دائرة في حتمية احتدائها لنا .. متى استطعنا نحن أن نحتل المشارف التى تؤهلنا لاحتواء هذا الدور القيادى الخطير !!

والنضالية ملمح من هذه الملامح .. وأعنى بالنضالية أن يخرج الأدب الإسلامى الى مجالات التحقق الوجودى مرتديا خوذاته .. قابضا على كل البنادق .. مقاتلا حتى فسق الكون الاخير من أجل أن تولد على الارض العدالة .. ويتحرر فى الارض الانسان !! ان النضالية هنا لاتعنى قتالا من أجل لقمة الخبز .. او من أجل تحرير أشبار من الارض .. ثم لاشئ .. ولكنها تعنى قتالا من أجل ثقافة واعية .. وقتالا من أجل ايتسامة نظيفة .. وقتالا من أجل انتماء شريف .. وقتالا من أجل تواصل كونى بين شرق هذا العالم وغربه .. تواسلا يفضى فى النهاية الى مزيد من الحب .. ومزيد من الفعاليات !! ان نضالية الأدب الإسلامى المنشود تعنى الخروج من مقاعد المتفرجين الى ساحة الصراع .. تعنى أن نرفض كل ماهو مخنث فى الأدب .. كل ماهو خرافى فى الفكر .. كل ماهو عشوائى بلا بصيرة فى الشعر .. كل ماهو عدوانى يستهدف فى النهاية ضرب مكاسب الانسان !!!

كل هذه الملامح التى أسلفت .. من عقائدية .. الى قرآنية .. الى انسانية .. الى نضالية .. يمكن أن تشكل فى النهاية كل ملامح الأدب الإسلامى المأمول .. ويمكن ان تكون بعض ملامح هذا الأدب متى شارف مراحل التحقق والنضوج .. فان بداهة يقينية أومن بها على الإطلاق .. وهى أن كل أدب يشكل

في النهاية ملامحه .. ولا يمكن ان يجيء أدب ليطلق مواصفات موضوعة له من قبل لحظات ميلاده .. أن حركة الأدب في مدها الزاحف .. وجزرها المقرور .. في اندفاعها الرائع الى الفعل .. وانفتاحها الرائع لرد هذا الفعل .. في تحورها .. وتطورها .. وارتدادها الدائم الى محورها وعن محورها جميعا .. كل اولئك يشكل في النهاية كما قلت ملامح هذه الحركة .. او ملامح هذا الأدب كما يجب ان يقال !!

ولكن .. اذا كان الأدب هو حركة النفس في الوجود من خلال حلولها الجمالي في كلمات .. كما قلنا .. فماذا يكون موقف الأدب الاسلامي من هذه الجماليات وهو كغيره من الآداب محكوم بهذه الجماليات ومطالب بها على كل المستويات ؟ كيف يمكن لهذا الأدب « العقائدي » ان يتواءم مع الخيال .. والاسطورة والخرافة .. وكل مضامين الشعر التي بها غالب الشعر كل عناصر الفناء في الزمن .. وانتصر بها على كل حرائق التاريخ ؟

هنا .. لابد من العودة الى تأكيد أولى .. أن « المباشرة » لا يمكن أن تكون ملامحاً من ملامح هذا الأدب الاسلامي .. ولم نرها واحدة في كل مارصدنا له من ملامح بالذات .. وتأسيساً على هذا التأكيد الأولي .. فقد يصح لنا أن نقول ان الأدب الاسلامي الذي هو أدب عقائدي بالدرجة الاولى .. مطالب بارتداد كل آفاق الابداع الفني .. وبالضرورة الى كل اطار من هذه الاطر الفنية .. ان شيئاً واحداً هو مانطالبه به .. أن يعيش أبعاد قضيته .. أن تكون لحم اطاره ومحتواه .. وهو بعد .. حير بلا مبالاة في كيفية أدائه للدور .. في كيفية استيلائه على مناطق الصحو في الجماهير !! ان هذا المنزع الفني معترف به من القرآن الكريم .. في قصصه .. وأمثاله .. معترف به من مناط وحي هذا القرآن « محمد صلى الله عليه وسلم » في بعض من أحاديثه ..

وأمثاله .. معترف به من أولئك الرائعين في كل عصر .. الذين لم يحجروا الاسلام في نمط دعائي .. وانما انساحوا به من خلال كل أشكال التعابير .

اذن .. فجمالية الادب الاسلامي بما هي حتمية قدرية .. تبيح له بلا تخرج أن يوغل في الخيال .. وان يرتفق الأسطورة .. مادام ذلك قائما على أساسين .. أولهما : رفض المباشرة في التعبير عن حقائق صلبة .. وترك هذا المجال للفكر الاسلامي .. والفلسفة الاسلامية اقدرتهما وحدهما على الخوض في هذا المجال .. وثانيهما : استذكار الهدف دائما على طرائق الوسيلة .. واستهداف الغاية دائما من وراء الواسطة !! وهذا وجه القضية بلا أقنعة !!

قد تشبه المعالم هنا .. فيخيل الى البعض اننا ندعو الى ادب اسلامي يخلط الحقائق بالخرافة .. والواقع بالأسطورة .. والمعنى باللامعنى اذا جاز .. وما الى هذا المستوى النازل يجب أن نهبط في تصورنا لحقائق كل مايقال .. ان واقع الاسلام .. وحقائق الاسلام .. ومعنى المعنى في الاسلام .. لم تعد قضايا قابلة للأخذ والرد على الاطلاق .. ولكن الادب الاسلامي المأمول في أطره المختلفة .. شعرا .. وقصة .. ورواية .. ومسرحا .. يجب أن يتحرك من منطلق ايمانه بهذه القضايا أولا ، ثم من منطلق « احساسه بها » وليس « صوغها » ثانيا .. ثم من منطلق استفادته بكل أشكال التعبير الملائمة لعصره في نهاية الامر ... وهكذا - فيما يخيل الى - فعل توفيق الحكيم في مسرحيته «أهل الكهف» .. وطه حسين في ترجمته الروائية «على هامش السيرة» وغيرهما ممن تصدوا للكتابة في هذا المجال .. ممهدين بحق لخلق ادب اسلامي عابر لحدودنا ومخاطب لكافة

أنماط البشر في كافة زوايا الأرض .. بلا تفرقة من لون .. أو جنس .. أو جغرافية مكانية .. أو حتى زمانية .. على تعاقب الاحقاب !!

الأدب الاسلامى الذى ندعو اليه .. أدب عقائدى بلا تعصب .. تراثى بلا جمود .. قرآنى بلا تحفظ .. انسانى بلا كراهية .. نضالى بلا مبالاة ..

الأدب الاسلامى الذى ندعو اليه .. ليس هذه البحوث الفقهية .. أو الاصولية .. أو التاريخية .. التى تسيل على اقلام الكاتبين .. وان كان لهذه جميعا دورها الخطير في تشكيل ملامح العصر .. وانما هو الادب بمعناه الجمالى .. قصة .. أو مسرحا .. أو رواية .. أو شعرا .. وارجو الا يصدمننا مصطلح « الأدب بمعناه الجمالى » .. لأن « الجمالية » فلسفة غائرة العمق .. وليست مجرد تلوين لسطوح الاشكال .. ليست الجمالية موقفا من مواقف الترف حيال ما يجرى في الكون .. ليست انكماشاً مخدراً في لذاذات فردية بائسة .. ليست التلهى بأنماط من القول منخوية بلا قرار ..

الأدب الاسلامى الذى ندعو اليه .. هو كل اولئك جميعا .. وهو شيء وراء كل أولئك جميعا لأن الأدب الحقيقى - كما قلت - قادر باستمرار على أن يخلق قوانينه .. ويشكل ملامحه .. ويقف اطاره ومحتواه على مستوى المعاطاة التى لا تنتهى الى حد .. غير حد الابداع دائما .. والريادة دائما .. ونبالة الذود عن كل ما هو رائج فى التاريخ .. دائما دائما !!

عن البطولة والبطل .. من المنظور الاسلامي

- ١ -

التصدي لقضية «البطولة والبطل» من المنظور الاسلامي
ليس حركة «استقصاء» تاريخي بقدر ما هو حركة «استبصار»
تاريخي ، واعتقد أن الأبوان الفارقة بين الاستقصاء والاستبصار
هنا أوضح من أن تحتاج الى تعليقات أو هوامش أو شروح ..
فالاستقصاء نوع من الحشد التراكمي الفارق في جواذب الكم ،
والاستبصار نوع من الانتخا ب الطبيعي الغسائص في تأمل
الأنواع !!

ولن يتاح لحركة الاستبصار التاريخي ان تعطى حكمها
الموضوعي المنع في غياب حركة الاستقصاء لان الحكم على أي شيء -
كما يقول المناطقة - فرع عن تصوره ، والتصور لا يكون حقيقيا
الا اذا كان قائما على الحضور الكلي للصورة ، والحضور الكلي
يستدعيه - دائما وبلا تردد - الاستقصاء التاريخي دون غيره من
المجالات !!

ومن الضروري قبل أى شىء ان نؤكد ان الاستقصاء لن يكون مرتبا هنا ترتيبا تاريخيا تعاقبيا ، بقدر ما سيكون مرتبا ترتيبا استغراقيا اذا جاز لنا أن نقول . . بمعنى أن اهتماماتنا الأولى لن تكون على عنصر الزمن بقدر ما ستكون على عنصر الفكر ، فقد يجوز ان يتطور الفكر فى خط مواز لتطور الزمن ، وقد يجوز كذلك ان يرتد الفكر ارتدادا ناكصة فى عصر لاحق عنه فى عصر سابق ، ومن هنا يكون استقطاب حركة الفكر أهدي وأرشد ، وان كان ذلك لا يعنى بالطبع اهدار قيمة العنصر التاريخي على الاطلاق ، فاذا واكبت الحركة الفكرية تطور الزمن فان ذلك هو المسار الطبيعي لجريان الاشياء فى مجراها الطبيعي ، الا اننا لن نكون ملزمين بدوران اعمى - من أى لون وفى أى اتجاه - اذا ما انفصلت حركة الفكر عن حركة الزمن طردا أو عكسا . . ان ذلك لن يكبلنا بالتزام من أى نوع نحو أى من المسارات مادامت قضيتنا هى قضية الفكر . وليست قضية الزمن !!

وتصورى - فى مواجهة هذه القضية - يمر بالضرورة فى مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : محاولة التعرف على ملامح البطولة والبطل - عبر أطوار التاريخ - من الوجهة غير الاسلامية

المرحلة الثانية : محاولة التعرف على ملامح البطولة والبطل من الوجهة الاسلامية .

المرحلة الثالثة : محاولة المقارنة بين مفهوم البطولة والبطل من الوجهة الاسلامية . وبين مفهومهما معا من الوجهات الأخرى - غابرة ومعاصرة - على السواء ! .

وقد يمكن ان يقال : ان البطولة والبطل قد تعاورتها - من الوجهة غير الاسلامية - اطوار أربعة :

(أ) ! طور البطولة الاسطورية .

(ب) طور البطولة التاريخية الخرافية .

(ج) طور البطولة التاريخية الفردية .

(د) طور البطولة التاريخية الاجتماعية .

ولكل طور من هذه الاطوار بواعثه البسادية أو المستسرة ، وضوابطه الضاغطة أو المنفرطة ، وملامحه الصميمة أو القشرية . . ولكن من الخق أن يقال هذه البواعث ، وهذه الضوابط ، وهذه الملامح . لم تكن على مستوى واحد في كل هذه الأنماط ، فقد كان مزاج العصر ، وطبيعة البيئة ، ونضج الثقافة يشكل فوارق صميمة بين واحدة وأخرى من هذه البطولات ، ويباين بالضرورة بين واحد وآخر من أولئك الأبطال .

هذه الاطوار البطولية الأربعة هي - فيما نرى - جهات البطولة الأربع ، وربما كانت هذه المحاولة في استقصاء اطوار البطولة أو الاطوار التي تعاورت البطل على وجه التحديد ، خطوة على طريق التأصيل لمنهج علمي يدرس البطولة والبطل في ضوء انتماءاتهما التاريخية وليس في ضوء تمزقهما الكياني بين هذه وتلك من مواطن التجريد !!

والبطل - فيما أعني - هو الموجود القادر على « الفعل التاريخي »

والبطولة - فيما أعني - هي « القدرة على الفعل التاريخي »

وعلى ضوء هذا التصور نستطيع منذ البدء أن نتجاوز « البطولة الاسطورية » بما هي عاجزة عن الفعل التاريخي أساسا ، وبما هي قاصرة عن امدادنا « بالبطل » الذي يستطيع ان يقود حركة التحول ، أو يفجر ثورة التغيير في نهاية الأمر !!

يبقى ان نتأمل اطوار البطولة الثلاثة : التاريخية الخرافية ..
والتاريخية الفردية .. والتاريخية الاجتماعية . لدورانها جميعا
حول محور التاريخ من جهة ، ولتفاوت أقدارها من حركة الفعل
الحقيقي من جهة أخرى . ثم - وهذا هو الأهم - لمغايرتها فى النهاية
للمنظور البطولى فى الاسلام ، بما هى اجترح بشرى راسف فى قيد
محدوديته ، ان استطاع - كجانب من جوانب القضية - أن يشير
كمال الجانب الآخر - أعنى الجانب الاسلامى - فلن يستطيع أن يثبت
كمال هو ، أو حتى قدراته على الكمال !!

من المنظور التاريخى الخرافى :

من الممكن أن نحدد مصطلح « البطولة التاريخية الخرافية » من
خلال عنصرين أساسيين هما :

★ عنصر التاريخ ..

★ وعنصر الخرافة ..

وأعنى بعنصر التاريخ أن يكون البطل - المحور قد عاش بالفعل
يوما على هذه الأرض ، وأنجز بالفعل عدیدا من البطولات والأعمال
العظيمة ، أى أن يكون هذا البطل قد قام بفعل تاريخى على وجه
اليقين .

وأعنى بعنصر الخرافة أن يكون هذا البطل التاريخى - المحور
قد وصل فى أخلاذ عاشقيه الى مرتبة أعلى من مرتبة الانسان
العادى ، فأضافوا الى تاريخه الحقيقى تاريخا غير حقيقى ، والى أعماله
المتعينة أعمالا متخيلة ، والى صورته كانسان صورته كقديس ، أو
صورته كملك ، أو صورته كمبدع خرافى لكثير من الأشياء !! وأن
يكون الحافز من وراء تكبير هذه الصورة التاريخية وتضخيمها الى
هذا الحد الذى تفقد معه كثيرا من ملامحها الانسانية أو تكاد ، هو

الاقتتان الذاهل ببطولة هذا البطل ، وبانجازاته الحضارية كما يكون المفهوم للانجاز الحضارى فى عصره وعصورهم معا ، ثم امتداد هذا الحس الذاهل المفتون ببطولة هذا البطل فى أعراق المراحل التاريخية التالية ، حتى يتحول البطل الى خرافة ، ويتحول الاعجاب الى عبادة وتكريس !!

ونستطيع أن نبين ملامح هذه المرحلة ، أو قل ملامح بطوله البطل فى هذه المرحلة من خلال « أودين » بطل « كارليل » الذى فتنه — كما فتن أجيالا من قبله — الى حد منحه معه أهلية العبادة ، وإمكانية أن يكون « مبدعا خلاقا » وليس مجرد واحد بارز من سواء الناس !!

ان « كارليل » فى ترجمته « لأودين » يتفرس باعجاب غير مبرر ملامح الأساطير الخارقة التى كانت تعج بها جزيرة « ايسلاندة » ويتأمل باعجاب أكبر — غير مبرر كذلك — ملامح « أودين » كبطل أخذ على عاتقه مهمة تفسير هذه الأساطير ، ويزعم الكاتب أن تفسير بطله الشاقب للأساطير كان نقطة البدء فى اعجاب الناس به ، ثم افتتانهم بقدراته الخارقة ، ثم عبادته فى نهاية الأمر .

ويزعم المؤرخ « سنورو » ان أودين كان أميرا وفارسا وبطلا فى بقعة بقرب البحر الأسود ، له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته ، ثم ان بلادهم ضاقت بهم فخفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار . وان هذا الأمير « أودين » اخترع حروف الهجاء ، وابتدع الشعر ، وغيرهما ، ثم آل به الأمر الى أن اتخذه الناس الها (١) .

ولكن المؤرخ « جراماتيكاكس » وهو أشد ثقة برأيه من

(١) أنظر الأبطال . توماس كارليل . ترجمة محمد السباعي

« سنورو » لا يصعب عليه أن يخلق لكل خرافة أصلا وحقيقة ،
ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت هنا أو هناك (١) .

ويجيء المؤرخ «تورفوس» بعد هذين بقرون ، فيضع تاريخا
لزمان « أودين » اذ يقول : ان أودين قدم أوربا عام سبعين قبل
الميلاد (٢) .

ويأتى المؤرخ « جريم » لينفى وجود « أودين » نفيا كاملا ،
معتمدا في حركة نفيه على علمه بالاشتقاق اللغوى (٣) .

ويتصدى له ولغيره من المؤرخين من يؤكد ان « أودين » كان
رجلا تاريخيا مقدودا من لحم البشرية وعظامها ، يبصر بالعين ،
ويلمس باليد ، وليس مجرد هالة خرافية من النعوت والأوصاف
والسمات !!

ولكن (أهل عصره لم يعرفوا لاجلالهم اياه حدا ، بل لم يكن
لديهم اذ ذاك ميزان يزنون به الاجلال أو ربما كان ذلك
الرجل « أودين » اذ منحه الله العقل الكبير ، وبعث في ذهنه نورا
من لدنه ، وفجر في نفسه ينبوعا من عنده . أصبح يرى نفسه
سرا من الأسرار ، ولغزا لا يحل ، وشيئا يوجب الرعب والدهش
في نفسه هو ، فحسب انه ربما كان الهى المنشأ ، أى شعبة من
القوة الكبرى ، والذات العليا المسماة « فوتان » أو « أودين » بمعنى
القوة العظمى (٤) .

وعلى هذا النحو يمضى كارليل فى تأمل هذا التاريخ الخرافى ،

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

(٤) الأبطال . توماس كارليل . ترجمة محمد السباعى ص ٢٩

أو قل هذا التاريخ المشوب بالخرافة بمنطق التبرير ومنطق
الاعجاب جميعا ، فهو بصدد اختراع « أودين » للأبجدية يقعى على
ركبتيه تقديسا وتمجيذا لبطله الالهى ، وهو بصدد اختراع « أودين »
للشعر يتمزق من اعجاب بلا حدود ، ان منطق التبرير والاعجاب
هما سمت هذه التجربة الأدبية الموهلة فى احتضان بطلها على
مستوى المعقول واللامعقول ..

(والتاريخ هنا لا ينفى وجود البطل ، وانما يشذب هذه
الهالة الغنية ليرصد حركة البطل ويفسرها فى ضوء الواقع بعيدا
عن الخيال ، أو هو يعيد عرض السير وتفسيرها فى ضوء
العلم) (١) .

ان هذا التاريخ الذى « لا ينفى وجود البطل » هو المنطلق
الأساسى فى اعتبار هذا البطل بطلا تاريخيا ، اما أن يجىء التاريخ
ليشذب ويفسر فى ضوء الواقع وضوء العلم ، فان ذلك لا يصادر
مقولة ان هذا البطل « تاريخى » بدرجة ما ، لان حوار الكاتبين من
حوله اتكأ أساسا على واقع تاريخى له رصيد فى مدونة التاريخ ،
فاذا جاءت الأجيال الخالفة وأغرقت تاريخه فى الخرافة ، فالتبس
حقه بباطله ، وواقعه بلا واقعه ، وتاريخه بخرافته ، فان ذلك
لا يطامن من القيمة التاريخية لحلول البطل فى التاريخ ، وان كان
يتحيف بأقدار هائلة من القيمة البطولية لبطولته ، فان وشلا من
الفعل التاريخى هو الذى يلوح أمامنا ليبرز لنا بطولة هذا البطل ؟
بينما يلوح أمامنا طوفان من الخرافة التاريخية التى تحاول أن تجعل
من الانسان اقتدارا خالقا أعلى من الانسان !!

ومهما يكن من شئ .. فان البطولة التاريخية الخرافية
لبطل ما ، تنهض فى أساسها على الواقع التاريخى ، ثم تستسلم

(١) الميرة تاريخ وفن . د ناصر حسن فهمى ص ٢٥

عبر مراحل الزمن لمنطق الخرافة ، حتى تستحيل فى نهاية الأمر الى حقيقة غير قابلة لمنطق الحلول على الأرض ، أو قل الى حقيقة ضائعة فى أدغال تحتاج فى حركة التهدى اليها الى عصور من الجهود الباذلة حتى يبين حقيقتها من زائفها ، وأصيلها من دخيلها وواقعها من خرافتها ، ولكن - هل يبين ؟؟

ان بطولة البطل لا تملك الا قدرا متضائلا من «الفعل التاريخي» كما قلت ، بما هي غارقة فى الخرافة الساذجة التى تحيل الحقيقة البشرية لمجرد بروزها أو فدايتها فى مجال من المجالات الى حقيقة خارقة ، فتفقد على الفور بطولتها وملامح وجهها الحقيقى وتبقى فى ذاكرة التاريخ مجرد شئ جمالى يتلهى به الفارغون لحظات السأم أو لحظات الملل !!

وكذلك فان بطولة البطل هنا لا تملك التزاما أخلاقيا أو عقائديا نحو جيلها والأجيال المقبلة .. ان الفعل الآلى هو الذى يحركها ، وهى فى حركتها تستطيع أن تبطش وأن تكذب وأن تختلق .. لأن حس الالتزام العقائدى أو الأخلاقى لا يحرك خطواتها على الأرض ، ولا يشد عيونها الى أفق التعالى والانطلاق ..

وكذلك فان بطولة البطل هنا تبدو كما لو كانت صخرة تنحدر على جبهة التاريخ بلا حتى مجرد استدعاء .. ان البطولة الحقيقية بالفعل هي بطولة « الدور التاريخى المنتظر » لأنها حينذاك تأتى على ايقاع مواعيدها الصميمة ، لتلبى حاجة المرحلة وكل المراحل التالية بما هو استقطاب شامل لحركة الانسان وحركة الكون وحركة الجدل الوجودى المتبادل بين هذا الكون وبطله المأساوى الذى هو الانسان !!

هذه لمحة خاطفة عن البطولة التاريخية الخرافية .. نمر بها هكذا عابرين .. لنحط فى راءها من بطولات !!

من المنظور التاريخي الفردي :

- ربما - من هنا يبدأ التاريخ الحقيقي للبطولة الحقيقية .
بمعنى ان الأساطير - كمضمون بطولى - ليست على أى مستوى من المستويات سوى خيال مجنح رائع ، ان استطاع أن يرضى فينا نزعة الضياع الحالم فى عالم بلا تخوم ، فلن يستطيع أن يرضى فينا النهم العقلى بشروطه التاريخية الصارمة . . . وبمعنى أن الخرافة - كمضمون بطولى حتى وان جاورت التاريخ - ليست على أى مستوى من مستوياتها كذلك سوى اسقاطات بشرية عاجزة على كاهل بطل نتوهم أو نحلم بأنه آت لرفع اصر العجز عن عاتق البشرية بأسرها ، وهى فى النهاية ان أمدتنا بأبعاد من الواقع البطولى الحق للشخصية البطلة ، فقد تمدنا بأبعاد أخرى هائلة من الواقع الخرافى المنسوج حول هذه الشخصية البطلة ، ومن هنا يختلط الواقع بالخرافة ، وتضيع ملامح « الفعل التاريخى » المحقق الذى ارتضيئنا أن يكون هو المحور الذى يجعل من البطل بطلا ، ومن العبرى عبقرى ، ومن العظيم عظيما !!

نحن اذن فى مواجهة البطولة الفردية أمام ميلاد حقيقى للبطولة الحقيقية . ولست أعنى بذلك ان المرحلة التاريخية التى شهدت ميلاد البطولة الفردية تجيء بالضرورة بعد المرحلة التى شهدت ميلاد البطولة الأسطورية والبطولة الخرافية جميعا ، فان الانسانية قابلة باستمرار - تحت ضغط عوامل اجتماعية وحضارية معا - لأن تعود الى طفولتها لاعبة من جديد !!

وقبل أن ندخل عالم البطولة الفردية فقد يكون من المفيد أن نمهد بأرضية تاريخية خاطفة تبين مراحل تطور فكرة البطولة

الفردية من فجر التاريخ حتى اليوم ، لان ذلك التطور التاريخي يعطى بالضرورة معناه في مجال المقابلة والمقارنة التي ستأتى حصادا لهذه المرحلة ، وتتويجا لهذا الكدح وراء ملامح الأشياء :

فقد (خالص الاغريق التساريخ من سطوة الخرافة ، وبدأت لمحات باهرة من التفكير التاريخي تسفر عن اتجاهات بينه ، فكشفوا مثلا عن طبيعة الصراع الأزلي بين المجتمعات البشرية كما رآه هيرودوت في الصدام بين الاغريق والفرس ، وأرسوا قواعد نظرية « الرجل العظيم » أو « البطل في التاريخ » . . . وأخذ الرومان عن الاغريق تلك الاتجاهات التي سادت تفكيرهم عن التاريخ فأكدوا نظرية « الرجل العظيم » وهي النظرية التي بقيت حتى القرن التاسع عشر شامخة الذرى في موكب التاريخ الحافل ، تشد أحداثه اليها شدا عنيفا لا يستطيع منها فككا ، وكأن البطل هو الصانع الوحيد للتاريخ وغدا الناس بين كثرة تابعة وقلة متبوعة ، وعلى رأس تلك القلة المتبوعة يتنسم البطل غارب المجد والسلطان ، فهو الملك المؤله في مصر القديمة ، وهو المحارب الشجاع في اسبرطة ، وهو السياسي أو القائد المنتصر في أتيناء ، وهو الفاتح القاهر في روما . . . ويستوى تاريخ بلوتارك « حياة العظماء » على القمة من أعمال المؤرخين في عهده وإلى ما بعد عهده بحقب طوال . . . وتسود نظرية الرجل العظيم فتترك لمستها القاهرة في التاريخ العام . ولا يعدو كونه تاريخا لسياسة الدول وحكامها ، ويبقى جامدا أمامها لا يتحرر منها . . . ولم تستطع المسيحية حين غلبت الوثنية في روما وقهرتها . واجتمعت لها السلطة الزمنية الى جانب سلطانها الديني . بعد . أن اعتنقها قسطنطين وأعلن انه حاميها وكبير أساقفتها أن تقضى على نظرية الرجل العظيم . بل وأعلنت من شأنها أذ بقي الناس يقدرسون البطولة والبسالة من أثر تقديسهم لتلك القوة الغالبة التي تشوق

البشر ، والتي ردها القساوسة الى ارادة الهية قوت منها بطريق غير مباشر ، وبالرغم من انحراف التاريخ حين آل أمره الى القساوسة والرهبان عن اتجاهه العلمى الذى بدأه الاغريق وغدا مسخرا للاهوت ، قائما على خدمة الكنيسة وتعاليمها ، لا يعنى بالحقيقة قدر ما يعنى بالحوارق والكرامات التى ظن آباء الكنيسة انها تعلو من شأن الدين ، فتدعم العقيدة الدينية ، فقد بقيت تلك الحوارق تسوق الناس الى تقديس القوى القاهرة ، ومن ثم بقيت عبادة البطولة أو نظرية الرجل العظيم قابضة فى خفايا اللاشعور حتى انبعثت مرة أخرى فى عصر النهضة ٠٠٠٠ فلما انحسر سلطان الكنيسة ، وعاد الناس مرة أخرى ينبشون ركام الماضى ويستوحيون آثار الاغريق ألوانا باهرة من التفكير العقلى والفلسفى ، بقيت فى نفوسهم اثارة من القداسة لتلك القوى الكبرى التى تسيطر على مصير البشر ٠٠ حتى غدا بلوتارك - كما يقول ادوارد كار - أعظم مؤرخى القديم تأثيرا فى حركة الاحياء الكلاسيكى للنهضة الأوروبية ٠٠٠ (١) .

ثم تتابع من بعد ذلك الدكتاتوريات الفاجعة التى سحقت ازادات الجموع بدعوى بطولة البطل وامتيازه الخارق ، وقدرته وحده على توجيه التاريخ الأسمى أو العالمى وجهته التى يريد - - وتدفق من خلال هذه الحركات شلال من دماء البشر ما يزال يصرخ فى تراب الأرض - ربما - حتى هذه اللحظات !!

هذا هو المدخل التاريخى الذى يمكن أن نهيئ به للحديث عن « البطولة التاريخية الفردية » وكما قلت فى مطالع هذه السطور فان التطور التاريخى فى النظر الى قيمة من القيم يعطى بالضرورة أثره البالغ على كل القيم وعلى منحى تناولها معا . . .

(١) التاريخ والسير . د . حسين فوزى النجار . ص ٢٦ وما بعدها . . .

يؤكد هذه الفرضية موقف كاتب - يفرض نفسه على هذه
السطور مرة أخرى - هو الكاتب الانجليزى « توماس كارليل » .
فلقد تلقف هذا الكاتب الحيط ، ووقف على قمة المد الفردى فى
تقديره للبطولة وعبادة الأبطال .

فهو يعتقد (ان التاريخ العام - تاريخ ما أحدث الانسان فى
هذا العالم - انما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، وهم
الأئمة ، وهم المكيفون للأمور ، وهم الأسوة والقدوة ، وهم المبدعون
لكل ما وفق اليه أهل الدنيا ، وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه
قائما فى هذا الوجود كاملا متقنا فاعلم انه نتيجة أفكار أولئك
العظماء) (١) .

وهو يرى أن (أهم مزايا جيل من الأجيال هو كيفية استقباله
للرجل العظيم) (٢) .

وهو يغلو فى ذلك الى أبعد من هذا الحد فيقول : (وانى
لاوقن بأتى لا أحسب ان هناك رجلا عظيما لايمكنه ان يكون
عظيما فى كل فن ، فالشاعر الذى لا يستطيع الا ان يجلس الى
يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه أن ينظم قصيدة
بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع الا اذا كان هو
نفسه فارسا أروع ، ولا أحسب الشاعر الكبير الا انه يجمع فى
نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف ، وانه قد كان
يمكنه أن يكون - بل هو بالفعل - كل هذه) (٣) .

وعنده ان الرجل العظيم أو البطل : (مخلوق من فؤاد

(١) الأبطال . توماس كارليل . ترجمة محمد السباعى . ص ١٠٠

(٢) الأبطال . توماس كارليل . ترجمة محمد السباعى ص ٤٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٧ - ٨٨ .

الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية
للأشياء (١) .

(ومن الواضح ان فكرة البطل أمدت (كارليل) بمبادئ
مقتبسة من مبادئ أنجيله الاجتماعي الهامة ، فالإنسانية عنده
مدينة بالتقدم لحفنة من النخبة ، حفنة من الملهمين المتميزين الذين
نفذت بصيرتهم الى « قدسية » الأشياء ، بينما لم تدرك جمهرة
الناس الا مظهر الأشياء التافه الزائل . . . فلهم أن يحكموا سائر
الناس ، ويرغموهم على الخضوع المطلق ، ويستبدوا بهم فيما اد
اقتضى الأمر ذلك ، غير خاضعين الا لرقابة ضمائرهم) (٢) .

وواضح ان منحى « كارليل » فى تقديره للبطولة واعجابه
الحارق بالأبطال انما ينزع عن شفافية لا عن حقد . وعن
استجابة لهواتف العظمة وليس عن غمط متعمد للهواتف وللعظمة
جميعا . . وهو فى ذلك يباين - تماما - واحدا مثل « نيتشه »
فيلسوف القوة المهاجم ، فان نيتشه يركز بلا ملال على أن
« الانسان هو خالق القيم » وان « ارادة القوة » و « فكرة الانسان
الأعلى » و « الأخلاق السادة فى مقابل أخلاق العبيد » هى التى
يجب أن تسود ، وقد لا يغرب عن أخلاقنا فى هذا المجال دعوة
نيتشه الى التضحية بكل الأفراد العاجزين حتى لا يتسلسل
العجز فى الأجيال الخالفة ، وحتى يبقى فى النهاية الفرد الأقوى
الذى ينتزع بقاءه بذراعيه ، ويقا تل دونه على كل الجبهات !!

ان بطولة البطل - من المنظور التاريخى الفردى - قد أسىء
فهمها واستعمالها معا ، فقد أكد الفلاسفة والمؤرخون الذين

(١) المرجع السابق ص ٥٢ .

(٢) الأدب والفن فى ضوء الواقعية ، جون فريفييل . ترجمة محمد مفيد

الشرباشى ص ٨٦ .

تصدوا لدراسة هذه الظاهرة ان البطولة التاريخية الفردية تعنى أن «ينفرد الفرد بالسلطة» . وأن يُطلق يده فى الناس والتاريخ، وأن يتورم احساسه بالعظمة والاعتدار المعجز ، وأن يقود المرحله الى حيث ينبغي هو وليس الى حيث يتواء منطق الأشياء مع منطق الأشياء !!

ان البطل التاريخى ظاهرة حقيقية باهرة فى تاريخ العصور ، ولكن ليس معنى ذلك أن يتمدد هذا البطل على حساب ضُمور الآخرين ، ان البطل السوى ينبغي أن يتحرك من خلال قناعات ذاتية أجل : ولكن من خلال قناعات غيرية كذلك ، لان الانسان مهما أوتى من عبقرية الرأى ، وفذاذة الشخصية ، واتساع المجال ، لا يمكن أن يكون على هذه الأرض بمفرده . لا يمكن أن يستغنى عن الآخرين . لا يمكن أن يعصب عينيه ويمضى وحده على طريق مزحوم بالبراكين !!

ان خطأ « كارليل » انه اندفع فى تمجيد البطولة الى مدى متاخم أو موغل فى تمجيد الاستبدادية ، من ذلك موقفه الشائن فى تمجيد الطاغية « فرانسيس » طاغية بارجواى ، ولو انه - اعنى كارليل - عرف القصد فى تمجيد البطولة والاعجاب بالبطل لكان فى ذلك متساوقا مع طبائع الأشياء . فان الحفاظ على فردية الفرد من طفيان الجماعة ، والاعلاء من شأن هذه الفردية بما هى الجوهر الذاتى للشخصية الانسانية ، والهدف بكل انجازاتها الحقيقية فى التاريخ ، ان كل أولئك مطلوب ومطالب به ، ولكن على أن لا يتجاوز القصد ، ويندفع فى حماسيات لا مبررة تصل به فى النهاية الى عبادة أبطاله الحارقين !!

ان « كارليل » - كنموذج للافتتان ببطولة البطل - يؤمن بان (البطل هو بادی الحركات وخالق القيم ، وموحد النظم ،

وان الرجل العظيم بشخصيته المنيفة ، و ارادته المصممة ، يوجه التاريخ ، ويصرف الحوادث ، ويرسم الاتجاهات البعيدة ، ويفرض على المجتمع صورة الحضارة وألوان الثقافة ، ويمتد تأثيره . ويتراعى ظله الى المستقبل (١) .

وهذا كله قد نوافق عليه ، ولكن من خلال شرطين أساسيين :

الشرط الأول : أن ينظر الى بطولة البطل من خلال التزامها العضوي ببطولات الجماعة التي ينبع منها ، أو بالرسالة التي يؤديها .

والشرط الثاني : ألا نصل باعجابنا الى مراحل التقديس والعبادة ، فان كائنا بشريا على هذه الأرض لا يمكن أن يكون من خلال أي فرضية بطولية - الها ... أو حتى ظلا لاله ... فان هذا التوثيق الفاجع كان مرحلة غابرة لا تقبل أن تعود ، ولا يقبل البشر أن يصيخوا اليها اذا عادت من جديد !!

وهكذا نصل الى أن طور « البطولة التاريخية الفردية » قد تحيفته نواقص بلا حدود ، أو زوائد بلا حدود كذلك ، مما يوحى بالضرورة حتمية أن لا يكون هذا الطور هو ما تنشده البشرية في كدحها الدائب من أجل مفهوم حقيقي للبطولة موائم لظموح الانسان ... أو مواكب لرحلة التاريخ ...

ونأمل في معاناتنا الباحثة أن نعثر على هذا المفهوم !!

(١) ألوان من ادب الغرب . على آدم . ص ١١٦ .

من المنظور التاريخي الاجتماعي :

من الحقيقي أن يقال : ان بطولة البطل - من المنظور التاريخي الاجتماعي - ترددت بين اتجاهين رئيسيين نشأ في المذاهب الفلسفية أول الأمر ، ثم تكاملا فيما بعد في المذاهب الاجتماعية .. وهما :

(أ) اتجاه يؤكد على محدودية دور الفرد في قيادة التغيير ، ويضائل من قيمة « فعله التاريخي » الا انه لا ينفيه من مناطق الفعل تماما . وقد يكون هذا الاتجاه أقرب الى الفكر الفلسفي من حيث صلتته العضوية بمنابعه - منه الى الفكر الاجتماعي .

(ب) اتجاه ينفي تماما أن يكون للفرد اقتدار ما على توجيه حركة التطور ، أو تعديل مسارات التغيير في التاريخ ، بما هو جزء محتوي - على مستوى دينامي - في كل صائر بطبيعته الى مستقبله ، وبما هو عجيبة طيعة في يد العوامل البيئية والاقتصادية والتاريخية والمادية .. وقد يكون هذا الاتجاه أقرب الى الفكر الاجتماعي .

وقد يلاحظ هنا ان المسافة الفارقة بين الاتجاهين ليست على مستوى التضاد أو المقابلة وانما الأمر فيهما معا أشبه ما يكون بالبذار والايناع .. أعني ان الفكر الفلسفي الكامن في الاتجاه الأول يمكن أن يكون أساس الحركة والاندفاع في الفكر الاجتماعي الكامن في الاتجاه الثاني .. أعني مرة أخرى ان تحديد أفلاطون للعلاقة بين الفرد والدولة ، وارتضاء فكرة ان الحرية الحقيقية للفرد يمكن أن يستمدّها من الدولة وليس من انطلاقه الذاتي .. ثم تطوير هذه الفكرة في فلسفة « هيجل » الذي يؤكد على احتواء الدولة

للفرد - مع صيانة ذاته وقدراته - والذى يمهّد - على مستوى فلسفى - لميلاد « الضرورة التاريخية » أو « الجبر التاريخى » . .
أقول : ان حركة هذا الفكر الفلسفى كانت ايدانا حقيقيا بميلاد كل مذاهب « الجبر الاجتماعى » . . « والحتميات التاريخية » . . « والديالكتيك » . . « والتفسير المادى للتاريخ » . . كما قادها « كارل ماركس » ومن بعده فلاسفة الشيوعية المتعددون !!

فاذا انتهينا الى هذه الملاحظة انتهينا بالضرورة الى أن وجود مبدأ الجدل أو الديالكتيك - كما يفرضه الجدليون الماديون - كحاكم استبدادى يحكم مسار التاريخ ويطوع اتجاهاته لارادته ، يفرض بالضرورة تراجع البطل التاريخى وانحسار دوره الفاعل فى جدل الصراع ، وظهور قوة أو قوى اجتماعية ساحقة لا تأبه الا بحتمية الدورة التاريخية ولا تستطيع كبح جماح نفسها بما هى صائرة بالضرورة الى هدفها النهائى الذى لا يقبل التراجع ولا يطيقه ولا يستطيعه حتى ان أراد !!

ان التاريخ كله فى هذه النظرية يستحيل الى سلسلة جامدة من « الأفعال وردود الأفعال » . . فاذا شارف « فعل » مرحلة نضوجه واكتماله ، انهار - أو أوشك أن ينهار - انهيارا ذاتيا ، ليفسح « لرد الفعل » كى يأخذ طريقه الى مرحلة الحلول . . وهكذا . . .

من هنا ، يبدو البطل جوابا عن سؤال غير مطروح ، ويستحيل الى مجرد شارح للتطور ، أو مجرد معلق على حركة الواقع الجدلى ، أو مجرد بنية فى كل عضوى أتيح لها - ربما بعفوية محضة - أن تتحدث بلسان الثورة ، أو تترجم عن ارادة التغيير !!

وهذا خطأ المادية الجدلية الفادح ، ان « الانسان » يتراجع فى هذه النظرية الى آميال بعيدة عن حركة الفعل ، ليتيح لدورة

الجدل المادى أن تباشر نشاطها فى هذا المجال ، وكأن المادة هى العقل المخطط لمصائر الأشياء ، وكأن الانسان هو هذه الآلة الحية التى لا تعى حتى مجرد وضعيتها التاريخية على هذه الأرض . . .

ان (القوة الدافعة وراء العملية الجدلية - فى زعم ماركس - ليست عقلية ، وانما هى حادثة طبيعية مادية ، وليس ارادة الناس ولا أفكارهم هى التى تغير وجه التاريخ وتهيمن على اتجاهاته ، وانما هى الفواعل الطبيعية ، وتكشف المواد الخام ، ومبتكرات الصناعة) (١) .

من هذه المقولات المادية نستطيع أن نركز على أشياء لنرفضها فى النهاية :

أولها : ان الجدل كامن فى طبائع الأشياء ومنساب مع تيار التاريخ العارم .

ثانيها : ان العامل المهيء للتغيير ليس عقليا انسانيا ، وانما هو مادي طبيعي .

ثالثها : ان الابداع ليس امكانية فردية مطلقة ، وانما هو امكانية جماعية يدخل فيها الانسان كشريك منفعل وليس كبنية فاعلة .

ونتيجة لشيوع هذه المقولات المادية - فى القطاعات البشرية والجغرافية التى تدين بها - بتفاوت طبيعي بينها هنا وبينها هناك - فان البطل التاريخي الفرد أخذ ينحسر عن مجال الفعل

(١) المذاهب السياسية المعاصرة . على آدم . ص ٧٨ .

التاريخى « القائد » انحصارا تدريجيا ، ليتيح لحركة التاريخ
المادية - من خلال جدلها الحتمى كما يزعمون - أن تمارس
اندفاعها الهائل الى المستقبل ، وأن تحقق منطق ارتدادها الأبدى
من الفعل الى رد الفعل ، وأن تقبض بيديها على النقيض ونقيض
النقيض !!

وفى ظلال مثل هذه الحتميات القابضة نرى كاتبا ناقدا مثل
« تين » يترجم للشاعر الانجليزى « بايرون » من خلال حتميات
ثلاث وليس حتمية واحدة « فالجنس .. والعصر .. والبيئة »
هى ثالوثه المقدس الذى ينظر من خلاله الى بطله ، مرتبا على ذلك
ان الاختلاف فى النتاج الفنى بين كاتب وكاتب .. أو بين شاعر
وشاعر ، أو بين فنان وفنان ، ليس سوى نتيجة حتمية لقضيه
واحدة مقدماتها الثلاث : « الجنس .. والعصر .. والبيئة » ..
أما فردية الكاتب ، أو الشاعر ، أو الفنان ، واما قدراته الذاتية
على الابداع والتخيل والربط والإبحار فى عالم الفن بمجاديده
الخاصة ، فان كل أولئك ليس سوى صدى لهذه العوامل المادية
القاهرة التى تشكل لون فنانها ، وقيمتها ، ونوعية حلوله الفنى ..
وكان الفنان دمية منخوبة القاع ، بلا نبض حقيقى ، وبلا ايحاء
صادر عن ممالك الذات !!

هكذا أعطى « تين » تصوره لشاعره ، نازعا فى ذلك عن
قناعة صارمة بحتمية العوامل الثلاثة فى تشكيل الفنان وتشكيل
فنه على السواء ، غير ملتفت - كما أسلفت - الى ما يمكن أن يكون
بين كل الشخص من ملامح ذاتية فارقة ، تخرجها من « عملية
القولبة الساذجة » التى تراد لها من خلال مثل هذه الحتميات ،

الى ساحة الحرية القادرة على النبوغ فى نمط معين من الفكر ، أو
البروز فى منحى خاص من مناحى الابداع والاقتدار !!

ولكن الاتجاه السائد فى المرحلة كان يوحى بأنماط من هذه
الاحتميات ، وهى وان تغايرت - بالضرورة - نوعيا وكميا ، وأيضا
بيئيا وجنسيا ، فستبقى فى النهاية ضاغطة بآثارها على فكر
المرحلة وفننها جميعا ، وهو ما حدث بالفعل حين تراجعت بطولة
البطل على المستوى « الذاتى » لتحل محلها بطولة المجتمع . أو
بطولة العناصر ، أو بطولة حركة التاريخ !!

فهل تستقيم هذه النظرة مع واقع الحركة الانسانية فى
الكون ؟

وهل تصوغ هذه النظرية قاعدة راشدة للتطور على الدوام ؟

أوقن أن مثل هذه النظرة لا يمكن أن تستقيم مع واقع
الحركة الانسانية لا فى الكون ، ولا فى التاريخ . . لأن بطولة
الانسان ستبقى عاملا من عوامل تحوير الحركة الكونية وتطورها
معا ، وفى التاريخ آلاف الشواهد الدالة على ان « الانسان » كان
قادرا باستمرار على معاندة الحركة التاريخية ، وعلى فرض ارادة
الانسان والتطور والصواب الكونى فوق كل المعاندات . . . وهذا
يؤكد أن الانسان وليس مادية الجدل هو قائد حركة التحول ،
ومفجر طاقات التطوير !!

وأیضا أوقن ان مثل هذه النظرية ان استطاعت أن تضع
قاعدة للتطور - من منظورها الذاتى - فليست بمستطیعة أبدا أن
ترشد هذه القاعدة على الدوام . . . فبدیهى أن حركة التطور
المنبثقة عن جدل مادی لا يمكن أن تأبه فى مساراتها بقيمة

الانسان ، ومتى أهدرت قيمة الانسان تحت أى من الظروف فقد
فقد التطور رشاده ومنطقه ، واستحال الى تطور ضد ارادة
الكون ، وضد منطق صوابية الأشياء ، وحتما سيقع صراع
بلا نهاية بين مثل هذا التطور الفادح وبين كونية الكون التى تأبى
أن تمر من تحت سنابك الارهاب !!

ان مفهوم البطولة والبطل من المنظور التاريخى الاجتماعى
حاول ان يدعم آراءه الخاصة بسيطرة الحركة التاريخية المادية حين
أكد انه يعمل لصالح الطبقة الكادحة ، وكأن الطبقة الكادحة
لا يمكن - تاريخيا - أن تحصل على مكاسبها الا من خلال المرور
المدمر فوق كل ما تمتلكه من طاقات ، ونزعات ، وطموحات !!

ولقد حاول كذلك أن يؤكد على العلاقة الحميمة بين الانسان
ووسطه المادى - وهذا صحيح وصوابى - ولكنه لا يصبح على هذا
المستوى الرائع من الصوابية الا اذا فتح عينيه على العلائق الحتمية
الأخرى بين الانسان ووسطه الانسانى ، وبين الانسان ووسطه
الروحى .. ان هذه العلائق الحتمية أكثر صميمية مما سواها ..
ويستطيع الانسان الواشىج القربى بالأغيار من حوله ، الواشىج
القربى بقوة أشمل من قوته .. يستطيع هذا الانسان فى ظل
هذه الارتباطات أن يعمل ، وأن يبدع ، وأن يحيا ، وأن يمارس
وجوده الأفضل على هذه الأرض .

لابد اذن من منطلق آخر يقيم البطولة على سننها الصوابى
.. لابد من منظور آخر يضع شروطه الخالدة لبطله التاريخى ..
لابد أن ننتق من اطار البطولة الأسطورية بما هى عاجزة أساسا
عن « الفعل التاريخى » .. لابد أن نرفض البطولة التاريخية
الخرافية بما هى بعض حقيقى غارق فى أبعاد خرافية .. لابد أن
نصادر البطولة التاريخية الفردية بما هى مدخل الى الطغيان
من جهة ، ومنزلق الى تقديس البطل من جهة أخرى .. لابد أن

نعري زيف البطولة التاريخية الاجتماعية ، بما هي افتيات ساحق
على انسانية الفرد ، وعدوان فاجع على طاقات التصعيد الروحي
في علائق الانسان بكونه الجائش بملايين المعطيات !!

لا بد من البحث عن منظور آخر .. وعن منطلق آخر ..
وهذا ما نأمل أن نواجهه في المرحلة القادمة من هذه الرحلة عبر
هذه السطور !!

- ٤ -

من المنظور الاسلامي :

اذا كانت المرحلة التاريخية الخرافية قد شكلت بطلها على
نحو يوحى بأنه بصيص من الحقيقة التاريخية وطوفان من الخرافة
الفارغة ..

واذا كانت المرحلة التاريخية الفردية قد شكلت بطلها على
نحو يوحى بأنه صانع الحضارة ، وقائد التحول ، ووحده يقف
ليسدد خطا التاريخ .

واذا كانت المرحلة التاريخية الاجتماعية قد شكلت بطلها
على نحو يوحى بأنه ليس الفرد من يستطيع أن يكون بطلا ، وانما
هي حركة التاريخ نفسه ، وحتمية أن يصير دائما ، وأن يستحيل
أبدا .

اذا كانت كل هذه المراحل التاريخية تشكل بطلها على هذه
الأنحاء المتغايرة ، فان الاسلام ينظر الى القضية كلها نظرة أخرى،
ويعيد ترتيب مقدماتها ونتائجها على نحو آخر تماما ، ليس ليصل
الى نظرية معادلة أو مغايرة - فان ذلك لا يدخل في حسابه -
وانما ليقيم علاقة الانسان بالانسان ، وعلاقة الانسان بالكون ،

وعلاقة الانسان بالتاريخ ، على أسس حضارية حميمة ، تجيش بالحب حين يجيش غيرها بالكراهية ، وتلتقى على البناء حين يلتقى غيرها على الهدم ، وتتوافق مع الفطر حين لا يتوافق غيرها الا مع الأهواء !!

ان بطولة البطل - من المنظور الاسلامى - تبدأ من الأرض لتنتهى فى السماء .. هذا هو حجم بطولة البطل فى الاسلام بلا محاولة للتزيد ، أو مزيد من رفع الشعارات .. وقد نصل فى نهاية الرحلة الى قناعات نهائية فى هذا الصدد ، ليس لمجرد أن نرتفع بالمنظور الاسلامى فوق كل النظريات السائبة الملامح ، وانما لنترفع نحن الى ذروة الفعل الاسلامى فى واحد من مجالاته الوامضة التى تظل دائماً على مستوى الاشعاع والارتفاع ..

وقد يبدو قولنا : « ان بطولة البطل - من المنظور الاسلامى - تبدأ من الأرض لتنتهى فى السماء » حماسة جوفاء ليست تنطوى على مضمون ، ولكننا سنحاول أن نتبع ملامح هذه البطولة من هذا المنظور لنرى ، هل هى مجرد فرضية غائمة توحى بها حماسيات معينة ؟ أم هى واقع متحرك حى فرض ويفرض نفسه على كل العصور ؟

ان خرافية البطل غيرواردة من المنظور الاسلامى بالمرّة ، ولكن فردية هذا البطل ، أو اجتماعيته هى التى يمكن أن يتناولها المنظور الاسلامى بالتقييم والتقويم .. فبينما يقف أنصار المذهب الفردى فى بطولة البطل عند تخومه الحامدة ، وبينما يقف أنصار المذهب الاجتماعى فى بطولة البطل عند مشارفه الضاغطة . يقتحم الاسلام كل الحواجز والسدود ليقيم بطولة البطل على سواء آخر تماماً . فالفردية - من المنظور الاسلامى - لا تعنى فردية

مطلقة ، ولست أعنى بذلك ان الاسلام يقف فى طريق انطلاق الفرد أو انطلاق المجتمع ، وانما أعنى فقط ان الاسلام لا يعطى للفرد ولا للجماعة وجودا عاريا من كل الالتزامات ، ان الالتزام الفردى نحو الفرد والجماعة والكون والتاريخ يكبل انطلاقية الفرد من جهة ، ويعطيها حرية بلا حدود من الجهة المقابلة . . . وكذلك يعنى الالتزام الاجتماعى نحو الجماعة والفرد والكون والتاريخ . . . ومن هنا تصبح الحرية حرية مسئولة ، ويصبح الفرد حاملا لآلام المجتمع ، ويصبح المجتمع حاملا لآلام أفرادهِ . . وبدون هذا الجدل الانسانى المتحرك النابض يصبح الوجود غابة فاحشة ، أو مضطربا مائجا بأنانيات من كل لون ، وعدوانات من كل اتجاه !!

ان حركة اللقاء الرائع الذى يؤصل له الاسلام بين الفردية الفاعلة والاجتماعية الفاعلة كذلك ، تعنى ان الوجود الفردى يصبح بالضرورة وجودا غير أنانى وغير هارب فى أريدته الباطشة ، وهى تعنى كذلك ان الوجود الاجتماعى يصبح بالضرورة غير عدوانى وغير ساحق للوجود الفردى الصميمى الوجود !!

(والقرآن فى طريقته ونظمه ، حينما يتعرض للفرد « كالانسان » لا يريد الانسان من جماعة « معينة » وانما يريد « كل انسان » متمتع بصفات الانسانية وسماتها ، فدعوته « الفردية » هى دعوة « جماعية » فى عموم انطباقها على كل من يتمتع بهذه الصفة الكريمة « صفة الانسانية » . . ان الاسلام يدمج الفرد فى الجماعة ، ويدمج الجماعة فى الفرد ، ادماجا يشعر الفرد انه جزء من كل ، ويشعر الكل انه مؤلف من أجزاء متماسكة ، يكفى أن تتداعى جميعا اذا تداعى جزء منها ، أو أصيب بتعريف عن جماعته ، أو بتحيز الى غير جماعته) (١) .

(١) الاسلام اليوم وغدا - بحث الاخلاق الفردية والاجتماعية فى الاسلام .
للدكتور ابراهيم سلامة . ص ١٢ .

واذا كان دمج الفردية فى الجماعة ، والجماعية فى الفردية أول ملامح بطولة البطل من المنظور الاسلامى ، فان الظاهرة الفردية نفسها ، والظاهرة الاجتماعية نفسها ، تأخذ فى المنظور الاسلامى ملامح غير ملامحها فى غير المنظور الاسلامى من كل المذاهب والاتجاهات .. ان الظاهرة الفردية ملتزمة هنا وسائبة هناك ، وكذلك فان الظاهرة الاجتماعية متصلة فى حركة نشوئها على المستويين الاسلامى وغير الاسلامى بنوعية من القيم مغايرة ومتخالفة يكاد لا يجمع بينها سوى ان هذه وتلك ظاهرة من الظاهرات !!

ومن هنا .. فان نظرية الرجل « العظيم » من المنظور الاسلامى غايرت تمام التغاير نظيراتها عند الاغريق والرومان . ليس لأن الاسلام لا يعطى عنايته للبطولة والبطل ، فتاريخ الحركة الاسلامية غاص ببطولات رائعة من كل لون ، ونظرة الاسلام الى البطل دائما نظرة حب واعتزاز .. ولكن مفهوم البطولة هو الذى يتغير ، وحدود البطل هى التى يقع حولها الاختلاف !! فغير بعيد من المنظور الاسلامى أن يكون البطل التاريخى ظاهرة فردية ، بمعنى أن يكون شخص من الفداذة والاقتدار بحيث يستطيع أن يغير مسيرة التاريخ ، أو يجدد شباب الفكرة ، ولعل الحكمة العربية الدائمة « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها فكرها » تلخص هذه الوجهة ، وتفلسفت هذا الاتجاه ولكن ينبغى دائما أن نضع تحت عيوننا ان البطل - من المنظور الاسلامى - لا يتحرك من خلال تسبب جامح ، أو انفلات ضبابى الحدود ، انه يتحرك من خلال التزامه الصميمى بقضايا متعددة : قضية العقيدة .. وقضية الأمة .. وقضية الانسان .. وهو فى هذا التحرك لا يمكن أن يستوحى ذاته المنغلقة على ذاته ، وانما هو يستوحى ذوات متعددة بلا حدود : الفقهاء .. والعلماء ..

والعامة .. وتجارب السالفين ... ومن هنا تأخذ الفردية سماتها
مغايرا تماما ، فإن يستبد البطل التاريخي بالفتوى على كل
مستوى ، وفي أى اتجاه ، فإن ذلك يعنى بالضرورة حتمية الخطأ .
ليس ذلك فحسب ، وإنما يعنى كذلك حتمية أن ينفر من بين
صفوف الجماعة من يقاوم ويدعو الى المقاومة ، حتى تستقيم
الموازين ، ويتوافق النبض ، وتندفع الأشياء فى مسارها
الصحيح !!

والظاهرة الفردية من المنظور الاسلامى تؤكد لنفسها أبدا
انها لا يمكن أن تكون فردية انفرادية ، فحتى حين يغلق الفرد
أبوابه ويعود لا يشعر بوجود أحد سواه . يتعالى فى وجدانه
الوجود الأكبر . فيطامن من فرديته ، ويضائل من غروره !!!

وغير بعيد من المنظور الاسلامى كذلك أن يكون البطل
ظاهرة اجتماعية ، ولكن هذا المنظور الاسلامى يتساءل : « ظاهرة
اجتماعية لى شىء ؟؟ » .. فاذا صح فى المذاهب الأخرى ان البطل
ظاهرة اجتماعية لصراع العوامل الطبيعية . أو العوامل الاقتصادية ،
أو ما شاءوا من العوامل الأخرى .. فانه لا يصح فى المنظور الاسلامى
أن يكون البطل ظاهرة اجتماعية الا لروح العقيدة ، ونبض الايمان ،
والالتزام المصيرى بحركة التبليغ .. فالاسلام لا يعطى فردا ما امتياز
من أى لون لمجرد كونه منحدرًا من سلالة ما ، فالجميع أمامه
سواسية ، لا فضل لواحد على واحد الا بالعمل ، والكدح ،
والمعاناة ، وبنوعية ما يعمل ويكدح ويعانى من أجله !!

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » : ليس معناها أزهدكم أو
أعبدكم على مستوى السلب والانسحاب .. وإنما معناها أزهدكم
فى الاخلاص للراحة وأرغبكم فى جدل الموت والحياة ، معناها أعبدكم
تحت راية السيف ، والحرف ، والدموع ، والدم ، اذا هبض
للعقيدة جناح ، أو أستبيح للأمة مجال ... ان اتقانا قد يكون

فى الحرب أشجعنا ، وقد يكون فى السلم أنفعنا ، وقد يكون فى الدين أروعنا . . . ان الخرافة التى سادت الفكر الاغريقى والفكر الرومانى ، لم تستطع ان تعيش فى الفكر الاسلامى لانها اصطدمت ابتداء بحقيقة ان هذا الدين الرائع شكل من أول لحظات حلوله على الأرض ثورة ضارمة على كل الخرافات ، وقاد للمرة الأولى فى تاريخ العقائد حركة تحرير شاملة : للعقول من الخرافة ، وللجذوع من الانحناء ، وللقلوب من التشريك ، وللأرض من الغاصبين ، وللتاريخ من الكذب ، وللقليم من الادعاءات ، وللعلاقات من الدنس ، وللأقلام من شهوة التسيب المريض !!

لقد رأينا خليفة يقف فى يوم توليه للخلافة ليخاطب الأمة : « أيها الناس ، انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى » . . ان البطل هنا لا يعبر عن قهر اجتماعى ، ولا عن تورم فى الاحساس بالذات ، ولكنه يصدر عن حس عقائدى يسامت الحق ولا يفارقه ، وهذا هو محور بطولته . . . ولم يكن المجتمع الاسلامى الذى يعيش فيه هذا البطل بغافل عن هذه الحقيقة ، فان صيحة رجل من العامة فى وجه هذا الخليفة العادل بقوله : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » . . كانت هى الأخرى تعبيرا صميميا عن رأى القاعدة الاجتماعية فى تقديرها للبطولة ، وفى نظرتها الى البطل . . ان « الحق » هو نقطة الالتقاء بينهما ، والحيد عن هذه النقطة المحورية يعنى انفجارات فى كل اتجاه !!

أساسية أخرى من أساسيات لبطولة والبطل من المنظور الاسلامى ، وهى « احترام الحياة » . . فلقد درجت الحركات البطولية التاريخية جميعا على كل مستوياتها الفردية والاجتماعية حتى والخرافية ، على أن يخوض البطل الى غايته بحمامات من الدم بلا حدود ، وأن يعبر الى هدفه النهائى على أكداس من الأشلاء

الكونية والانسانية جميعا . . . ولكن الاسلام - وحده - يقف من هذه القضية موقف النقيض : « لا تقطعوا شجرا ، ولا تحرقوا زرعاً ، ولا تدموا آباراً ، ولا تقتلوا وادعا » . هذه كانت وصية القائد البطل - من المنظور الاسلامي - لجيشه الزاحف الى صدامه المحتوم بأبشع قوى عدوانية طاردت حتى لونية اللون في أتباع هذا المنظور الاسلامي الواعد الشريف !!

ولكن كل ذلك الحقد العدائني لم يثر حفاظ القائد ، ولم يستدرجه الى كراهية الحياة في كل مظهر من مظاهرها : في الانسان . . والنبات . . والجماد . . والماء . . أبدا لا يفقد البطل - من المنظور الاسلامي - احساسه الملتمزم أمام روعة الأشياء . . من الشجر الفارع . . الى الزرع المتنامي . . الى الآبار المترعة . . الى الودعاء الذين لا يقاتلون . . ان البطولة هنا مؤطرة بإطارها العقائدي ، حريصة حتى في أعقد مراحل الصدام على أن تمضي الحياة الى غايتها . . على أن يستمر الشجر في الاثمار ، والزرع في الايناع ، والماء في التدفق ، والودعاء في تقبيل وجه الحياة !!

ان الحياة تعنى - من المنظور الاسلامي - مجال بطولة البطل ، وتخریب هذا المجال يعنى ان البطل يعمل في غير مجال ، والحياة هنا شاملة لكل شيء ، حياة الانسان ، وحياة الحيوان ، وحياة الجماد ، وحياة النبات ، وحياة الحضارة . . في كلمة واحدة « حياة الحياة » ان الحفاظ على كل هذه الحيات يعنى بالضرورة الحفاظ على طبيعة الدور الذي يؤدي ، وعلى ديمومة الحوار بالسيف أو بالحرف . . ان السيف - حين تفرض الضرورة أن يسل - انما يمهد للحياة آن تمارس حركتها الطبيعية ، أعنى ان بتر أجزاء شائثة مريضة من هنا أو من هناك لا يعنى شهوة البتر وانما يعنى حكمة العلاج !!

نستطيع الآن أن نقول : ان بطولة البطل - من المنظور الاسلامي - تبدأ من الأرض لتنتهى في السماء . . وهذا هو

حجمها الطبيعي .. لان امتداد أعراقها الواشجة في تربة الأرض بلا حدود ، يبدأ من التعاطف مع حبة الرمل ، وينتهي الى الحفاظ على روح الحضارة العقائدية بمفهومها الشمولى ... ولان هذا الانتماء المجرى الى الأرض لا يشكل غائية مطلقة ، ولكنه - من المنظور الاسلامى - اندفاع بكل الملك الى رحاب الملكوت .. أعنى بكل الأرض الى رحائب السماء !!

ان بطولة البطل من هذا المنظور تبدأ من الانسان لتنتهى الى الانسان الالهى .. تبدأ من الانسانية لتنتهى الى الربانية .. تبدأ من منطلق الجزء - ربما - لتنتهى الى منطلق الكل آخر الأمر .. وهذا ما عنيته بقولى : ان بطولة البطل من المنظور الاسلامى تبدأ من الأرض لتنتهى فى السماء ، وهذا هو حجمها الطبيعي !!

- وبعد - فان المقارنة هنا - بين النمط الاسلامى وبين غيره من الأنماط - تصبح بلا مضمون ، فليس غير النمط الاسلامى من يستطيع أن يبدأ ببطولة البطل من الأرض لينتهى بها فى السماء !! وليس غيره بقادر على أن يعطى بطولة البطل هذا الحجم الشمولى !! مهما نعانى فى رحلة اللهث وراء أى من المقارنات !!

تأملات في تكوينات الشخصية الإسلامية

- ١ -

قد تكون الشخصية مجموعة من المجالات أو مجموعة من القوات ، وقد تترك الشخصية على صفحات الواقع التاريخي بصمات ما تنحني عليه من هذه أو تلك ، وقد يتجسس الجدل النقدي في تقييمه الموضوعي للشخصية التاريخية عناصر قواتها الفاعلة أو عناصر مجالاتها المنفعلة ليضعها في مناطقها الصوابي من حركة التاريخ الشاملة ، أو ليخرجها من حركة التاريخ الى مجرد كونها ظاهرة من ظواهر الوجود الانساني الآتي والذاهب بلا قسمات !!

ولكن الشخصية (الإسلامية) ترفض من هذه العناصر وتنتخب ، لانها لاتريد ان تكون موجة عابرة في محيط الاجتماع البشري ، أو مجرد صدى لصوت تحكمة قوانين التبعية الذاهلة بلا تأصيل !!

الشخصية الإسلامية محكومة بقوانين الدورة الكاملة في الطبيعة والأشياء ، لأنها انبثاق عقائدي يدين بشمولية الرؤية ، وغائية الطموح ، بمعنى أن الإسلام لا يتحجر في رؤية صاعدة تعطى نصف الحقيقة وتعمى على نصفها الآخر ، وإنما هو على النقيض ثورة جدل كوني إذا جاز أن يقال ، بمعنى أنه يرفض أن يدل للقيمة من العرض ثم لا شيء ، ولكنه يتعقب كل بزوغ للعرض ببزوغ للقيمة ، وهذا هو المحتوى الحقيقي لمقولة أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان من جهة ثم لمقولة أن الإسلام هو المضمون الحضاري الخالد للشكل الحياتي على تفاير هذا الشكل من جهة أخرى !!

وإذا كانت الشخصية (العامة) في إطارها السائب مجموعة من المجالات أو مجموعة من القوات ، فإن الشخصية (الإسلامية) في إطارها المنضبط تصبح مجموعة من المجالات (المعينة) أو مجموعة من القوات (بالذات) .. أي أن (نوعية ما) تحكم علاقة الأشياء بعضها ببعض في تكوينات الشخصية الإسلامية ، بحيث يعلو صوت الانتخاب النوعي على صوت الاعتباط العشوائي في مساحة هذه التكوينات .. وهذا هو ما يعطى هذه الشخصية الإسلامية تفردا القائد أول الأمر ، ثم مبرر صدامها الحتمي مع الأغيار حتى تعتدل الموازين في نهاية المطاف !!

وقد أوتر مصطلح (التكوينات) على غيره من المصطلحات لأنه يشع معنى لا أريد أن نفرط فيه ، أن التكوين استنبات لشيء لم يكن ، وصوغ لأشياء كثيرة هي كائنة ، أن ما لم يكن يكون هنا بفعل الوهج العقائدي ، وما كان مشعثا وغير قابل للتشكيل يأخذ هنا شكله النهائي في ظل هذا الفعل العقائدي .. وهكذا يلوح مصطلح (التكوينات) أقدر من غيره على استيعاب ما نحلم بالبوح به من خلال هذه السطور !! ربما يكون التكوين في عملية

الابداع الفنى. مثالا تقريبا .. ان الفنان عمله النهائى اما من خلال
اضافة تكوين موجود الى تكوين موجود .. واما من خلق تكوينات
مستحدثة والولوج بها الى عالم التشكيل !!

قد يقال ان الشخصية مصطلح مشترك لا يخصها غير ان
نضيف اليها مصطلح الاسلاميه ، وهنا تصبح العلاقة بين التكوين
والشخصية علاقة طارئة وليست علاقة صميمية .. ونحن لانرفض
هذه المقولة رفضا كاملا ، ولكننا كذلك لا نستطيع ان نقبلها
على نحو من الاستغراق الشامل .. لان الشخصية الاسلاميه
لا تصبح حاملة لهذه الهوية الحقيقية الا اذا اجتازت تجربتها
النهائية بالفعل . اى انها لا تصبح شخصية اسلاميه الا اذا
خاطرت وغامرت وانتسبت عناصر تكويناتها العقائديه وابستوت
على افق القناعات النهائية التى تصبح هواءها ودماءها وسيفها
وكتابها جميعا .. ان الشخصية الواقفة على ربوة فى المنتصف
او على وهدة فى القاع ، يمكن ان تكون شخصية طامحة الى فعل ما ،
يمكن ان تكون مفردة من مفردات الشخصية الاسلاميه .. ولكنها
أبدا لن تكون الشخصية الاسلاميه فيما نعى بهذا المصطلح الهائل
الايماء !!! الذى فى طريقه الى الاسلام بعض ملامح الشخصية
الاسلاميه .. والذى أسلم كذرة فى دورة بعض ملامح الشخصية
الاسلاميه - والذى يؤمن بالاسلام نظرة ، أو نظرية ، أو رؤيا ،
أو انجذابا ، أو تعاطفا ، أو رغبا ، أو رهبا ، أو احتما - بعض ملامح
الشخصية الاسلاميه .. ان الاسلام هنا يحتوى هذه المفردات ليعيد
تشكلها من جديد .. انه لا يرفضها .. لأنه قادر على صوغها
وتعليتها وترشيدها خطواتها على الطريق

نعنى اذن بالشخصية الاسلاميه حصاد كل التجربة البادئة
من نشوة الحب ، السائرة على حقول الرفض والمواقفة ،
والمستوية فى نهاية الرحلة على أعراف الانتماء .. بحيث يصبح

الاسلام ليس نظرتها او نظريتها او رؤياها او انجذابها او تعاطفها
او رغبها او رهبها او اجتماعها .. وانما (كينونتها) .. وهنا
فقط نستطيع ان نستجلي اغوار كثير من المقولات الاسلامية التي
تضع السيف والحرف على مستوى واحد في سبيل ان يولد على
الارض اسلام بلا تخرصات !!

نموذج الشخصية الاسلامية فيما نرى يتبدى محيطه من
الارض لينتهى في السماء .. هذا النموذج لا يتصدى فقط لقيادة
السلوك الانساني في حركة احتكاكه اليومي على هذه الارض ،
ولكنه يتصعد بهذا السلوك الارضى ليعقد له وشائج قريى بالسماء
.. ان الرجل الرباني ليس سوى نموذج او نمط للشخصية
الاسلامية .. ويخطيء افدح الخطأ من يظن ان هذا الرجل الرباني
هو من انقطع الى قبة في مسجد ، او الى قنة في جبل ، او الى
غار في بيداء .. ان كل الساعين على الارض (اعبد) من هذا
من هذا المعتزلى الشاحب القدرات .. نموذج الشخصية الاسلامية
يتبدى محيطه من عراك القوى الذاتية الى عراك القوى الخارجية
.. لينتهى الى صداقة كل القوى خارجية وذاتية .. تحتية
وفوقية .. وهذا معنى ان يكون محيطه مبتدئا من الارض ومنتهيا
في السماء !!

يقولون : ان الحكم على الشئ فرع عن تصوّره .. ونقول :
ان تصور الشئ هنا سيكون فرعا عن الحكم عليه .. بمعنى ان
قوانين الشخصية الاسلامية قوانين حلولية .. اى انها لن توجد
من عدم .. اى ان تكويناتها قد انتهت بالفعل ، ولقد صدر الحكم
عليها منذ اجيال .. ولا يبقى امامنا نحن الا ان نتأمل قاعدة هذا
الحكم او مفرداته على الاقل لتتصور بعد امكانية ان نحيط بهذه
المفردات .. ونحن هنا نحاول ان نصوغ مقولاتنا على نحو يوحى
بذاتية الفيم .. وربما نصوغها على نحو يوحى بموضوعية هذا

الفهم بكل ما يحمل ذلك من مخالفة وموافقة ولكننا نعد بأننا هنا وهناك لن نخالف اشارة لجلبة المخالفة ، ولن نوافق اشارة لرخاوة الموافقات .. سنقول في كل أولئك بصوتنا نحن .. من داخلنا نحن .. اننا لانريد أن نفرط في قضية (الشخصية) ونحن ندير حوارنا حول تكوينات الشخصية ..

قد تكون كل مفردة من مفردات هذه التكوينات بحاجة الى تأمل مستقل ، وقد تكون بحاجة الى موقف شجاع ، وهذا هو هدف هذه الرحلة منذ بداية الانطلاق ... وبديهي أننا لن نتدرج بالحديث عن تكوينات الشخصية الاسلامية من السطحى الى الصميمى ، ولا من الصميمى الى السطحى ، ان فكرة تقديم تكوين على تكوين ليست في خاطر هذه الدراسة ، لان كل التكوينات في نهاية الامر تشكل المجموع الكلى الذى نسميه الشخصية الاسلامية ، وهذا هو ما نهدف اليه ..

هذه مقدمه

وبعدها نتأمل كل المفردات ..

وكما قلنا منذ البدء .. فان تكوينات الشخصية الاسلامية ليست افتراضا عشوائيا من جهة ، فان ذلك يحيل القضية الى مجرد تأويل .. وليست تجريدا ميتافيزيقيا من جهة أخرى ، فان ذلك يحيل القضية الى مجرد تخيل .. ان تكوينات الشخصية الاسلامية بعض عناصر القاعدة الشمولية التى هى الإسلام ... الجوهر واحد .. ولكن تفرعاته تنمو هنا فى عرض .. وتطفو هنا على سطح .. وتتلق هنا فى اطار .. الشجرة دائما تخاطب الطبيعة فى مظاهر من الفروع والاوراق بلا حدود .. وها نحن على مقربة من تأمل الشجرة .. شروشا وأفرعا وأوراقا !!

(الانفتاح الفكرى) تكوين من تكوينات الشخصية الاسلامية ، لان الانفتاح الفكرى وحده هو الذى يتيح للموجود أن يتسلق بالوعى الى منابع وجوده الحقيقى .. أن يكون الانسان مغلق الذهن ، تلك هى قمة التأساف .. لأن الوعى الفكرى بكل روافد الأشياء هو المقدمة الطبيعية للوعى بالأشياء .. الذين يفلقون نوافدهم يموتون بالجذب ، والذين يرتعشون أمام الجدل الحيوى هم الذين لا يملكون ذرة من اليقينيات .. لقد يتاح للدارس المستوعب لفلسفة الاسلام الشمولية أن يرى فى هذه الفلسفة حوارا صميميا مع كل الزمن بأضلاعه الثلاثة .. الماضى .. والحاضر .. والمستقبل .. ان كتاب الاسلام الخالد (القرآن) لم يفرق رؤوس أتباعه فى حاضر منبت عن ماضيه .. ولا فى ماض منقطع عن مستقبله .. لقد أصل لوضعية انسانيه العقائدى حوارا رافضا مع الماضى المتعفن بكل أوقاره وأوضاره ، وحوارا طامحا مع المستقبل بكل آماله وأحلامه ، وحوارا واعيا كذلك مع الحاضر .. بكل رفضه للهابط الخابط .. وأيضا بكل عناقه للصاعد الواعد من أحلام المستقبل بلا تفريط !!

يبدو (الانفتاح الفكرى) قضية صميمية اذن .. وهو ليس قضية صميمية لمجرد انه مجال (قابل) يأخذ من هنا وهناك ، ولكنه قضية صميمية لانه مجال قابل وفاعل معا .. بمعنى أنه يفتح جهاته الاربع على كل أضلاع الزمن ماضيه وحاضره ومستقبله .. وعلى كل أضلاع الثقافات قديمها وحديثها .. أولا لانه من خلال هذا الجدل الوجودى والفكرى يصوغ رؤيته على وهج التجربة وليس على مجرد الاحساس .. وثانيا لانه ليس مطالبا بأن يعى منادح الفكر لكى يكون واعيا بمنادح الفكر ثم لاشيء ، ولكنه يعى .. ويتمثل .. ويستوعب .. ويعانى ..

لكي يندفع بكل هذا الوعي وبكل هذا التمثل وبكل هذا الاستيعاب
وبكل هذه المعاناة الى خوض معركته الفاصلة ، داعيا ...
ومقاتلا !!

اذا كان (الانفتاح الفكري) في غير الاسلام ترفا فهو في الاسلام
كدح غائى !! واذا كان (الانفتاح الفكري) في غير الاسلام بحثا عن
هوية تائهة فهو في الاسلام تجذير لهوية غير قابلة للانفراط !!
وهذا هو الفرق .. ان الترف قد يكون بعض مباهج الشاعر
الباحث عن حدائق الالهام .. ان الضياع قد يكون بعض مناسبات
التافهين الذين يرتعشون فرقا تحت شمس التجديد .. ان
البحث عن الذات وهى فى قبضة الذات قد يكون بعض مناسبات
الفارغين .. ولكن قضية الكدح الغائى ، وقضية الرابطة
والتجيش ، وقضية تأكيد الهوية وتجذيرها قد يكون او هو
بالفعل كل هموم العقائدين .. وهذا هو الفرق !!

ان (الانفتاح الفكرى) لايعنى عناق الفعل فى مرحلة واحدة
من مراحل التطور ثم يتجمد ... اى انه لايمكن ان يكون انفتاحا
على مرحلة واحدة ثم يغلق نوافذه ويسترخى .. ان نهر الفكر
دائم التجدد ، ودائب الاندفاع ، وهو مع كل مشرق شمس يحمل
الى حواريه مزيدا من الكشف ومزيدا من التحديث .. ولكي
يكون الانسبان العقائدى - وهو الشخصية الاسلامية فيما
نعنى هنا - على مستوى قضيته ، فانه مطالب بلا هوادة بأن
يعيش فى قلب عصره وقلب كل العصور فى وقت معا .. اى انه
مطالب بأن يعى ثقافة عصره ليدير حواره مع مفردات هذا العصر ،
ومطالب كذلك بأن يعى ثقافة كل العصور انطلاقا من مسلمة ان
الثقافة شجرة جذورها غائصة فى تربة الزمن ، وفروعها ضاربة
فى آفاق العصور .. ان الوعي بثقافة العصر يعنى اقتدارا على
معايشة المقولات المستحدثة .. ولكن الوعي بثقافة الماضى يعنى

كذلك اقتدارا على تفاصيل المقولات وليس مجرد الإقضاء بهذه المقولات !!

قد نشتبك هنا مع قضية فادحة : هل يعنى (الانفتاح الفكري) تبديل العقائد تماما كما تستبدل الآراء ؟

كلا .. ان جوهر الفكر الاسلامي لا يستحيل ولا ينكفيء الى نقيضه ، ولكن هذا الجوهر الفكري قابل باستمرار لمواجهة أن يقال بكثرة من لغة ، وان يتدثر بأكثر من رداء .. قد يكون الشكل العلمي الاكاديمي هو المنطق الصوابي لجوهر الفكر الاسلامي في مرحلة .. وقد يكون الشكل الفلسفي هو المنطق الصوابي لجوهر هذا الفكر الاسلامي في مرحلة اخرى .. وقد يكون الشكل الجدلي هو المنطق الصوابي لهذا الجوهر في مرحلة ثالثة .. ان هذا التشكل لايعنى على الاطلاق استحالة لون الى لون .. وانما هو يعنى فقط اقتدار هذا اللون على مطاوعة كل التجسيدات ، ان عصر المنطق العلمي يتطلب مقولات علمية ، وكذلك يتطلب عصر الفلسفة مقولات فلسفية .. ان دعاة العصور الاولى ودعاة عصرنا الراهن يلتقون على كلمة (الاسلام) ولكنهم يذهبون في شروحاتهم وتفسيرهم وطرائق جدلهم مذاهب شتى ، ومن هنا كان ثراء هذا الفكر الاسلامي .. ان ثقافة عصر من العصور تفرض بالضرورة ان يتسلح الداعية بمنطق هذه الثقافة ، ولقد حاول ان اخاطب الشباب بمنطق الكهول فيصيبني الاحباط ، فلماذا احاول ان ألوي عنق التاريخ فأفرض على مرحلة منطق مرحلة بلا تبرير؟؟ فقط ينبغي ان اقبض على جذوري ، ولي بعد ان اضعها على ماشئت من الأصعدة فكريا وفلسفيا وفنيا بلا حدود !!

و (الانفتاح) يجرى أبعد من هذه الاشواط .. انه يعيد تقييمه لذاته في حومة هذا التجدل الوجودي ... اي أنه يقوم بمراجعة شاملة عند كل منحني من منحنيات طريقه الصاعد ،

ربما ليتيح لذاته أن تعيد تقييم خطواتها أولا بأول ، وربما ليقيس مسافات التطور والجمود في رحلته العارضة .. وآمل أن لايجرحنا شعوريا مصطلح التطور فنحن أولى به وهو أولى بنا .. أن التطور لايعنى (كما يفهمه السبازجون) انتقالا من الابيض للأسود .. ولكنه يعنى دائما انتقالا بالابيض من مجرد البوح الى حقيقة الفعل ، يعنى الاندفاع بالابيض من مساحة الوطن الى مساحات كل البقاع ، يعنى تناول الابيض من منظور معاصر ومثقف في مواجهة تناول هذا الابيض من منظور ورأى ومعصوب !!

ان (الانفتاح الفكرى) حين يعيد تقييمه لذاته لينتظر من إمكانية هذه الذات انما يندفع في مسار صوابى موائم لطبيعة الاسلام كعقيدة قابلة لاحتواء الزمن بأضلاعه المثلثة : الماضى .. والحاضر .. والمستقبل .. وموائم لطبيعة الاسلام كعقيدة قابلة كذلك للتعامل مع كافة الثقافات ، يقينا منها بأن مضمونها الحضارى يرفض أن يكون جبانا لانه ممتلىء بعناصر الاحتشاد والديمومة والانفتاح .. وموائم أيضا لطبيعة الاسلام كعقيدة مقاتلة وليس سكونية ، بمعنى أن معارك الفكر الاسلامى ينبغى أن لا تظمئن الى شاطئ نجا واحد .. ان ثبج الخضم وأنواء الطبيعة هو قدرها المندور .. انها تبهر من عراق الى عراق ، ومن جدل الى جدل ، ومن حوار حضارى الى حوار أشمل حضارية .. كذلك كان الفكر الاسلامى منذ مطالع هذا الفكر الاسلامى وهكذا ينبغى أن يكون .. انها ليست نظرية في السياسة - وليست نظرية في الحرب .. وليست نظرية في الاجتماع .. انها بناء عقائدى يمتد من علاقة الفرد بالفرد على هذه الارض ، الى علاقة الفرد بالكون والارض ، الى علاقة الفرد والكون والارض بالقوة الخالقة المتعالية اللامحدودة وان كان هذا لايتعارض في مجال الفكر مع أن نسلط الضوء على نظرية الاسلام في السياسة ..

ونظريته في الاقتصاد ، ونظريته في الحرب ، ونظريته في الاجتماع !!

ان (الانفتاح الفكري) في اطار الواقع الاسلامي يعنى أن نكب ليس على نوعية فكرية جامدة ، وانما على نوعيات صاعد بعضها من بعض ، ومتعال بعضها على بعض ، ومتعم بعضها لبعض .. . أى أن مايسمى سياسة ، واقتصادا ، وفلسفة ، واجتماعا ، يصبح بالضرورة بعض مفردات الفكر الاسلامي من جهة انفتاحية، فليس حوارا عقائديا ماينهض على استقطاب نوع واهمال أنواع .. . قد يكون حوارا من أى لون نسميه ماشئنا من الاسماء ، ولكنه لن يرقى الى مستوى التنظير العقائدى في عالم كل مافيه خاضع لمنطق النظرية ، وهادف الى غائية التأصيل !!

واذن .. . يصبح (الانفتاح الفكري) بهذا المعنى ، أو قل من هذا المنظور ، تكوينا بدئيا من تكوينات (الشخصية الاسلامية) .. . ويصبح الجدل ليس (أن يوجد هذا الانفتاح أو لا يوجد) .. . وانما فقط (من أين وإلى أين) .. . ويصبح فكرنا نحن بهذه الوضعية الصوابية فكرا عائشا في شرايين عصره المائج ، حاملا أحلام غده المأمول الموشوج بأمله الرائع .. . ونصبح نحن .. . جيل الراية المقتحم .. . الذين يرفدون بالعنفوان كل لحظات التاريخ !!

- ٣ -

حين يكون (الالتزام القيادى) تكوينا من تكوينات الشخصية الاسلامية ، يقفز على الفور من فوق فكرة التعاقب المتزمت أو الترتيب الذى لا تقصد الى شئ منه في هذا المجال .. . و (الالتزام القيادى) ليس شعارا يطرح في مرحلة سابقة على شئ أو لاحقة لشيء ، وانما هو بزوغ من حركة الجدل بين الانسان والواقع .. . ربما توحى كلمة (الالتزام) باتخاذ موقف في

لحظة من اللحظات ، ولكننا ليس على هذا المستوى العارض
نتعامل مع هذا المصطلح ، ان (الالتزام القيادي) بما هو تكوين من
تكوينات الشخصية الاسلامية يجيء من وضعية كونه بزوغا مع
حركة ميلاد الشخصية في حومة احتكاكها المباشر بالواقع الانساني
والعقائدي الذي تتعامل معه .. اعنى ان الشخصية بتكويناتها
تظل في حالة كمون حتى تستكمل عناصر ادائها الفد ، ثم تنهمر
الى جدل الفعل مشتتة بحماس التزامها الذاتي ، مستضيئة
بأحلامها العقائدية القائدة !!

يبدأ (الالتزام القيادي) اذن من حركة التحام الشخصية
الاسلامية بواقعها الحيوي ، وهو يبدأ من هذا المنطلق في محاولة
شجاعة لتغيير ملامح الاشياء . . الواقع العقائدي ، والواقع
السياسي ، والواقع الاجتماعي ، والواقع الفكري . . كل هذه
الاشياء محكومة في منطق (الالتزام القيادي) للشخصية الاسلامية
بضرورة التغيير . . وليس التغيير هنا مجرد واجهة مكان واجهة،
انه انقلاب صميمي يبدأ من الجذور ويتعالى الى الاعراف . . من
هنا تبدو فداحة العبء المتصدي لحركة هذا التغيير الامل ،
انه يتطلب وعيا كاملا بعناصر المناخ السياسي ، والاجتماعي ،
والفكري ، والعقائدي ، ويتطلب ما يشبه حس الاستشهاد (وهو
ما اطلقنا عليه الالتزام القيادي) أساسا لتفجير هذه المناخات
السائدة ، وتأسيس مناخات بديلة أكثر مواءمة لطبيعة منطق
الاشياء !!

في ذاكرة (الالتزام القيادي) دائما ينبغي أن يومض حس
الشهادة ، لان العبور من شاطئ الى شاطئ يحمل محتواه الذي
لايزايله ، ان الانسان القائد هنا مندور لواحدة من اثنتين :
النصر أو الشهادة . . وعلى ضوء هذه الحقيقة المسلمة يمكن أن
نفهم بعض فلسفة الاسلام في تهديم الحوائط الكاذبة بين ما هو

دين ودنيا ، بين ماهو عقيدة وشرعية ، بين ماهو واقع، حيوى وماهو واقع عقدى .. ان بعض فلسفة الاسلام تعطى ضرورة المزج بين الدين والدنيا .. ضرورة الالتحام بين العقيدة والشرعية ضرورة العناق بين الايمان والواقع ... ان (الالتزام القيادى) هنا لايعنى التزاما على شاطئ واحد ، ولايعنى كذلك قيادة على جبهة دون جبهة ، ان المتصدى للريادة العقائدية هو نفسه الذى ينأى على حمائل سيفه فى انتظار غزوة من الفزوات او فتح من الفتوح .. وهو يملك عافيته على أى من الوجهين ، فهو لايمضغ وعظما عقائديا ليشبع نهم الابداع الفنى فى نفسه .. وهو لايضرب بسيفه عشقا لولوزغ ظامىء فى الدماء ... ان القضية المؤرقة هى ان يحل اسلامه على الارض ، وهو يمتشق (الحكمة والموعظة الحسنة) اول الامر .. فاذا تصاممت البرءوس هزها بخفقات موقظة من سيفه العادل !!

ولكننا نذهب أعمق وأعمق فى فرضيات جدلية اذا نحن توافقنا على أن (الالتزام القيادى) مجرد قناعات بدئية تنبثق من حركة احتكاك انسانها المسببم بواقع الانسان هكذا بلا تحديد .. ربما تصبح (لو أنها كانت كذلك) مجموعة من ردود الافعال لا تشكل واقعا متكاملا يملك أن يضرب بسيف المباداة .. وهذا هو مانحذر حتى من مجرد وضعه على مستوى التخيل .. ان (الالتزام القيادى) يمارس حركة فعله من خلال تصور كامل للقضية الاعتقاد .. أعنى أن مرحلة (الانفتاح الفكرى) التى تسبق وتصاحب وتتلو حركة الالتزام القيادى ، تتيح للشخصية الاسلامية بمعاونة تكمينات أخرى كذلك أن تستوعب أبعاد قضيتها ، وأن يكون كم الاعتقاد لديها مساويا لكيف هذا الاعتقاد، وأن تصل فى يقينها الحاسم الى ذروة الامتلاء اليقيني .. فاذا هى باشرت مراحل الفعل كأنه صادر فى كل تحركاتها عن خلفية

إيمانية كاملة تفرض على غيرها أن يكون رد فعل لها ، وليس أن تكون هي مجموعة من ردود الأفعال لغيرها من المقولات !!

يلتزم (الالتزام القيادي) بأن يقدم الدليل على رغبة وعيه البطولي ، والدليل هنا ليس مغامرة على شيء بقدر ماهو مثابرة على شيء .. أن قيمة الوعي البطولي تتألق في أن يعطي البطل من مساحة الضوء للآخرين ، أن يوزع أدواره لا أن يسرق كل الأدوار، أن يقف حيث هو محتلا قمة الصراع الجدلي مع واقعه اللزج ، ماذا ذراعيه وسع انفتاحهما الى الآخرين متيحاً لهم على قمة هذا الصراع !! أن يتسدى هذا هو الخطر الحقيقي ، ولكن أن يرتفعوا اليه هذا هو منطق البطولة والالتزام القيادي ..

ان الفرد قد يكتب أول سطر في تاريخ الحوادث ، ولكن الجماعة هي التي تكتب كل السطور .. والالتزام القيادي ليس استشرافا لكل مفردات الحركة في الواقع الحيوي ، والا لجاز ان يكون (القائد) شيئاً أشبه بما يقال عن (الكل في واحد) .. ان قصارى الالتزام القيادي أن يرمى الساحة بعيني نسر ، وأن يسلط وعيه الخارق على الكليات والاصول ، وان يدع بعد ذلك للآخرين عبء ان يصاحبوا خطواته ، كل على الدرج الذي يجيد الصعود عليه .. أبدا لا يكون الفرد شموليا الا من خلال الآخرين حتى في الواقع الفكري .. انت تتنفس من رئات مئات من الأجيال أنت ترى بعيون الملايين الغابرة والمعاصرة .. أنت لست أنت الا اذا كنت أنا .. وهذه هي المعادلة التي لا بد أن يفقهها كل التزام قيادي على مستوى الفكر أو على مستوى العقائدين !!

إذا كان اعطاء الدور للآخرين بعض واجب (الالتزام القيادي) .. وإذا كان الاعتراف بالذات من خلال الاعتراف بالآخرين بعض واجبها الآخر .. فان (صناعة) الرجال هي الواجب المتمم أو

الواجب الخاتم اذا جاز ان يقال .. اعطاء الدور حركة سالبة
لأنه عناء نفسى محتمل على كل حال .. اما صناعة الرجال
فهى ذروة الايجاب .. لانها صياغة بديل بالقوة أو بالفعل ..
ودليل حاسم على استقطاب الانسان للقضية ، واستقطاب القضية
للانسان ، وتلك — بكل المقاييس — هى قمة الايجاب والايثار !

الرجل .. والقضية .. أيهما يعطى من نفسه لصاحبه ؟؟

الرجل يعطى فكرا .. وساعدا .. ورجالا

والقضية تعطى .. رافدا .. ومضمونا . والهاما

(والالتزام القيادى) الفاهم يعطى جسرا واصلا بين الرجل
والقضية .. لابد للقضية من رجل ، ولابد للرجل من قضية ،
ان الالتزام القيادى مطالب بافراغ القضية الملائمة فى وجدان رجلها
الملائم .. سياسيا .. وفكريا . واقتصاديا وحضاريا ان كثيرا
من الاحباطات المعاصرة ترجع جذوره الى افراغ قضية غير ملائمة
فى وجدان رجل غير ملائم .. فيضرب كل منهما الرصاص على
عينى صاحبه !!

اذا كان (الالتزام القيادى) كل هذه الاشياء .. فان معناه
الوهلى .. هو ان نشبك بالجدل مع الواقع الحيوى .. معناه
ان نلتزم بتغيير هذا الواقع .. معناه ان ننتصر أو نستشهد ..
معناه ان نمتلك قيمة المبادأة .. معناه ان نقدم الدليل على وعينا
البطولى من خلال اعطاء الدور أو من خلال اعترافنا بالآخرين ..
معناه ان نختار اقتدارا خارقا على صناعة الرجال .. واقتدارا
أرحب على تمديد الجسور بين الرجل والقضية .. معناه ان
نكب على الجدل مع كل عناصر الواقع الضاغط ، لنديل منها
لعناصر من صنعنا نحن !!

ان الشخصية الاسلامية من خلال التزامها القيادي تستطيع
ان تعيد سطوع الضوء في عيون الكلمات .. وهي مستطبعة
دائما ان تجعل من الكلمة زحفا في الزحوف .. والكلمة التي نغنى
هنا ليست هذا الاطار اللفظي المجوف ، وانما هي هذا الواقع
الممتلئ المعبر عنه في كلمات .. انها من هذه الوجهة تصبح الكلمة
الفعل .. وتصبح ترجمة فضالية للمقولة الاسلامية الرائعة :
(فعل رجل في ألف رجل .. أجدى من قول ألف رجل في رجل) .
ان قيمة الشخصية الاسلامية من خلال التزامها القيادي ربما
تلوح في محاولتها العازمة أن تجعل للكلمات أظفارا .. وأجنحة
وعيوننا .. ان تجعل منها طائرا يعبر كل مساحات الزمن . الى كل
مساحات الأزمان !!!

- ٤ -

الاقتدار الكامل على (صوغ المقولات في نظرية) .. تكوين
من تكوينات الشخصية الاسلامية ... وهو من هذا المنعطف
الصميم مرحلة ينبغي أن نضيئها بلا كلال !!

ان مأساة الفكر الاسلامي في عصوره المتأخرة نايعة - فيما
أعتقد - من عجزه الخرافي عن قدرته على التنظير .. أن العصر
الذي نعيشه يغط بأشأت من المذاهب والنظريات ، ولست داعيا
الى ابتداع اسلام جديد في مواجهة كل مذهب جديد ، لأن
للاسلام أصوله التي لا يتحيفها الزمن ولا ينال من جلالها التاريخ
... كل ما أدعو اليه ، هو أن تمتلك الشخصية الاسلامية -
اقتدارها الفذ على صوغ مقولاتها العقائدية (من الوجهة التطبيقية)
في نظريات ... أعني أن للاسلام فلسفته الاقتصادية المتكاملة التي
يمكن اقتناصها من الاصول العامة والنزول بها الى مفردات
الواقع الحيوي في اطار من قابلية التطبيق .. وكذلك أعني أن

للاسلام فلسفته الحضارية الشاملة التي يمكن استشفافها من واقع الاصول العامة وصوغها في نظرية حضارية موائمة (في أطوارها الفكرية) لواقع العقل الانساني المعاصر وهكذا .

وهكذا . ان الذين يزعمون بأننا غير مطالبين بتقديم اسلامنا الى الاغيار في انتظار ان يقبل هؤلاء الاغيار على اسلامنا طائعين أو مقهورين ، ينسون اروع مافي الاسلام من حيث هو دين فاتح ومقتحم ومشتبك مع كل الزمن في صراع حياة أو موت . . وعلى نفس المستوى ينبغي أن يفهم أولئك الذين يفرعون من صوغ المقولات الاسلامية في نظرية . . أن النظرية الاقتصادية الاسلامية . . والنظرية الحضارية الاسلامية . . والنظرية العقائدية الاسلامية . . لاتعني تفتيت الاسلام ككل الى ابعاض من النظريات . . وانما هي تعني بالضرورة أن الاسلام لم يقل كلمته في مناطات الجدل الوجودي والميتافيزيقي جميعا على نحو من الاجمال القاصر . . نعني أن هذا البناء المتكامل يقيم في كل زاوية جدارا . . وفي كل جدار لبنات . . وفي كل لبنة عناصر تكوينها البدئي . . ودعنا من محاولة التشبيه في هذا الصدد . . ان الفكر الاسلامي حين يصوغ (على ضوء أصوله) نظرية في الاقتصاد ، أو نظرية في الاجتماع ، أو نظرية في الحضارة ، لا يغامر أبدا باسلامه ككل ينبغي أن لايفتت . . ان علماءنا كانوا أسرع الى استجابة الفهم حين أقاموا نظريتهم الاسلامية في الفقه على ضوء من التحديد المنهجي بين ماهو عبادات وماهو معاملات . . وحين أقاموا نظريتهم في علم الكلام على ضوء من التحديد الاكاديمي بين ماهو الهن وماهو بشرى . . ان دورنا نحن أن نعطي من بيننا (الشخصية الاسلامية) القدرة على صوغ هذه المقولات في نظريات ومقولات . . ان شبابنا المعاصر يعاني من وقود تيارات مسلحة بمنطق العصر ، وهو محكوم بقصوره الذاتي عن التعامل مع الاصول الاسلامية الكبرى بما هي أكبر من طاقته ، وبما هو غير مؤهل دراسيا للأسف ! لاستيعاب

هذه الأصول في شكلها التراتبي .. يبقى إذن أن يتاج للشخصية الإسلامية أن تمارس دورها الفاعل في هذا الصدد ، بلا تخويف وبلا حماسيات ، وانها لقادرة على استلهاهم أصولها ، وتنظير مقولاتها على تنوع هذه المقولات ، ثم على الدخول بهذه المقولات في اطارها التنظيري الى عالمي العقل والوجدان المعاصرين .. وهنا فقط يمكن أن يكون دور هذه الشخصية فاعلا وقادرا على الانجاب ، لانه من جهة يواجه عالمه هكذا وجها لوجه .. ولانه من جهة اخرى يقود جماهيره الى منابعه الاصولية على مستوى هائل من الذكاء والوعى !!

القدرة على (صياغة النظرية) لاتعنى احداث شيء من لاشيء ، وانما هي تعنى تركيب شيء من كل الاشياء ، في الهيكل الاجتماعي مثلا ينبغي للشخصية الإسلامية أن تستقطب كل ابعاد الاهتمام بالانسان فرديا وجمعيا من خلال تراثها الاسلامي ، وأن تعيد تركيب هذه المفردات في نظرية اجتماعية موائمة لطبيعة العصر الذي تحياه .. ان ذلك يقتضى بالضرورة نبشا للتراث الاسلامي بكامله ، في الفقه عبادات ومعاملات .. وفي التوحيد الهيا وبشريا .. وفي الاقتصاد اخدا وعطاء .. وفي الاجتماع حرية والتزاما .. وهكذا الى نهاية المطاف .. ان مجموع هذه المفردات الموزعة يعنى المحصلة النهائية للكائن الاجتماعي في نمطه الاسلامي ، وهو يعنى بالتالي طبيعة الرؤية الاسلامية لهذا الكائن الاجتماعي رؤية يمكن أن نسميها (النظرية الاجتماعية الاسلامية) .. أى أن ما كان موزعا هنا وهناك - او مجمعا ولكن بشكل ربما يلائم منطق عصر ليس بالضرورة هو منطق عصرنا نحن .. يصبح - من خلال النظرية - صوت احتياجاتنا الحضارية ، وعاصما هائلا من التسكع الدائخ في دروب مابندري وما لا ندري من النظريات !!

ان مأساة انسان هذا القرن انه فقد نصف توازنه ، بمعنى

ان الجانب العقلانى فيه يوشك ان يبتلع الجانب الوجدانى ، ربما بفعل التطور التقنى الهائل الموغل فى تعرية كثير من المجاهيل .. وهى مأساه لان الفكر العقائدى ظل على مواقفه الاولى رافضا حتى مجرد الحركة تحت ستار انه يملك كنوزه وكفى .. ان هذه الكنوز لو احسنا الفهم ليست ملكنا نحن ، انها ملك كل داب على الأرض ، وأن نحتكرها نحن تجميدا أو ترديدا أو قصورا جريمة «فادحة» بلا حدود .. لقد قفز الفكر العلمى قفزات هائلة . وحقق لنفسه مساحات من الانتصارات ، فأحدث بذلك هوة فائقة بين طبيعة الرؤية العلمية فى اطارها المتطور الصاعد ، وبين طبيعة الرؤية الوجدانية فى اطارها المتيبس الجامد .. لو أننا - من بداية هذا القرن - حاولنا أن نستقصى الكشوف الفكرية فى الجانب العقائدى لفدحنا احساس بالخجل ... ولكننا نستطيع أن نحصى فى الجانب العلمى عشرات من الفتوح والكشوف .. وهذه أبعاد مأساتنا نحن !!

تأسيسا على هذه الوضعية ، ينبغى أن نسلم بأن طبيعة العقل المعاصر (فى اطاره العلمى) تستتبع مخاطبة هذا العقل ليس بمفردات النظرية وانما بالنظرية ذاتها ، لاننا نعرف أن العقل العلمى عقل تركيبى يجنح الى التعامل الحى مع كل عناصر التجربة وليس مع أبعاد ممزقة من جسد هذه التجربة اضافة أو سلبا !!

فى تراثنا العقائدى من جهة . وفى اقتدارنا على معاشة حركة الفكر العالمى المعاصر من جهة أخرى .. من عناصر التعقيل والاقتدار الواثق على التنظير مايكفى لمخاطبة هذا العقل المعاصر فى اطاره العلمى .. يلزم فحسب أن نركز على هذا الجانب ، وأن نمارس الابداع من وجهة نضالية ، وأن نعيش عصرنا القافز بكل أحجائه واتساعاته ، وأن لا نرفض أى حوار مع أى من المتولات

الهاجمة أو المسألة ، ففي يقينى أن الفكر العقائدى يربح آلاف المرات من حوار الجاهل مع الفكر النقيض . . ان الفكر الصديق يعطيك قناعات نهائية بأن كل سطوح الارض مملوءة وقاصدة ، ولكن الفكر النقيض يعطيك قناعات نهائية بأن وراء كل مسطح مملوء آلاف الآلاف من الاخاديد والهوات ، وبذلك تنتضى انت - بلا توقف - كل اسلحتك وأروع اسلحتك . . أى أن هذا الفكر النقيض يقفك دائما فى حالة تعبئة ، ويفتح أحداقك على كثير من التساؤلات وعلى كثير من الاجابات ، ويعطيك امكانية أن تعيد ترتيب مقدماتك ونتائجك ، لتصل دائما الى القضية الأصوب !!

أقتدار الشخصية الاسلامية على التنظير ليس ترفا عسريا ندعو الى مقارفته ، بقدر ما هو احساس رسالى تلح فى ضرورة الاستشهاد تحت رايته . . وأبدا ينبغى أن لانفهم الدعوة الى التنظير على انها احداث خرق فى الملة ، أو ابتداع طريق غير طريق العقيدة . . ان اصحاب هذا الفهم وحدهم جرذان الفكر الاسلامى الذين يتربصون بكل بصيص ضوء ، فى محاولة قدرة لامتطاء صهوة النباح المأجور والممرور . . ان الاقتدار على التنظير معناه أن نخاطب العقل الاسلامى وغير الاسلامى بلغة عصره الذى يحياه ، من خلال استقطابنا الجامع المانع لكل مفردات الفعل الفكرى فى اسلامنا العظيم . . فى الاقتصاد ينبغى أن نعارض بالنظرية الاسلامية كل النظريات الاقتصادية . . فى الاجتماع ينبغى أن نعارض بالنظرية الاسلامية كل النظريات الاجتماعية . . فى الفكر العقائدى ينبغى أن نعارض بالنظرية الاسلامية كل النظريات العقائدية . . هى ليست مجازاة بقدر ما هى مباراة . . ان اصولنا لن يتحيفها ضيم ، ولكن تفريعاتنا يجب أن تتشكل فى أطر بلغة العصر ومن

منظورات معاصرة ، ان عباقرة المجددين في الاسلام لم يستوردوا لغة جديدة ، ولكنهم أعطوا من منظور جديد .. بلفتهم هم ، ويمضمونهم هم ، ومن تراثهم هم .. وهذا هو معنى أن نجدد .. يبقى أن نخطو نحن الخطوة التالية .. ان نجدد من خلال (النظرية) وليس من خلال حشد تراكمي ناهض على اضافة المترادفات في غير ضواح الى تكامل البناء !!

- ٥ -

(الايمان المقاتل) ... تكوين آخر من تكوينات الشخصية الإسلامية ، وهو تكوين صميمي يتجاوز منطقة أن يكون مجرد تكوين الى منطقة يوشك فيها أن يكون واجهة كل تكوين وخلفيته جميعا .. اننا هنا لا نعزل شيئا عن شيء عزلا يباعد بين طبيعة كل من الاطراف ، بقدر ما نحاول أن نتأمل شيئا في أعقاب شيء تأملا يفضي الى عناق النظائر والأشباه .. فاذا قلنا ان (الايمان المقاتل) تكوين من تكوينات الشخصية الإسلامية فان ذلك يعنى على الفور التحام هذا التكوين بغيره من التكوينات التحاما ناهضا على المعاطاة والجدل ، متخطيا كل تخوم النظر الاكاديمي بما يفرضه هذا النظر الاكاديمي على قضاياها من تفصيل ، وتجزىء ، وترتيب ، وبهذا الفهم الوهلى لقضية (الايمان المقاتل) كواحد من تكوينات الشخصية الإسلامية . يمكن الدخول الى عالم الجدل حول مفهوم هذا التكوين !!

(الايمان المقاتل) تقيض (الايمان السكوني) .. لأن (السكونية) هنا تعنى قناعة ذاتية شاحبة تضيق حتى بتمديد ذاتها مرحلة ايمانية بعد مرحلة ايمانية حتى تنتهى الى ما يشبه الجذب الصوفي الداهل عن جدل الواقع الحيوى الفائر بملايين المعطيات .. ثم لأن القتالية هنا تعنى الى جانب القناعة الذاتية

المنفتحة اندفاعا صاخبا في كل مدارات الفعل الوجودي الحامل كل هموم القطيع البشري في أهدا به بلا فكاك ... فاذا استرخت بعض المفاهيم العقائدية على وسائل الاقتناع الذاتي الضامر فان مفهوم الايمان المسلم يلبس خوذته مقاتلا من شروق انسانيه الى غروب آخر انسان .. يتوافق ذلك من كل جوانبه مع المقولة الاسلامية الصادقة : «الايمان ما وقر في القلب .. وصادقه العمل» .. هنا ايمان مقاتل بكل مستويات الصدق والاندفاع !!

(الايمان المقاتل) .. يعنى مواجهة كونية للفشل الايماني المتمثل في الحاد العصر من جهة ، ومواجهة كونية لنوعية من الايمان المستخفى في أطماع عجزه الذاتي من جهة أخرى .. الايمان في مواجهة اللاايمان يعنى حتمية البحث والجهد والانتماء العقائدى ... والقتالية في مواجهة السكونية تعنى حتمية التجاوز من دائرة الذات الى دوائر الكل ، وحتمية التخطى من محيط القناعة الذاتية الى محيط التبشير والدعوة والفتح .. بهذا يصبح (الايمان المقاتل) شيئا بحجم كل الكون لانه صيرورة دائمة من منطلق الذات الى كل الذوات ، ثم لانه تعبير حقيقى عن فلسفة عقائدية شاملة يشهرها الاسلام تحديا خارقا في وجه كل الكون!! (اسلام) .. مصطلح يساوى (كل الزمن) وعلى انسان هذا الدين أن يعى أن ايمانه ايمان مؤرق وجاهد ومقاتل ، لانه يبتدىء من القناعات الذاتية المحدودة ، وينتهى الى حتمية القناعات الكلية الشاملة ، وقبل هذه المرحلة الشمولية يظل اسلام المسلم واقعا في دائرة الظلال !!

يقال احيانا - وكيف ؟ هل تستطيع كل الجماهير المسلمة أن تكون على مستوى الوعي الايماني المبشر الذى يتيح لها أن تحمل راية الدعوة وتبعة الفتح ؟؟ والذين يسألون هذه الاسئلة يهدرون نصف القضية كاملا .. ان (الايمان المقاتل) ليس هو الايمان

اللابس خوذة الحرب المعبر عنها بالصراع العضلى ثم لاشيء .. ولكنه أشمل من ذلك شمولاً ، انه قد يلبس خوذة الحرب العضلية .. وقد يلبس خوذة القتال الفكرى ، وقد يلبس خوذة المواجهة الحضارية ، وقد يلبس خوذة الجدل العقائدى .. المهم أن يكون ايماناً مقاتلاً على ثغر من الثغور ، بنوعية مايتاح له من سلاح قادر على مواصلة العمل ، أو مواصلة الحوار !!

(والايمان المقاتل) يبدأ نوعياً من الايمان بالذات كوحدة مخلوقة للقوة الخالقة .. ويتدرج الى الايمان بالآخرين كمجموعة تعطى بتلاقيها ايقاع حكمة الخالقية والمخلوقية فيها .. ثم يصل الى الايمان بالكون كإطار حيوى يعطى للوجود الانسانى قيمة حنوله على الارض .. ثم يتعالى الى الايمان بالله كقابض على منطلقات الحركة ومصايرها جميعاً .. ومن خلال هذا التحرك الايمانى تنبثق قضايا العقيدة التوفيقية والتوقيفية معاً ، من ايمان جازم بالرسالات ، والرسول ، واليوم الآخر ، والقضاء ، والقدر ، الى آخر هذه المقولات .. ومن البديهي ان حلقة الايمان لاتكتمل بالعبور الداهل على واحد من هذه اشياء .. فان يؤمن الانسان ببعض (الكتاب) ويكفر ببعض معناه ان صفحة من صفحات هذا الكتاب اما انها لم تزل غير مقروءة وهذا خطأ منهجى فى أى حكم نهائى .. واما ان صفحة من صفحات هذا الكتاب مغلوطة وهذا تجديف فى (حكمة) المبدع الاول الذى يحرك الحرف بدءاً من حيث هو ماهية ذاتية ، وانتهاء الى حيث هو ماهية خالقة تقول للشيء (كن) .. (فيكون) بلا فصرم بين عالم الذات وعالم التكوين !!

ولان (الايمان المقاتل) ايمان حركى ومتصد وكلى .. فهو يعطى ذاته لانسانه من خلال منطق نضالى يرفض ايمان المقلد أو ايمان المقهور أو ايمان المتاجرة .. ليس لمجرد أن التقليد والقهر

والمتاجرة قضايا مرفوضة على مستوى الايمان فحسب . . . وانما لأن هذه الظواهر الهابطة تعكس احتمال السكونية والهروب وتفتيت البناء الكلي في خلد الشخصية الاسلامية التي استوعبت ايمانها عن هذا الطريق !! يصبح واحدا من نوعية هذه الانماط الهابطة من ينوع الفكر الاسلامي على لحن واحد مكرور وممضوغ لآلاف آلاف المرات . . . أو من يقاتل في الساحة الاسلامية بسلاح خرافي مفلول تجاوزته اندفاعات كل العصور . . . أو من يحاول في قضايا الاعتقاد أن يقدم مزيدا من التأويل الهروبي لمفاهيم ايمانه المقاتل الهاجم . . . دائما في عصور الانحطاط الحضاري يحتل التأويل مواقع التعقيل ، تصبح الخرافة واجهة الحياة في الفكر وواجهة الفكر في الحياة ، توشك الاشياء الدخيلة أن تغتال الاشياء الاصلية . . . وهذه هي محنة البذل الكادح المنوطة بكاهل الاقوياء المتصدين لحركة التصحيح والترجيح !!

ينهض (الايمان المقاتل) في ساعة العسرة ليؤكد وشائج انسانيته بعالم الفعل والحركة ، حتى في عصور التهافت يجد (الايمان المقاتل) صسيفته الحضارية التي يعطيها لجماهيره مضمونا وفلسفة واطارا . . . ربما تكون هذه الصيغة ذات مسحة ثبوتية الى مدى ما . . . ولكنها على اى من المستويات تشكل في نهاية الامر عاصما للشخصية الفردانية والشخصية الجمعية من الذبول أو التحور أو الانحلال . . . وماتلبث هذه الصيغة الثبوتية في اطار من واقع التطور الفاعل حتى تواكب مسيرة التقدم بوحى من امتلائها الذاتي بكل عناصر الحركة والاندفاع . . . ان ثبوتها الطارىء لم يكن لعجز معوق نابع من قصورها الذاتي ، وانما كان بعض استجابة مرحلية لتبس الاطار الزماني والمكاني الذي فرضته عناصر الانحطاط الجمعي في عصر من العصور . . . ثم هي بعد ذلك قادرة على ايقاظ ذاتها ، وعلى دفع هذه الذات في خضم الجدل الذي لاينتهي حتى بانتهاء الحياة !!

نخطيء اذن .. حين نتصور ان الايمان شجرة ظليلة نلقى
أعباءنا تحتها وننام .. ان قدر العراك مع كل بلاد العالم هو
خبزنا اليومي .. لا يكون ايمان بلا فعل .. التواصل الكوني هو
قضية الايمان المقاتل .. ليست دائرة واحدة وانما هي دوائر
قابلة لنوعيات من الحركة والوثوب .. تبدأ الملحمة من مشارف
الذات وتنتهى فى قلب الحقيقة .. الاطار هنا هو كل الزمن رفضا
لبدائية التفتيت .. وراء كل شيء ، وأمام كل شيء ، وفى قلب
كل شيء .. هذا هو محور الفقه الحقيقى لقضية «ا» الايمان
المقاتل (ككوين من تكوينات الشخصية الاسلامية الفاعلة ،
الواقفة فى قلب الحركة الكونية ذاتة عن مباحج الفكر ، مناضلة
عن حدائق الروح ، مقاتلة عن حضارة الاعتقاد ، متعامدة مع
الموت والحرية .. الى أن يغيب قمر الوجود !!

وبعد ...

ربما - فى نهاية الرحلة - نكون قد تأملنا بعض تكوينات
الشخصية الاسلامية ، وربما نكون قد وقفنا على الاعراف بين
الصواب والخطأ .. وربما يكون حس المقامرة فى هذه الدراسة
اغلب من حس التقعيد والتأصيل .. ولكننا ابدا لن نفقد قناعة
أن صوتنا الخاص كان صوت هذه الكلمات .. وأن امكانية
التصويب والترشيد متاحة بل ومنشودة ... وان ممالك الفعل
الفكرى تزهر دائما تحت شمس الحرية ... وأن رحلة الألف ميل
.. تبدأ (كما يقولون) بخطوة واحدة !!

الدين هو الحل

من المشاكل الخطيرة في تاريخ الفكر البشرى ، دوران هذا الفكر في فراغ موحش رهيب ، وضلاله الاعمى في رحلة البحث عن قرار ..

قديمًا .. وعلى سفوح اليونان وقممها السامقة . انطلق هذا الفكر البشرى ياحثًا عن قراره ، ناشدًا الايمان بشيء يشده اليه . فلا تبخر به الريح في مهاوى الضياع .. ولكن هذه الرحلة ما أثمرت قرارًا ، ولا أينت شيئا يهب الامن والسلام .. كل الذى وهبته .. حشود من المعرفة العقلية الرائدة . التى قادت الاجيال في طريق التطور العقلى الصاعد .

واذا كانت المعرفة العقلية تلوح معزولة الكيان عن المنطقة الروحية في بدائه الناس .. فانها - فى الواقع - كانت الشرارة الاولى التى انبثق منها ضوء الصعود الخالد الى آفاق الروحانية العالية . وكانت كذلك - حتى فى طور ميلادها الاول - استشرافا ذكى الفهم لكل ماهو وراء المادة .. ولكل ماهو خلف تخوم الحياة ..

ذلك كان شأن الفكر اليوناني القديم .. كان يعتز بنفسه الى حد الغرور .. ولكنه كان مع ذلك يتطلع دائما الى أعلى من طاقاته وقدراته .. ولئن أخطأه التوفيق فلم يصح - ككل - هذا الأعلى طاقة وقوة هو الله .. فانه مع ذلك كله كان نبضة الوعي الباكرة في تاريخ المعرفة الروحية المؤسسة على عمد عقلية فارعة تهزأ بكل عاصف وتسخر من كل ريح ..

وحديثا .. وعلى ضوء كل ماجد في حياتنا المعاصرة من انتصارات علمية وحضارية شامخة .. نازالت للفكر نزواته واندفاعاته .. وأستطيع أن أقول .. أن ضراوة الاغترار والزهو بكل ما هو عقلي .. ومادى .. وأرضى .. لم تبلغ في أى طور ما بلغته اليوم من ضراوة وقسوة .. أن موجات الاتحاد والشك .. لتفور في كل منطقة من العالم اليوم .. حتى في أعرق هذه المناطق ايغالا في مراحل الايمانيات .. ربما لأن الزحف العلمى بكل فتوحاته .. وانطلاقاته .. قد أعطى عن نفسه صورة القادر الذي لا يفلب .. والقائد الذي لا ينهزم .. في اللحظة التي يقف الدين فيها محتلا مواقعه الاولى .. منحسرا في مجالات كثيرة عن بعض هذه المواقع .. نتيجة النضوب الفكرى والايمانى الذى اصاب أبناءه بالشلل ، فلم يعودوا قادرين على حمله وتبليغه ، والتحليق به الى آفاق مضيئة أكثر حياة ، وأشمل اندفاعا ..

وفي وهج هذا الدوران الفكرى الراعش المضطرب عاش الانسان في الماضى ويعيش اليوم .. أقصى ما يمكن أن يتصور من حياة .. انه يدور فى فراغ .. ويحس بأن وجوده عبثى ! لحظة الميلاد عنده تساوى لحظة الموت ، والمساحات الزمنية القائمة بين البدء والختام ، ليست سوى مرحلة من العبث القاسى الذى لا جدوى من ورائه ..

خذ مثلاً واحداً من مفكرى هذا العصر (ألبير كامى) ..
واقراً بحوثه وقصصه .. ومسرحياته .. انه ككاتب لامع مفكر
سيبهرك من غير شك يثرائه الفنى الرائع الممتاز وبعمقه الساحر
الاخاذ .. ولكنه فى النهاية سيسلمك الى احساس عاصف
باليأس والعبثية واللاجدوى .. فى مسرحيته « سوء تفاهم »
تصبح « مارتيا » (هذه الدنيا ليست سوى مقبرة سنوضع فيها
فى النهاية بالكوم متلاصقين) .. وفى موضع آخر تخاطب ماريا :
(لكن قبل أن أذهب لأموت .. على ان أخلصك من وهم اعتقادك
بأنك على صواب .. وأن الحب ليس عبثاً .. وأن ماحدث لم يكن
الا نتيجة الفوضى الشاملة .. وهو منطقى معها) ..

ان كل كتابات هذا المفكر الفنان .. طافحة بهذه القتامة
الداجية .. وهذه الهروبية الصفراء .. وربما لا تجد لأكثر ابطاله
من نهاية سوى الانتحار .. كنتيجة طبيعية ومنطقية لايمانهم
بفوضى العدالة .. وعدالة الفوضى ..

(ألبير كامى) .. هنا .. ليس سوى رمز لعشرات ومئات
من مفكرى العصر ، الذين فقدوا الايمان بشيء معين أعلا من
الانسان .. واهدى من المادة .. فقدوا بذلك صلابة الارض
التي يقفون عليها ، ووضوح الرؤيا اللازم لكل من يشق طريقه فى
الحياة .. ان ايمانهم كان بالعقل .. وبالعقل وحده .. حتى
الهو .. وليس فى استطاعة العقل البشرى .. حتى فى قمة
نضوجه واشراقه .. يحمل عبء الالوهية الخارق ..
بكل ما يتطلبه هذا العبء من صفات وكمالات .. أجل ..
ليس فى استطاعة العقل البشرى أن يقدم الحل ، أو الحلول
العاقلة لمعادلة الحياة الصعبة المتشابكة لأن العقل نفسه بعض من
هذه المعادلة .. ولأنه يرتطم دائماً بأسوار محدوديته فيقع على
السفح عاجزاً عن التحليق والطيران ..

وهنا يبرز الدين كحل .. وكحل الهى شامل وعميق ..
ليقدم لمعادلة الحياة تفسيرها المنطقى الذى لا يتهدأ فى حومة
الصراع ودورانه المفزع ..

الدين كحل .. يبدأ من منطلق الايمان بالأعلى لينتهى الى
الايمان بالشجرة الفارعة المثمرة .. المتهدلة الأغصان والثمار ..
ساذجة .. مثلاً من الايمان بالثمرة الى الايمان بالشجرة قائلاً
لك ان الأثر يدل على المؤثر كما يقولون .. ولكنه يبدأ من منطلق
الايمان بالشجرة الفارعة المثمرة .. المتهدلة الأغصان والثمار ..
قائلاً لك : لو لم تكن الشجرة موجودة اكانت توجد هذه الثمار ؟؟

ومن هذا نستطيع نحن ان نفهم لماذا كانت الصيحة الأولى
لنبي عظيم « كمحمد صلى الله عليه وسلم » هى : « لا اله الا الله » ..
انه يبدأ القضية من أساسها .. ثم يمشى بك فى دروبها درباً فدرباً
.. حتى يقفك فى النهاية أمام بناء ايمانى شامل متكامل بكل أبعاده
وأصمائه .

انت فى قضية الايمان مطالب بشيء من التجاوز .. تجاوز
الذات وتجاوز المنطق العقلى .. فالذات الضامرة الكليلة يجب
ان تؤمن بأنها دون مستوى الندية للقوى الكبرى الخالقة ..
فليس اذن فى استطاعتها استيعاب حقيقتها .. ومن واجبها ان
تدعن لهذه القوى المبدعة وان تسلم لها بالحكمة .. والعظمة ..
والإبداع ..

التلميذ البادىء دون مستوى الندية لأستاذه ، فليس من
حقه ان يشك فى معطيات هذا الأستاذ . الا اذا بلغ شأوه العلمى .
ان من حق التلميذ فقط ان يسأل ، وان يطلب المزيد من الفهم .
ولكن ليس من حقه أبداً ان يقول لأستاذه أصبت هنا .. أو

أخطأت هناك الا اذا كان قادرا على التفوق على أستاذه .. فاذا كان ذلك كذلك في اطار العلاقة بين الأستاذ وتلميذه الذي قد يبلغ شأوه العلمى يوما ما .. فان العلاقة بين الانسان وخالقه يجب أن تحددها دائما علاقة العجز والقدرة .. او علاقة النقص والكمال .. لأنه ليس في طاقة الانسان أن يلحق شأو خالقه .. لأن شأو الخالق ليس مدى طفرة أو طفرات .. وانما هو اللانهاية الضخمة ، بكل ما تنطوي عليه اللانهايات من قدرات وأسرار ..

الايمان اذن عملية ترسيخ لوضعية الانسان على هذه الارض ، بدلا من تركه مذبذبا هكذا في مهب الرياح .. وليست عملية الترسيخ هذه شدا الى صخرة بكاء . وانما هي اعطاء الانسان كل مشاعل النور ، ليبصر على ضوئها الغاية من وجوده . والهدف من حياته .. و متى تعلقت آمال الانسان بغاية ينشدها ، أو هدف يرنو اليه . فان وجوده حينذاك يكتسب خصوبة ومعنى ، ويصبح من غير شك وجودا هادفا وعميقا . وليس مجرد عبث أو فوضى أو حياة بلا جدوى ..

واذا كانت بعض الفلسفات المادية تعطى الانسان في حياته غاية أو هدفا .. فان الدين يسبقها الى ذلك .. متخطيا تخوم الحياة الى تخوم الآخرة . عاقدا بين غاية الانسان هنا وغايته هناك . أوثق الوشائج . وأعمق الصلات .. بينما تظل جهود الفلسفات المادية حبسة اللحظة المعاشة لا تتخطاها الى غيرها من حياة ..

وهنا تبرز ضخامة الدور الذى ينهض به الدين ، معدلا كل منطق هذه الفلسفات .. فان الانسانية لكي تحقق وجودها الأفضل لابد أن تتخطى الى حد ما .. بعض غاياتها الحياتية .. فاذا آمنت بأن وراء هذه الغايات الحياتية غايات أخرى وراء

الحياة . أقدمت على التضحية بكل ما فى وسعها من ايمان ..
أما اذا لم تكن مؤمنة بسوى الغايات الدنيا .. فانها قد ترتطم
حتى بآمالها فى الدنيا ، محطمة ومحطمة .. وهنا قصور
الماديات ..

الدين كحل .. يهب الايمان الوائق المتكامل .. ويعطى
الهدف من انوجود للوجود .. ويحفز على التجاوز الوائب
المتفتح ... ويفض المعاليق لنرى أبعد من حدود الرؤيا . وهو
وحده الذى يمكن أن يكون حياته الحياة ... ونبض التطلع
الانسانى الى الأسمى دائما .. والأشمل دائما .. والأخلد
دائما .. وتلك هى رسالته !

التطور منطق لا خرافة

يبدو أن الخوض في مثل هذا الصدد ليس دائما على مستوى السهولة المتخيلة التي تفترض امكانية السبح في كل البحار .. أولا لأن التطور - موضوعيا - يحمل في داخله مخاطره التي لا تنتهي بما هو تجاوز حتمي لبعض أنماط التقاليد .. والمضامين .. وثانيا .. لأن كل المتلقين ليسوا على مستوى واحد في محاولة الاستيعاب والتمثل .. فبعضهم صامد لا يهتز .. والبعض لا يعدو أن يكون ريشة في الرياح .. وثالثا - وهذا هو الأخطر - لأن للتطور - دائما - منطقا لا يهزم .. وبريقا يمهد له الارض .. ويعبد أمامه مجالى الانطلاق ..

والذين يرفضون التطور هم وحدهم الذين يرفضون المعاصرة .. لان التطور منطق الحياة .. بينما يشكل الجمود منطق الموت .. او على الاقل منطق العجز عن مواكبة الحياة .. ان كل الكشوف العلمية التي نحيا اطاراتها ومحتواها اليوم .. ليست شيئا آخر سوى افراز طبيعي لحركة التطور ..

ولو ان الانسان تحت وطأة الجمود - رفض ان يطور ذاته
وآداته .. لأمكن اننا كنا نعيش اليوم في مغاور الجبال وكهوفها
اليابسة .. نستضيء بانوار .. ونعدو وراء حيوان برى ..
ونتبادل الاشارات الخرساء بدلا من هذه الكلمات التي فتحت
لنا في الكون مناجم غير ناضبة الكنوز ..

التطور انن منطق الحياة ... وطبيعة الأشياء .. ولكنه
منطق محكوم بالحدود والاقيسة ... وليس اعتاقا جامحا متمردا
على كل القيود والضمانات .. فليس يوجد على الأرض ما يمكن
ان يسمى مطلقا .. ان المطلق ليس امكانية البشر ... ولكنه
امكانية القوى الخالقه المنبثق عن شعاعها الخالد هذا الوجود
الذي نحياه .. ان الحق مقيد كما أن الباطل مقيد .. ومجرد
ان يوجد حق وباطل .. حرية وعبودية ... جمال وقبح ..
بحتم أن يكون كل مقابل حدا لمقابله يعيقه عن أن يكون « مطلقا »
بلا حدود .. ان الجمال حد للقبح ... كما أن القبح حد
للجمال .. ومجرد وجود أحدهما ... يحدد بالضرورة وجود
أحدهما الآخر في نفس اللحظة وفي نفس المجال ..

وأبدا ... لا تشكل هذه الظاهرة مصادرة من نوع ما للون
من ألوان الوجود الموضوعي للقيم والأشياء .. فان هذا الجدل
بين الأشباه والأضداد .. هو وحده القادر على أن يجعل
لوجودها معنى .. ولحركة اندفاعها فعلا أثرى .. وأخصب ..
على كل المستويات ..

ان خلافاتنا الحادة يجب ان تسلط ليس على قضية
التطور .. يكون أو لا يكون .. وانما على نوعية « التطور »
مرشد هو أو مضلل ؟ محرر أو مدمر ؟

و حين نسلم للتطور بختمية تحققه في وجودنا الحيائي ..
شكلا ومحتوى ... يجب ان نعطي انفسنا حق القبول والرفض ..
حتى لا نستحيل الى مجرد كوننا محكومين بحركة التلقى وليس
بحركة الانتخاب .. وهذا وحده .. هو الضمان الأكيد الذى
نرفع به أيدينا في وجه الطرفان .. فان تطورا ملائما لطبيعة
جيل من الناس .. ولطبيعة جيل من التقاليد .. لا يمكن ان
يكون بالضرورة هو نفس التطور الملائم لجيل آخر من التقاليد
والناس .. والتطور حين يستحيل الى قسر .. أو الى ضربة
لازب كما يقولون .. دون اعطاء البشر حق القبول والرفض ..
يصبح جلدا قاسيا عن جريمة لا نعرفها .. وسرقة لوميض أعين
نحتاج الى وميضها في رحلة الظلام !

ففى الادب ... كما فى الاجتماع .. يجب ان يكون تطورنا
نابعاً من هنا ... لا من هناك .. لان التطور المنطلق من أصالة
ذاتية متفتحة .. على مستوى الفرد والمجموع .. يفضى دائماً
الى مزيد من الاصاله ... والذاتية .. والتفتح ... ولكنه حين
ينطلق من ذوبان هش .. وفتون بعقرية الآخرين .. لا يفضى
دائماً الا الى هشاشة الاجنحة .. وقتل منازع العبقريه
الذاتية .. وهوان التراث القومى فى معترك التراث .

ولو ان عاصما من الفهم واكب حركة التطور .. لما أمكن
ان نجلد ظهر حاضرننا وماضيننا .. فقد يكون حاضرننا قاطرة
أخيرة فى قافلة التطور الذى نعيش نبضه الآن .. ولكن ذلك
لا يمكن أن يكون مقدمة لنتيجة غاشمة تؤكد أن حاضرننا انعكاس
لماضيننا ... وأن هشاشة هذا الحاضر صدى صيحة الهشاشة
فى ماض لنا بعيد .. ان ذلك لو صح .. لكان من الطبيعى لأوربا
اليوم .. أن تكون فى آخر القافلة ... فقد كانت عبر قرون طويلة
تضرب فى أعماق الظلام .. منخوبة القلب والعقل .. ضائعة

الملاحم والقسمات ... بينما كان العالم الاسلامى مصدر اشعاع
خطير .. يبدع حضارته .. ويتلقى حضارات .. ويضيف الى
هذه من ثراء ذاتى لا يهزم ولا يشيخ ... وليست هذه صيحة يأس
اخيرة يلقي بها الفرقى فى خضم التخلف .. كما انها ليست
تجديف واهم يردد شعارات صاغها متحمسون من قومه كرد
فعل طبيعى لاحساسهم العارم يهزائم الفكر وهزائم الروح ..
فان التاريخ الحقيقى للعصور هو الذى يؤكد هذه الحقيقة ..
وليس هتافنا المتشنج دفاعا عن وجودنا المهاجم فى الصميم ! !
ان روح « الانتخاب » و « الانتقاء » فىنا يجب ألا يخردها
شئ عن مراقبة حركة التطور .. لأن نهوضنا الوائق يجب أن
يكون منبعثا من داخلنا ... فالقوانين ... وأنماط الحياة ..
واستلهاهم الوحي فى كل الابداع .. يجب أن يكون ملائما للذات
المحكومة به .. او المبدعة له .. ولن يكون كذلك الا اذا كان
شعاعا بازغا منها ... وصوتا صادرا عنها ... حتى لا تحس
بكيانها الشاهق يتمزق خلية خلية .. ونبضة نبضة .. وهذا
لا يعنى على الاطلاق ان نقف من كل الثقافات والحضارات موقفا
رفضيا .. فان ذلك يعنى اننا نتكلس ، اننا نريد لكل النوافذ
أن تظل مفتوحة .. ولكل الشموع أن تبقى مضاءة ... ولكل
الازهار أن تعانق فى كل فجر قدر التفتح والنضوج .. ولكننا
نرفض حتى الموت .. أن تفتح كل النوافذ غير نافذة واحدة ..
هى تلك التى نطل منها على ماضينا .. وتراثنا .. وعبقريّة
الابداع فى كياننا الحضارى .. ان نوعا من التفتح الايجابى هو
ما نريد ... فلنتمثل كل الثقافات ... ولنعانق كل المفاهيم ..
ولنفرز من خلال ذاتنا المبدعة ما يلائم طبيعة أرضنا العربية ..
وانسانها المؤمن بتراثه الفنى .. الرافض أساسا أن يفنى من

خلال حناجر الآخرين .. وأن يفلق نفسه على نفسه كذلك ..
في عملية انكماش جبانة بكماء !

على المستوى الشعري - مثلا - نلاحظ أن شعرنا العربي المعاصر وخاصة « الشعر الحر » منه .. طافح بالعبث .. والمرارة .. واللاجدوى .. والاغتراب .. وهذه كلها افرازات عصرية نعم .. ولكنها قائمة أساسا على احتراق الصلة بين المثال والواقع من جهة .. وعلى عبودية الإنسان للتطور الآلى الخطير من جهة ثانية .. مما يفيض على الواقع الابداعي احساسا عارما بالقلق .. واحساسا عارما آخر بتفاهة الإنسان أمام الآلة القافزة الخطيرة .. أن ذلك قد يكون منطق الأشياء فى مناطق ليست لها تقاليدنا التراثية .. أو لها تقاليدنا القابعة فى زوايا الشعارات والمثل غير المهيئة من أول الطريق لعانقة الواقع الجائش بالآلاف الصراعات ..

ان التطور هنا قد زيف الى حد بعيد .. فليس رشادا ولا قريبا من الرشاد أن أصبح كما يصبح الآخرون .. دون أن تكون لهذه الصيحة حلفية ايمانية بشىء ما .. سوى أن ألبس أقنعة كل المهرجين .. أن التطور منطق لا خرافة .. حركة عاقلة .. وليس قفزة رعناء .. بصر بالارقى والأجمل .. وليس انحناء على نهر الدموع .. ان لنا أحزاننا الخاصة .. وهمومنا الخاصة .. فلنتحرك من داخلها حركتنا الذاتية .. مضيئة كانت أو غائمة .. رائعة أو فاجعة .. فقط على أن تكون حركتنا نحن ..

ان شعراءنا يفتحون أرضا جديدة .. نعم .. مضيفين الى قممنا الشعرية .. أبى العلاء .. والمتنبى .. وشوقي .. وغيرهم .. ولكن هذا لا يمكن أن يعطيهم براءة الجموح .. فانهم مطالبون

على مستوى الفكر .. ان يتمثلوا تراثنا كله : العقائدى
والشعرى .. وأن يتحركوا من خلاله دائما .. وأن يقيموا
معاصرتهم ليس على أساس اجترار مضمونى لهذا التراث ..
وانما على أساس تطوير فاهم له .. تطوير يهدف بالضرورة الى
ان يكون حرصنا عليه .. حرصنا على وجودنا فى الوجود !

ويوم ينهض هذا الفهم لعنى المعاصرة فى أدمغة شعرائنا
ومفكرينا على السواء .. فان شلالا من الابداع الحقيقى والمضىء
سوف يتدفق فى صحراء حياتنا المجدبة .. رائعا كالافق ..
متهللا كالفجر .. ناشرا جناحيه كنسر اسطورى على كل
الأبعاد .. مهما كانت غثاثة الواقع الحضارى العربى المعاصر الذى
نحياه !!

عن (التجربة) . . بين الخلط والتحديد !!

ليس عن التجربة الفنية يدور هذا الحوار ، بمعنى ان محور هذه الكلمات لن يكون تجربة الشاعر في معاناته الفنية حين يتصدى للعمل في مجال الشعر . . ولن يكون كذلك تجربة الفنان التشكيلي في رحلة بحثه الدائخ في عالم السطوح والألوان !!

وليس عن التجربة العاطفية أتصدى للحديث الآن ، بمعنى انني لن أتصدى في هذه الكلمات لتاريخ (العاطفة) أو لتاريخ أبطالها الذين ملأوا جوانب الأرض عشقا وحكايا حول هذا العشق على مستوى العذرية الخالصة ، أو البوهيمية المنفلتة !!

ان التجربة التي أعني هنا ، هي (التجربة الدينية) ربما على وجه التقريب !! ان صعوبة فادحة تواجه المصطلح المحدد لنسوع التجربة التي أعنيها هنا ، ربما لأن إطارها العام قابل بالضرورة لاحتواء كل العناصر والمفردات الحياتية المختلطة والمتمايزة ، بما هو إطار شمولي ننحني أبعاده على كل المستقيمات في حياة البشر وكل المنحنيات ، وأعني بهذا الإطار الشمولي (الدين) !!

التجربة التي أعنيها اذن هي تجربة الانسان على طريق الصواب والخطأ ، أو قل على طريق الخير والشر ، ما هي ؟ وما ملامح أبعادها الكونية !!

وقد تلوح القضية للفارغين ساذجة بلا قرار ، ربما لأن حيواننا الفكرية غاصة في هذه المرحلة بملايين المسلمات ، ولكن هذه القضية تشكل - فيما أزعج - نصف خريطة الفكر الدينى بلا محاولة للتزيد أو طرح للشعارات !! انها قضية تجريم وبراءة ، فاذا لم نحسن فهمها على وجهها الحقيقى ، فانه من الممكن فى هذه اللحظة ان نضرب وجه البرىء بدينونة التجريم ، وان نضع أكليل البراءة تاجا على رأس الجارم الحقيقى . أو قل ان أقل ما يمكن ان يصينا فى هذه اللحظة نوع من الدوار الفكرى الذى لا ندرى معه من الجارم ومن البرىء ، وتضيع من أيدينا كل الخيوط !!

ان مواجهة مثل هذه القضايا بمثل هذا النوع من المسلمات القانعة غير المرتكزة فى حركة يقينها على غير العادة والبلادة ، يمكن ان يسحب من تحت أقدامنا كل صلابة الأرض ، ويتركنا هكذا راقصين رقصة الموت فى فراغ الفراغ !!

ان المسلمة ينبغى ان تولد من حجم المعاناة . بمعنى اننى لا أستطيع ان استقر على فهم ما دون معاناة هذا الفهم ، ان الفهم الذى يقدمه لى الآخرون ينبغى ان لا يكون سوى فهم مساعد لمعاناتى الخاصة والصميمة على طريق الفهم ، ولا فلسف سوى صدى صوت ضائع فى أحراش الظلام !!

ولا أدري متى ، - على خريطة فكرنا الدينى - نرفض ان نشاغل وجبة الخبز المضوغ ، أملا فى وجبة خبز من ابداعنا نحن يكون دائم البكارة ؟؟ ان مواجهة الأشياء بمزيد من المسلمات يحبط قضية الفكر وقضية الدين على السواء ، لأن الفكر الدينى أساسا نزوع

بلا انتهاء الى استكناه هذا العالم المتراحم ، وتخط بلا حدود
لأسوار هذا الكون الى ماوراءه من أكوان ، فاذا أحلنا هذه القضية
الصميمة نحن الى قناعات باردة ، فان وشم الغباوة الكونية لن
يفارق وجوهنا حتى لحظة اسدال الستار !!

ولنبداً معاً في مواجهة القضية التي نحاول ان نتعرف على
ملامحها الآن بعيداً عن الفهم المغلوط لحقائقها الأساسية .. يقولون:
ان الانسان خطاء بطبيعته ، ولأنه هكذا خطأ بطبيعته فقد فتح له
الدين كل أبواب الأوبة التائبة ، مضاعفاً له الاجر ، مبدلاً سيئاته
حسنات ، محلقاً به فوق مستوى الانسان الآخر الذي لم يقارف
الخطأ ، ولم يدخل بحار (التجربة) الفادحة !! هكذا يقولون !!

القضية اذن ذات شقين .. انسان يسمى انسان التجربة
لأنه عائد من رحلة وقوعه في وهدة الخطأ .. وانسان بلا تجربة
وبلا وقوع في وهدة الخطأ على نحو من الانحاء .. أيهما أروع ،
وأهدى ، وأقمن بمعارج الخلود ؟؟

وبداً ، لا نريد ان نحارب جيوش (المسلمات) بمسئلة أخرى
من أى لون ، أعنى اننى لا أريد ان أوافق هنا على ان الانسان الخطاء
هو وحده صاحب (التجربة) .. بينما يظل نقيضه المتأبى على الوقوع
انساناً عارياً من (التجربة) .. لا أريد ان أوافق على هذه المسئلة
الساذجة ، لأنى هكذا أفهم هذه المعادلة : ان الانسان العائد من رحلة
الخطأ انسان دخل (تجربته) أجل !! ولكن نقيضه - الانسان
المتأبى على حركة الوقوع في وهدة الخطأ - دخل (تجربته) كذلك !!
ان تجربة الانسان الخطاء يمكن ان تفهم على مستوى السلب بما هو
مستسلم منذ البدء لهوائف الطبيعة المركوزة فيه اذا شئنا ان نقول
.. ولكن تجربة نقيضه المتأبى على الخطأ يمكن ان تفهم على مستوى
الايجاب بما هو مستعصم بأخلاقيات مقاتلة تأبت منذ البدء على
حركة النزول !!

أريد أن أقول : ان طاقة (الوعي) هى ما يفرق بين نوعية كل من النمطين ، ان نمط الانسان المخدر الوعي ، المستجيب لهوائف الطبيعة ، العاجز عن موقف الصمود ، ان هذا النمط هو صاحب (التجربة) الانكفائية .. بينما يلوح النمط الآخر المستعصم انسانا قابضا على وعيه ، متأبيا على جواذب الهبوط ، شاهرا سلاحه فى وجه خيانة كينونته كإنسان !!

هكذا أفهم هذه المعادلة ، وهكذا ينبغي ان تفهم كل معادلات الفكر والدين ، ان تعبئة شسبه خرافية قد أفلحت فى اقتلاع فهمنا الصوابى للأشياء ، وأعطينا مدادها الأسود نلعب به لعبة الكتابة والقراءة غير جادين فى شئ على امتداد خريطتنا الجغرافية والانسانية ، كأننا بعض الدمى على مسرح الكون ، ولسنا أحادا من شخوصه الحقيقيين !!

أن يخطئ الانسان .. هذا معناه انه فى مرحلة من مراحل حوله الانسانى قد نسي معنى خلافته على الأرض .. وان يصعد بالجهاد الذاتى والمعاناة القاسية من وهدة الخطأ الى مشارف الصواب .. هذا معناه أنه عاد يتلمس طريقه الى معنى خلافته على الأرض ..

ولكن .. أن يتأبى الانسان منذ البداية (فى حدود طاقتيه كإنسان) على التجاوب المتهاافت مع منطق الخطأ ، رافضا ان يستسلم وان ينهار ، معانيسا فى ذلك صراعه البطولى مع هوائف الطبيعة وجواذب الذات .. هذا معناه انه من لحظة حوله الانسانى قد استوعب معنى خلافته على الأرض ، وأنه أخذ يقاتل قتالا مصيريا على جبهتين فى وقت معا .. فهو يقاتل القوى الذاتية المتدلية أو التى تريد ان تتدلى الى الوهدة ، وهو يقاتل القوى الغيرية التى تشك

بطبيعة وجودها عنصر الهجوم على وضعيته كإنسان عقائدي يرفض
أن يخلد إلى الدعة في زحمة الجدل أو في زحمة الصراع !!

ان (التجربة) كمصطلح يراد به الأعلى والأكمل ، ينبغي ان
لا تضاف إلى رصيد الخطاء المستسلم القانع برحلة الهبوط وحده ..
وانما ينبغي ان تضاف إلى رصيد المستعصم المتأبى كذلك ، أو هي
ينبغي ان تضاف إلى رصيده أولا وقبل غيره من الأغيار !!

لابد من التحديق اذن في مفهوم هذا المصطلح (التجربة) ..
ان التجربة قد تكون تجربة الخطأ لا أصادر هذه المقولة .. وقد
تكون تجربة التأبى على الخطأ فلماذا يصادرون هذه المقولة ؟!
لقد أوما محمد العظيم إلى هذه القضية حين صاح صيحته الرائعة :
(يأتى على أمتى زمان يكون القابض فيه على دينه كالقابض على
الجمر) !! ان القابض على دينه هنا هو انسان (تجربة التأبى)
وليس انسان (تجربة الانكفاء) . لأنه (قابض) ليس على زهرة
في عروة قميصه ، وانما هو قابض على (الجمر) ولعل كلمة
(قابض) هنا وليس مجرد (ملامس) مثلا .. تعطى (للتجربة)
أبعادها المساوية الرائعة الصمود !!

ان القابض على دينه هنا هو القابض على سلاح المقاومة ؛
وهو القابض على (لا) في مواجهة كل المغريات !! وليس نقيضه
صاحب تجربة الانكفاء سوى قابض إلا على خوره الذاتى والكونى ،
وعلى (نعم) في مواجهة كل العدوانات على كل المستويات !!

ونوشك ان نطل على هذا الأفق الصامد فى مواجهة التحلل
من خلال هذه الومضة القرآنية كذلك : « لقد خلقنا الانسان
في كبد » ! ان هذا « الكبد » ليس شيئا آخر غير المعاناة الكونية
المخيفة التى نيطت منذ البدء بواحد هذا الكون الرائع الذى هو

الإنسان ، وليست هذه المعاناة الكونية كذلك شيئاً آخر سوى ما نطلق عليه نحن مصطلح : (التجربة) !! قد يقال : ان هذه المقولة القرآنية تعطى منطق التعاطف مع انسان التجربة المنكفئة وليس منطق التعاطف مع انسان التجربة المتأبية ، ولكنى لا أستطيع أن أستوعب منطق التعاطف مع فهم القضية على هذا النحو .. لأن السياق القرآنى لا يحبس مدلولها فى هذا الجانب دون هذا الجانب : من جهة بما هو صادر عن منطق الخير وقاعدته جميعاً .. ومن جهة أخرى لأن تجربة الانكفاء ينبغي أن تكون أو هى بالضرورة - شذوذ القاعدة وليست القاعدة فى الطبيعة وفى الانسان وفى الفكر !! .. » لقد خلقنا الانسان فى كبد » تعنى : فى كبد الرفض الأبيض وليس فى كبد التهافت الاستجابى ، هذا ما أفهمه من طبيعة منطق الآية ، النابعة من طبيعة المنطق القرآنى ، اذا تجوزنا فى التعبير عن طبيعة الوحي القرآنى بهذه الكلمات !!

(التجربة) التى أعنيها اذن هنا هى التجربة السلوكية من الوجهة الدينية بالمعنى الذى حاولت ان أحدد تخومه !!

ان تجربة الخطأ بعض ملامح المسيرة الانسانية أجل .. ولكنها لا يمكن ان تكون كل خارطة المسيرة الانسانية !!

ان تجربة الخطأ والانكفاء معاناة وجودية يحمل مأساة خوضها الانسان لا أنفى ذلك .. ولكن تجربة التأبى والصمود معاناة وجودية أعمق وأروع يخوضها انسان آخر .. لا أحب ان ننفى ذلك كذلك !!

ان الخلط تشويه للحقائق والمفاهيم ، بينما ينهض التحديد
أملا صميما يجب أن نهرع الى احتوائه ومعاناته حتى نطل على أفق
التطور الحضارى الذى أبدعنا يوما ملامح وجهه الفاتن ، ويوما
عائقنا نجومه البضاء .. أن فى قدرتنا ان نحيل الأمل الى عمل ..
والحلم الى حقيقة ، والغد الى مساحة لحلول فعلنا البطولى الكبير ..
فى يدنا دائما .. أن نجاوز اللامنطق الى المنطق ، والفهم المغلوط
الى الفهم الصوابى ، والخرافة الكبرى الى الحقيقة الكبرى !!

فلسفة الاحساس الجمعى . . من الوجهة الاسلامية

- ١ -

الاحساس الجمعى جانب من أروع جوانب فلسفة النظرية الاسلامية الهادفة الى بناء حضارة الانسان من خلال الانسان ذاته وليس من خلال استلابه واقتلاعه ، بمعنى ان مفردات هذه الحضارة لا تشكلها نزعة فردية أنانية تصيب مناطق الذات بتضخم فادح لا يصيح الى الآخرين . . ولا تشكلها كذلك نزعة جبرية ساحقة تحيل مفردات الظاهرة الانسانية الى مجرد مغاير آلية بكاء . . ان فلسفة النظرية الاسلامية تتكىء فيما تتكىء عليه من عناصر البناء الحضارى على (الاحساس الجمعى) الذى يتيح للذات ان تمارس حقها الطبيعى فى الخلود على الأرض والتاريخ ، وللجماعة ان تمارس حقها الطبيعى فى تشكيل ملامح الدولة بكل ما ينحنى عليه مصطلح الدولة من ضوابط ومناهج وشروط . . .

ومصطلح (الاحساس الجمعى) لا يعنى تجاوز الفرد الى الجمع ، لأن الفرد هو التكوين الأول الذى تلتصق به تكوينات فردية أخرى لتشكيل مفهوم الجماعة ، فنحن لا نستطيع حتى تصور ان يوجد الكل فى غياب الواحد ، الواحد دائما هو الخلية الأولية التى باندماجها فى عديد من الخلايا الأولية الاخرى يكون الشكل النهائى ، ولكننا يجب هنا ان نلاحظ انه بلا شكل نهائى كذلك تبقى الخلية فرضية قائمة على حافة العجز غير قادرة على التحقق الوجودى ، وهكذا تبدو لوازب الضرورة فى عناق الفرد بالجمع ، والواحد بالكل ، والخلية بالشكل النهائى . ان الاحساس الجمعى لا ينبثق هكذا من الفراغ ، انه نبض التعاطف فى وجدان المفردة الوجودية التى هى الانسان ، وهو لا يتوجه كذلك الى الفراغ ، انه متوجه أساسا الى الآخرين الذين يشكلون فى النهاية ظاهرة الجماعة أو الدولة أو الأمة ، وبهذا التواصل الحتمى بين ما هو واحد وما هو جمع تسترد الظاهرة الانسانية ملامحها الحقيقية ، وتعيش فى التاريخ فوق امكانية الذبول والانحناء !!

وبديهي ان هذا الاحساس الجمعى لو التصق بالذات المحسنة ولم يتجاوزها الى الآخرين لبقى حركة دائرية مغلقة لا تفضى الى شيء حقيقى . لا بد اذن من تجاوز الاحساس الجمعى مناطق الانفعال الساذج الى مناطق الفعل الحياتى ، بمعنى ان الفرد الذى تخضر فى قلبه زهور هذا الاحساس الجمعى النبيل ينبغى ان ينقله الى مجال التحقق الوجودى تعاطفا فى الخير والشر ، وتناصرا فى السلم والحرب . وتضامنا فى السراء والضراء . وبديهي كذلك ان هذا الاحساس الجمعى النبيل لو حوصر فى القمة ، أى فى الجماعة ،

ولم يتنزل على الآحاد ، لبقى حركة فوضى جماعية ان أرضت غرورها المظهرى فهي عاجزة عن ارضاء طبيعة الاجتماع الانسانى ، لابد اذن من تجاوز الاحساس الجمعى مناطق النظرية الفلسفية الى مناطق المعاناة الانسانية ، بمعنى أن الجماعة التى تمتلك طاقة الاحساس الجمعى النبيل ينبغى ان تنقله الى مجال التحقق الوجودى ، ايماننا بانسانية الانسان ، ونشدانا لتخفيف عذاباته وكدهه ، ووصولنا به الى المستوى اللائق الذى يؤهل ملكاته الايمانية الأخرى للانطلاق والتحقق وممارسة دورها الفكرى والايمانى والوجودى جميعا بلا تفريق !!

- ٤ -

والاحساس الجمعى لا ينبع من الذات بما هى ذات موجودة فحسب ، فكم من ذوات انسانية تعيش على الأرض وهى عارية تماما من مجرد الاحساس بالتواصل الوجدانى ، قد تدفعها الضرورة الى عمل جماعى ، وقد يحركها العدوان الى حرب جماعية ، وقد يحفزها حافز الى الخروج فى اجماع كبير لاعلان رأى أو المطالبة بقضية ، ولكنك بقليل من الغوص فيما وراء السطوح تستطيع ان ترى فى هذا المحيط الجماعى مجرد جزر انسانية منفصل بعضها عن بعض ، ان الضرورة هى المحرك الذى دفع بها الى العمل ، ان عوامل الخوف والأمن هى التى حركتها فى اتجاه التوحد ، ان القضايا الذاتية هى التى حفزتها الى الوقوف هكذا فى جبهة توحى بتوحد الداخل وهى من هذا التوحد الداخلى على مسافات . . مجرد جزر انسانية منفصل بعضها عن بعض ، هذه هى الحقيقة الفادحة التى تؤكد ان الاحساس الجمعى لا ينبع من الذات بما هى ذات موجودة ، ولكن بما هى ذات تستقطبها قيم معينة ، قيم لا تتسم بأنانية المنطق ، وأيضا لا تتسم بجبرية المنطق . . قيم غير قابلة للاصطدام بحقائق الكون لأنها تعبير حقيقى عن حقائق هذا الكون . . قيم تعرف

ان الانسان ليس وحده على الأرض ، ولا يمكن له ان يكون وحده على الأرض ، بدءا من الاحساس بالدائرة الضيقة التى هى الذات . الى الدائرة الواسعة التى هى الكون ، الى الدائرة الأوسع التى هى ما وراء الذات والكون من قوة خالقة للكون والذات !!

- ٥ -

والاحساس الجمعى يمر فى مراحل تطور وتحور دائمين ، ليس بمعنى اقتلاع ذاته من أصل الى أصل ، وانما بمعنى رحيله من وضعية حضارية الى وضعية حضارية أخرى ، ان الاحساس الجمعى الذى تؤلفه الضرورة أو الخوف أو الغاية ، ليس هو بعينه الاحساس الجمعى الذى تولده الطبيعة أو الايمان أو وحدة النبض العقائدى . . ان الأول يبدو صادرا عن موضوعية مطلقة غير مختلطة بعواطف الذات ، بحيث اذا أمكن لهذه الذات ان تحصل على قضيتها من غير هذا الطريق لأسرعت الى التخلي عن هذه الوجهة الاولى . . ولكن الثانى يبدو صادرا عن ذات تعرف حقيقة موضوعها دائما ، بحيث لا يمكن ان توجد مساحة محترقة بين قضية الذات وقضية الموضوع ، فهو متحرك من أجله ومن أجل الآخرين على السواء ، وهو غير قابل بالضرورة للتخلي عن هذه الوجهة ولو كان الى غايته المنشودة ألف ألف طريق !!

- ٦ -

وفى سبيل دعم كيانه الوجودى الذى تحدده عناصر الحركة والحياة ، يرفع الاحساس الجمعى راية القبول وراية الرفض معا ، اعنى انه قد يعبر عن مقولاته بطريق الايجاب والاحتواء والتعاطف ، وقد يعبر عن مقولاته بطريق السلب والطرح ورفض التعاطف . . الاحساس الجمعى ربما يتوهج فى المشاركة الوجدانية ، والمحاورة العقلية ، والتناغم الروحى اذا هو صادف أرضية مشتركة يمكن أن

تتلاقى على جنباتها عناصر تجاوب صميمي يجمع الأطراف .. وربما يتوهج كذلك في رفض هذه المشاركات والمجاورات والتناغمات اذا كانت تعبر عن عقائدية مختلفة أو وضعية نقيضة .. ولكنه هنا لا يرفض وهو معصوب العينين ، انه يؤسس رفضه الجازم على مقدمات من الوعي بكل أبعاد القضية المرفوضة ، وعلى مقدمات أخرى من الوعي بنسبة الرفض على مستوى الذات وعلى مستوى الأغيار .. حتى في التاريخ الحضاري يمكن للاحساس الجمعي ان ينتخب من ركائمه وان ينحى ، لايهم هنا ان يكون هذا التاريخ من نوعية عقائدية مشتركة ، ان قبول الكشف العلمي النابت في تاريخ ما لا يحتم ان يكون هذا التاريخ من نوعية عقائدية صديقة .. وكذلك يمكن ان يكون الرفض موجها الى بعض مناطق التاريخ المشترك .. ان رفض التخلف والجهل في تاريخ ما لا يحتم ان يكون هذا التاريخ من نوعية عقائدية نقيضة .. وهكذا يتوجه الاحساس الجمعي بالقبول والرفض الى كل المناخات ، فيعائق منها ما يتواءم مع ايقاع الحركة الراشدة ، ويطرح منها ما يتناقض مع هذا الايقاع المتحرك الراشد بلا حدود !!

- ٧ -

هذه بعض جوانب فلسفة النظرة (الفكرية) الى قضية الاحساس الجمعي ، وهي من غير شك بعض جوانب النظرة (الاسلامية) التي تطرح من قضاياها الذاتية ما يتيح للنظرية ان تتكامل !! فما هي أبعاد جوانب فلسفة (النظرة الاسلامية) الى هذه القضية ؟

ما هي الاضافات التي تمنحها للظاهرة ؟

ما هي حدود التناغم والتضاد بين ما هو اسلامي من هذه الوجهة وما هو غير اسلامي ؟

هذا هو محور حوارنا الآتى ٠٠ ونرجو (فى اطار فلسفة
النظرة الاسلامية) ان نكون على مستوى التصدى لهذا العمل
العلمى المتراحب الأعماق والأبعاد !!

- ٨ -

بدءا ٠٠ لابد ان نحدد طبيعة النظرة الاسلامية الى القضايا
التي يمكن ان تكون قسمة مشتركة بين كل المذاهب والاتجاهات
والتيارات ، فمن هذا المنطق وحده يمكن لأى فهم ان يكون على
مستوى صوابى اذا هو استطاع ان ينفذ الى صميم القضية الكلية ،
وان يحسن جمع مفرداتها فى اطار شمولى جامع يضع الشبيه الى
جوار الشبيه ، ليخرج فى النهاية بتصوير كلى ناهض على استقصاء
كامل ، واستبصار ذكى يضوابط الأشياء !!

- ٩ -

ان بعض فلسفة النظرة الاسلامية ان نعطى للأساسيات
المركوزة فى طبائع البشر حقها فى الوجود ، وحقها فى التعبير عن
هذا الوجود ، وهى بذلك لا تلغى دورها الفاعل فى تشكيل ملامح
الأخلاقية الانسانية ، وانما هى على النقيض تستطيع من خلال هذا
الاعتراف الأول ان تستقطب هذه الطبائع ، وان تحاول تعليلها
وترشيدها والحفاظ على آلقها الأول ، ان الخطورة يمكن ان تكون
كامنة ليس فى هذا الاعتراف الأول ، وانما فى محاولة كسر طبائع
الأشياء ومعاداة هذه الطبائع أو تجاهلها أو الغاء دور النعلية
والترشيد والتصويب ٠٠ من هنا ينبغى ان نبدأ حركة البحث !!

ان الاحساس الجمعى (من الوجهة الاسلاميه) ينطلق من دائرة الفرد ليلتحكم بدائرة الجمع ليعود كرة أخرى الى كل المفردات . . فالفرد مطالب هنا بلون من ألوان التنازلات الدائمة عن بعض حاجاته وضروراته للآخرين ، لأن هؤلاء الآخرين مطالبون هم كذلك بلون من ألوان التنازلات الدائمة عن بعض حاجاتهم وضروراتهم له ، ان هذه العملية البسيطة المعقدة فى ان لا تتم فى اطار جبرية ضاغطة من أى لون ، لانه حتى فى أساس القضية كلها «لا اكراه فى الدين» ان طوعية بحثه تحكم منطق العلاقة بين الانسان والايمان . . فاذا كان ذلك كذلك فى أساسيات القضية كلها ، فلا أظن اننا بحاجة الى تأكيد ان هذا المنحى الطوعى ينسحب بالضرورة على عملية الاحساس الجمعى الذى يتقارض فى اطاره الفرد والمجموع بعضا من ضرورات المادة وبعضا من عواطف الوجدان . . ان (الحاجة) الى الآخرين (من الوجهة الاسلاميه) ليست وحدها هى الحافز الحقيقى على المشاركة الوجدانية أو الاحساس الجمعى كما نحب ان نقول ، وانما ينهض الايمان بعرضية المادة وديمومة القيمة واحدا من أخطر الحوافز الحقيقية على هذه المشاركة أو قل على هذا الاحساس ، وبذلك تتم كل التنازلات على أساس من الايمان بأن الانسان أبقى من الشئ ، وبأن الروح أنقى من المادة ، وبأن الخير أعلى من الجحد ، وبأن ما نتركه طوعا وفانيا هنا ، نظفر به ضرورة وباقيا هناك . . ان (الايمان) يدخل فى القسمة هنا فيرطب من جفاف المقابلة بين الأخذ والعطاء ، ويخلع على القضية كلها معنى ان يكون الحس الانسانى المستجيب لهوائف الطبيعة المركوزة مستجيبا قبل كل شئ وبعد كل شئ لضوابط هذه الطبيعة المركوزة ، ولعناصر تعليتها وترشيدها والارتفاع بها الى أوج الاتصال بالسماء

.. وهذا هو الفرق بين طبيعة النظرية الفكرية المجردة وطبيعة النظرية الإسلامية الملتزمة في هذا المجال !!

- ١١ -

واذا كان الاحساس الجمعي (من الوجهة الإسلامية) يرفض ان يكون نبض التعاطف صاعدا من الفرد الى المجموع دون تنزل هذا النبض المتعاطف من المجموع الى الفرد ، فانه يبني فلسفته في هذا الصدد على أساسية راشدة ، ان الفرد لا يعمل خادما في ملهى غير محكوم بقانون ، وانما هو سيد على الأرض يتعامل مع جبر من المسودين الآخرين ، وليس في استطاعة قوة على الأرض ان تقنع الانسان المسلم بأنه خلق من عنصر أدنى ، لأن جليجلة الوحي تطن طنينها في أذنيه : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .. وما دام ذلك كذلك فمن واجبه ان يعمل أجل ، ولكن من حقه كذلك ان لا يستذله العمل والآخرين مهما كانت التبريرات ، ان نبض التعاطف الصاعد منه الى المجتمع الذي يحيا فيه ، ينبغي ان يرتد اليه نبض تعاطف اذا أعوز أو جهد أو حاصرته هزيمة الشيوخوخة ، ان التكافل الاجتماعي هنا ليس احسانا بقدر ما هو التزام ، التزام الجميع الاسلامي بمد يد العون الى كل مفرداته البشرية في ساعة العسرة ، والتزامه بتفتيح كل آفاق الامكان أمام هذه المفردات البشرية لتحقيق معنى وجودها على الأرض ، وتوسيع رقعة المتاح أمامها بدءا من الاستمتاع النظيف وانتهاء الى الاحتواء الكامل !!

- ١٢ -

ولقد يترقى الاحساس الجمعي (من الوجهة الإسلامية) ليس في معارج التطور والتحول فحسب ، وانما في المسافة السابقة

واللاحقة لكل مراحل التطور والتحول ، أعني ان فلسفة النظرية
الاسلامية في هذا الصدد لا تسلط ضوءها الغامر على مساحات
هذا التطور ماذا يمكن ان تكون فحسب ؟ ولا على مساحات هذا
التحول ماذا يمكن ان تكون أيضا فحسب ؟ وانما على نوعية هذا
التطور والتحول جميعا ماذا هي أساسا ؟ فاذا اطمأنت الى طبيعة
هذه (النوعية) فكل المسافات والمساحات والأبعاد بعد ذلك يمكن
ان تكون قابلة للفهم ، ومندرجة تحت مفهوم النظرية الاسلامية
بلا نشوز . . . أعني مرة أخرى ان التطور في ذاته لا بد ان يخضع
لفلسفة النظرية الاسلامية فاذا واءم طبيعة هذه الفلسفة فكل
التفريعات بعد ذلك قابلة للفهم والاستيعاب ، واذا لم يوائم طبيعة
هذه الفلسفة فمصادر تكويناته الأولى مصادرة هنا ، ومحكوم عليها
بحتمية الانطواء . . . أعطى لذلك مثلا : نحن لا نستطيع ان نتعامل
مع التطور في الثوابت الاسلامية كالألوهية والفرائض وآيات
التنزيل ، ولكننا نستطيع فقط ان نتعامل مع التطور في طرائق
عرضنا لهذه الحقائق على الأغيار ، وفي طرائق فهمنا لطبيعة هذه
الثوابت على ضوء كل ما جدد من كشوف وتقنيات . . . ان الاحساس
الجمعي بالتطور والتحول هنا يكون قائما على فهم صوابي مقارب
لطبائع الأشياء من جهة ، ومقارب أيضا لطبائع العصر الذي نحياه
من جهة أخرى ، اذا هو أصر على تجنب ثوابته كل أعاصير التحول
والتطور المحكومين بالانطواء ، واستمسك بكل عنفوانه بقيمة ان
يظل هو في ذاته متطورا ومتحورا يفيد من كل تجارب العصر .
ويضيف الى امكانية عطائه امكانيات أخرى غير قابلة للحصار !!

- ١٣ -

ولا يتخلف الاحساس الجمعي (من الوجهة الاسلامية) عن أن
يكون قابلا ورافضا معا . . . لأنه بهذا القبول والرفض يؤكد معني

انسانيته ، ومعنى معاناته للفكر الحضارى الذى يمر به العالم
اللاغط من حوله ، ان فلسفة النظرة الاسلامية فى هذا الصدد
تنهض على مسلمة أولية ، هى ان لدى الانسان العقائدى بناء فكريا
ووجدانيا وعقائديا متكاملا ، يعرض كل ما سواه عليه ، فاذا أخصب
جانبا من جوانب الفكر ، أو جانبا من جوانب الوجدان ، أو جانبا
من جوانب الايمان العقائدى ، باركه وشد على يديه ، واذا صادم
جانبا من هذه الجوانب تجاوزه أو عفى عليه .. وهذا هو المقياس !!

- ١٤ -

أعتقد اننا بعد هذه الاطلالة الخاطفة على طبيعة فلسفة النظرة
الاسلامية الى القضايا التى يمكن ان تكون قسمة مشتركة بين كل
المذاهب والاتجاهات والتيارات فى اطار ما نطلق عليه (الاحساس
الجمعى) .. يمكن ان نحاول تأمل بعض الظواهر التى تضيفها
النظرة الاسلامية من منظورها الخاص الى هذه القضية الهائلة ،
حتى تتكامل أمامنا أو قل توشك ان تتكامل أمامنا أبعاد الصورة
التي تعكسها النظرة الاسلامية فى هذا المجال .

- ١٥ -

أول هذه الظواهر هو حرص القرآن العظيم محور الحركة
الاسلامية على استنبات مشاعر الحب والايثار فى أعماق المسلمين
عبر آياته وسوره القصار والطوال ، وصولا الى صهر المجتمع
القرآنى فى بوتقة واحدة يخرج منها فائز الحس ، متوهج النبض ،
موصول المشاعر بكل مشاعر الآخرين .. ان القرآن يضع أمامنا
فى هذا الصدد صورة حية للاحساس الجمعى ناطقة فى انسان
الوضعية الاسلامية الأول محمد عليه الصلاة والسلام : « لقد جاءكم
رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين

رعوف رحيم » .. « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .. « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ..
ان هذا التصوير الرائع لمعاناة الواحد الذى هو النبى العظيم من أجل الكل الذى هو الجمع الاسلامى يعكس صميمية الاحساس الجمعى كظاهرة من ظواهر فلسفة النظرة الاسلامية فى البناء الحضارى للانسان !!

- ١٦ -

الظاهرة الثانية : هى فلسفة الوحدة فى الاسلام ، بدءا من وحدة الخلق ، وانتهاء الى وحدة الخالق ، مرورا بوحدة متعددة .. وفى مجال وحدة الخلق يتعالى صوت القرآن : « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة » وفى مجال وحدة الخالق يتعالى هتافه الجليل : « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » وفى مجالات الوحدة الأخرى تتردد هذه الأصوات : « واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .. ان وحدة المنبع ، ووحدة المسيرة ، ووحدة المصير ، ووحدة الاله ، ووحدة النبى ، ووحدة الكتاب ، ووحدة القبلة ، ووحدة الهتاف .. كل أولئك جوانب من فلسفة الوحدة فى الاسلام ، وهى فلسفة حافزة الى استشعار قضية الاحساس الجمعى الذى يتألف شكله النهائى من مفردات هذه الفلسفة الشمولية الكبرى !!

- ١٧ -

الظاهرة الثالثة : هى اضاءة المسافات بين القاعدة والقيادة ، ان فلسفة النظرة الاسلامية فى هذا الصدد تنهض على ان القيادة اذا فقدت قاعدتها تصبح على الفور ورقة ذابلة معلقة فى الفراغ ..

واذا فقدت القاعدة قيادتها تصبح على الفور هي الأخرى قوة هائلة
تصب في محيط الضياع .. لابد من احساس جمعى يربط القائد
بجماهيره ، والجماهير بقائدها .. وهذا ما أعطى على صعيده محمد
العظيم أروع نماذج العطاء .. لقد قاتل الى جوار أصحابه ، ولقد
حفر معهم تحصيناتهم الدفاعية ، ولقد عاد مرضاهم ، ولقد واسى
حزانهم ، ولقد فرح لغبطة الهائنين .. وهم كذلك كانوا اله ما كان
لهم .. لقد افتدوه بالروح والمال والولد ، ولقد استقبلوا الموت
بعد موته كأنما يستقبلون أحلى المواعيد : (غدا ألقى الأحة ،
محمدًا وصحبه) !!

هذه بعض مشاغل اضاءة المسافات بين القائد النبى وجماهيره
المسلمة ، وهى قابلة بلا انتهاء لمزيد من التطبيق بين كل قيادة
مسلمة وبين جماهيرها الفاهمة ، حتى تمتلك الظاهرة عافيتها من
جديد ، وتعود لشجرة الحركة الاسلامية طاقة اخضرارها على
امتداد كل الفصول !!

- ١٨ -

وهكذا .. تتكامل فلسفة النظرة الاسلامية فى احتواء هذا
الاحساس الجمعى من وجهتها الذاتية المتفردة ، التى تستقطب
عديداً من الأساسيات الطبيعية عاملة فيها بمزيد من التعليق
والترشييد والتصويب ، مضيئة الى هذه الأساسيات من ثرائها الذاتى
ما به تتكامل الظاهرة ، وتتنامى، أبعاد مداها الوجودى ، وتترك على
جبهة التاريخ مساحات من الضوء المنهمر الذى يصنع للانسان
ملامح فجراه الواعد ، ويضىء له آماذ طريقه المروم بالاشواك !!

الكلمة من المنظور الاسلامى

- ١ -

ترى .. ماذا كان يمكن أن تكون هذه الحياة لو لم تكن
الكلمة ؟ أغلب الظن أنها كان يمكن أن تكون دمية خرساء تخمش
وجهها بيديها ، وتطمس فى أحداقها النور والدفء ومعنى أن تكون
ما هى الآن !!

فالكلمة هى الوسيلة الأولى لالتقاء الأفراد والأجناس على
معنى الزمالة والحب ، هى التى جمعت آدم الوجود بحوائه فبنيا
هذا الاجتماع الشاهق الذى نعيش نبضه وخفقاته حتى الآن ،
وتركا لنا منه هذا الكم الهائل من العواطف النظيفة المتعالية التى
تتوهج ذاتيا فى أعماق أعماقنا فتورق بالحب وتثمر ملايين الملايين
من أطفال الوجود .. وتتوهج ابداعيا فتعطى مثل هذا التاريخ
الفنى الذى نراه فى أدب العواطف الثرة منذ فجر الكتابة والرواية
حتى اليوم وهو تاريخ عظيم بكل المقاييس !! وهى التى أخرجت
الانسان من كهفه الأول حيث عاش فى هذا الكهف محاصرا بالخوف

من الأشياء والأحياء ، وحيث كان يتوهم في كل حركة عدوانا ،
وفى كل آخر عدوا ، وفى كل مظهر من مظاهر الكون قضية صماء
غير قابلة للفهم وغير قابلة للاحتواء ، فلما احتوى الكلمة بدد
غواشى الخوف ، وأدال فى نفسه للحب من العدوان ، وجعل من
مظاهر الكون قضية ناطقة بآلاف الأسرار والمعطيات ، فطور ذاته
ووجوده ، وأعطى الحياة امكانية أن تتفوق على نفسها أبدا ، وأن
تنمو فى كل الاتجاهات مزيدا من النمو ، وغير قليل من الاندفاع!!
وهى التى بنت الحضارة بالفهم ، وشيدت المدنية بالعلم ، وأحالت
صخر الوجود الى جنات بهذا اللقاء البشرى على معنى التعاون
وتبادل الخبرات ، أنت تعطينى فى هذا المجال وأنا أعطيك فى
هذا المجال ، ومن احتكاك هذه العطاءات المتكاملة تنبثق أعظم
خطوات التطور التقنى فى حياة البشر ، وتنبوأ الحضارة عرشها
السامق ، فتتدفق الحياة بالخير الناهض على العلم ، وبالحق المدعوم
بالفهم ، وبالجمال المؤطر بالحب ، ويصبح الوجود مثابة للناس
وأمننا ، وتتعاظم الجماهير أزهار السلام !!

- ٢ -

والكلمة هى ناقلة التراث الحضارى من جيل الى جيل ،
فياخذ الجيل الخالف من هذا التراث بقدر ما يحتاج وتحتاج
المرحلة التى يعيشها على الأرض ، ثم يضيف الى كم التراث الذى
احتواه الى نوعه معا ما تعين المرحلة على اضافته واعطائه ، واضعا
فى حساباته دائما أن الجيل الحاضر ينبغى أن يسلم الشعلة الى
الآتى وهى أروع ايماضا ، وأسطع توهجا ، وأضوأ ضوءا أو
مساحة ضوء اذا شئنا أن نقول !! وهنا لابد أن نفطن الى شئ
صميمى ، هو أن قضية التراث الحضارى التى تأخذ الكلمة على
عائقها عبء نقله وتطويره عبر آلاف من الأجيال ينبغى أن تفهم

على نحو صوابى ، فليست الحضارة هي حضارة الكلمة وحدها ، وليست هي حضارة المادة ثم لا شيء .. انها حضارة هذه الأنماط جميعها ، فالحضارة الفكرية ، والحضارة العلمية ، والحضارة الروحية ، والحضارة المادية ، تشكل جميعها حضارة واحدة بلا فصام ، أعنى ان حضارة واحدة من هذه الحضارات فى غياب الحضارات الأخرى لا يمكن أن تكون الحضارة الانسانية الراشدة والمأمولة ، وانما تظل تصرخ باحتياجها اللازم الى غيرها من الأنماط حتى تتكامل وتكتمل .. ان الفصام الجاهل بين حضارة المادة وحضارة الروح هو أفدح ما يعاني منه الفكر العقائدى ، ولو أننا وعينا جيدا معنى (خلافة) الانسان لله فى الأرض لما طاف بخيالنا يوما أن صداما من أى لون يمكن أن ينشأ بين حركة الروح وحركة المادة ، أو بين طبيعة الفكر المجرد وطبيعة العلم التطبيقى ، أن هذه المجالات المتكاملة تشكل فى نهاية المطاف معنى الحضارة فى نسقها الشمولى ، وهو ما تحمل الكلمة عبء التبشير به أولا ، ثم عبء الفتح به ثانيا ، ثم عبء نقله من جيل الى جيل آخر الأمر ، حتى تظل الشعلة باقية ومتوهجة ، ويظل المسار الانسانى مندفعاً فى عروجه ، محققا معنى وجوده على الأرض ، ناهضا بأعباء التطور ومتصديا للدفاع عنها حتى يسدل على ضوء الوجود آخر ستار ..

- ٣ -

والكلمة هي صلب كل الرسالات والأديان إودعوات المصلحين .. هي التوراة ، وهي الانجيل ، وهي القرآن ، وهي كل ما خلف الأنبياء والهداة والمصلحون على قمم الحياة من مشاعل فكرية مضيئة .. ان الفكر البشرى ليقف مذهولا اذا هو حاول أن يتسائل معطيات انجاز الكلمة من خلال القرآن والانجيل

والتوراة ، وما أحدثت هذه الكتب من تحولات تاريخية في الذهنية الانسانية من جهة ، وفي التطور الحضارى من جهة ثانية ، وفي شكل العلاقة القائمة بين الانسان والكون آخر الأمر . ان مضمون هذه الكتب السماوية وما ينحني عليه هذا المضمون من تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية وأخلاقية وعقائدية هو شكل من أشكال فعل السماء في الأرض ، والكلمة وحدها كانت حاملة هذا المضمون الالهى البشرى فى آن ، فأحدثت بذلك أعظم ثورة فى تاريخ المسيرة الانسانية ولا تزال . . . اننا مدينون للكلمة بشكل الحياة التى نعيشها اليوم ، وبشكل الحيات الأخرى التى عاشها والتى سيعيشها كذلك أسلافنا وأخلافنا بلا تحديد ، لان حيات السالفين فى نسقها الذى شكلته الكلمة كانت رافد حياتنا نحن، ولأن حيات الخالفين فى نسقها الذى ستشكله الكلمة كذلك ستكون امتداد حياتنا نحن ، وبهذه الصلة العضوية بين أنماط الحيات السالفة والآنية والخالفة ، يمكن أن نفهم مشروعية الكلمة وصميمية وجودها فى الوجود . . . لو اننا نحينا الكتب السماوية وامتدادها الفكرى والحضارى والعقائدى جانبا ونظرنا الى التطور الانسانى بغيرها ماذا كان يمكن أن يكون ؟ لعرفنا ان حجم الحصب الذى أعطته هذه الكتب هو بعينه حجم هذا التطور ، لان الانسان عاريا من حراسة القيم والقضايا والأساسيات التى جاءت بها الكتب السماوية لم يكن ليكون شيئا على الاطلاق . . ان حقول الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأخلاق والعقائد غاصة باشعاعات هذه الكتب ، وبدونها كان يمكن أن تظل جديبة قاحلة ، ترتد فى منطلقاتها ومصبباتها جميعا من النقيض الى النقيض ، لان من طبائع الأشياء أن ينسخ الفكر البشرى عطاء الفكر البشرى بلا توقف ، ربما ليفرض حلوله ، وربما ليرضى غروره ، وربما لينتصر لوجهة على وجهة ، وهكذا تظل قضية الاجتماع الانسانى ممزقة بين أطراف النقائض ، قابلة للضياع فى أبد الحوار . . ولكن هذه القضية نفسها

(أعنى قضية الاجتماع الانسانى) تظل فى ضوء التشريع السماوى على قرارها الأول ، فاتحة صدرها لمزيد من الحوار والحركة ، ولكن فى اطار من أساسياتها الثابتة وليس قفزا بالسوف على هذه الأساسيات .. وهكذا تستقر وتعتدل الموازين !!

- ٤ -

والكلمة حرة بطبيعة تكوينها البدئى ، أعنى انها لا تستمد حريتها من رافد خارجى ، فالسيف لا يستطيع أن يمنع الذهن الانسانى من تدوير الكلمات فى خاطره ، ان هذا الذهن الانسانى ليملك من الأجنحة ما يضرب به فى كل آفاق السماوات ، والذين يكبّلون الكلمة باسم هذه أو تلك من المواضع يخطئون أقدم خطأ ، لان من المواضع ما ينبغى على الكلمة أن تشهر فى وجهه السيف ، حتى حق الخطأ يجب أن نمحه للكلمة بلا خوف ، لان من الخطأ يتولد الصواب ، ولان رأى النقيض يعطيك من امكانية الحركة أضعاف ما يعطيك رأى الصديق ، ان رأى الصديق لا يزيد على أن يعطيك مزيدا من المسلمات ، ولكن رأى النقيض يعطيك امكانية فهمه ، وامكانية الحوار معه ، وامكانية احلال البديل .. ان الكلمة الحرة .. أو الكلمة الحرة ، هى التى وقفت فى وجه الطغيان فما استطاع أن يقتلع الجذور من الأرض ، وهى التى واجهت الارهاب فما استطاع أن يخرس الأصوات فى حومة الجدل ، وهى التى زاملت الانسان فى محنة تصديه لكل التجاوزات فخرج من كل أولئك ظافرا غير مقهور .. ولو أننا ألقينا نظرة على مسار الحركة الانسانية فى التاريخ لعرفنا أن انسان هذا التاريخ البطولى هو من كان يتعزى عن فقدانه حريته بالكلمة ، كان سقراط يستقبل الموت باسم تحت راية الكلمة ، وكانت الكلمة جناحيه اللذين يحلق بهما فوق السجن فى كل الفضاءات العريضة الملونة !!

- ٥ -

فى ضوء هذا المفهوم الشمولى للكلمة .. ما هى الكلمة اذن
من المنظور الاسلامى ؟ وما هى أبعادها الحقيقية من هذه الوجهة ؟
لابد أن نقرر منذ البدء انها كل هذه الأشياء التى أسلفنا ،
وشئ آخر يعطيها على الصعيد الاسلامى خصوصية بارزة ..
أعنى انها هى وسيلة الالتقاء بين الجنسين ..
وهى ناقلة التراث الحضارى ..
وهى صلب كل الرسائل والأديان ودعوات الإصلاح ..
وهى حرة بطبيعة تكوينها البدئى حتى لتمتزج بالحرية
امتزاجا وجوديا غير مبتوت ..
ثم هى (من المنظور الاسلامى) وضعية متميزة تحمل
خصائصها الدالة ، وملامحها الفارقة .

- ٦ -

ولعلنا من خلال استقصاء مقارب لورود الكلمة فى القرآن
من جهة ، ولتأمل طبيعة هذا الورود فى القرآن من جهة أخرى ،
نستطيع أن نضع تحت أعيننا ملامح الكلمة كحقيقة موضوعية
من المنظور الاسلامى ، وقد نستدرك على الفور ملاحظين ان ورود
الكلمة فى القرآن قد يجىء نصا وقد يجىء ضمنيا ، وهى من الوجهة
النصية أو من الوجهة الضمنية تعطى دائما حقيقتها ، وتضع لنفسها
ذاتية متفردة تكاد تجعلها عالما من الكمال الخاص الذى لا يندرج تحت
ما سواه مما عسى أن يكون هابطا أو خابطا أو عشوائيا ...
وربما نستدرك كذلك ملاحظين أن نبي الاسلام فى تحركه

بالكلمة وفى تحركه مع الكلمة يضع لها هو الآخر بوحى من القرآن شروطها التاريخية التى تجعل منها كيانا موضوعيا متفجرا بالحياة والحركة والنقاء واعتناق كل الكون ، والتناثى بها دائما عن أن تكون اطارا مجوفا بلا مضمون ، أو شعارا منفصلا فى حركة وجوده عن الواقع ، أو سلاحا تحتل الأشياء والمعانى والارتقاء بها فى ليل المجاهيل ..

- ٧ -

فالكلمة (كما يصورها القرآن الكريم) تلخيص لتراسل السماء والأرض فى بواكير الوجود لاستنقاذ أبى البشرية آدم عليه السلام : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » !!

وهى اجمال لفلسفة الاسلام كدين شمولى تكاملت حلقاته وتنامت : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » !!

وهى هتاف الانضواء تحت فهم كلى للحقائق الكبرى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » !!

وهى سلاح جمعى ذو حدين .. مضى ومعتم : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » !!

وهى بدء لا ينتهى ، ومداد لا يجف ؟ : « قل لو كان البحر

مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا
بمثله مددا « !!

وهي ميزان الحق وسيف العدالة : « ويحق الحق بكلماته ولو
كره المجرمون « !!

وهي طائر أبيض الجناحين قادر أبدا على اختراق الآفاق
والسماوات : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح
يرفعه « !!

وهي شيء مقدس يتسامى للانتماء اليه حتى الأنبياء :
« انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى
مريم « !!

الى مثل هذا الحد تتوهج (الكلمة) في القرآن العظيم الذي
هو الوعاء الحقيقي للمنظور الاسلامي فيما نعى بمصطلح المنظور،
وليس هذا كل ما ورد في القرآن الكريم من حديث عن الكلمة ،
وتحديد لمفهومها الحقيقي ، فلقد تحدث عنها في مواطن كثيرة من
حيث هي افضاء هادف أو من حيث هي افضاء غبي ، مرة بهذا
المنحى النصي المعجز الرائع ، ومرة أخرى عن طريق المنحى
الضمني الذي يضع الكلمة حرفا على شفاه البشر ، أو سلاحا في
أيديهم ، أو رسالة منوطة بهم .. « ولا تطع كل حلاف مهين ،
هماز مشاء بنميم « .. « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من
الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم
بعضا ، أياحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا
الله ان الله تواب رحيم « .. « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق
بنبا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم
نادمين « ... ان الكلمة هنا توشك أن تكون انسانها القائل ،
فاذا استحالت كذبا فانسانها هماز مشاء بنميم وهو أخلق

بالطرد والعصيان !! واذا اغتابت فانسانها آكل جيف ووحشى،
وهو واحد من الخارجين عن سواء الفطرة واطارها النظيف !! واذا
تسرعت فادانت بمجرد الظن ، فانسانها جاهل وهو أقمن قمين
بأن يظل عاضا على أصابع الندم !!

- ٨ -

ان هذه الحملة الضارية على سوء سلوك الكلمة تؤكد أن
الأبعاد المضيئة التي يضعها المنظور الاسلامى للكلمة لا يمكن أن
تكون أبعادا غير انسانية المنطق والقرار ، انها قد تكون وسيله
الحب الجامع بين آدم الوجود وحوائه ، ولكنها تضع هذا الحب على
مستوى النقاء وليس على مستوى العهارة ... وقد تكون ناقلة
التراث الحضارى ، ولكنها تنتخب من هذا التراث ما ينفع الناس
ويمكث فى الأرض وليس تحتطب كل ما تلقى بلا تفريق ...
وقد تكون صلب كل الرسالات والأديان ودعوات الاصلاح ،
ولكنها ترفض أن يحرف الدين عن أصله ، أو الرسالة عن مناطقها،
أو الدعوة عن تعلية الحياة ... وقد تكون حرة حرية قبلية ترجع
الى لحظة ميلادها البدئى ، ولكنها تضع هذه الحرية القبلية فى
اطار من التناغم الكلى مع الحقيقة الشاملة ، فلا ترضى أن يكون
جانب من القضية مضيئا بينما يزحف الظل على جانب آخر ...
وهذا هو الفرق .. ان الكلمة (من غير المنظور الاسلامى) تبهر
مع الحب حتى تلامس العهارة .. ومع التراث الحضارى حتى
تنحني لهذيان الرافضين .. ومع كل الأديان حتى تقدس المدخول
وغير السماوى .. ومع الحرية حتى تتأخم الفوضى وتلتحم بهما
بلا حدود .. أما من المنظور الاسلامى فانها تعرف كيف تضع
الأشياء فى مناطقها الحقيقية ، الحب بناء وليس تدليا ، والتراث
حضارة فهم وليس حضارة اعتباط ، والدين وحى الهى وليس

تحريفا بشريا ، والحرية التزام وليس تسببا بلا قوانين !! من هنا كان ترشيده النبي للكلمة موصولا وغير محدود ، وكانت أيضا حملته الضارية على كل ما يضع الكلمة في غير مناطها الطبيعي : « ألا أخبركم بأحبكم الى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة ؟ ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون - ألا أخبركم بأبغضكم الى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة ؟ الثرثارون المتفقهون » !! (لا يدخل الجنة نمام) !! (لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا ، فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر) !! (ان الرجل ليتكلم الكلمة لا يلقى اليها بالا يهوى بها فى النار سبعين خريفا) !! وهكذا تتواصل هتافات الترشيده والتحذير وتأطير الكلمة باطار من الطهر الذى لا يدنس نفسه ، حتى تكون الكلمة على مستوى أن تكون اطارا موضوعيا للقرآن الذى هو محور الحركة فى الاسلام بدءا وتناميا وانتهاء !!

- ٩ -

واذن .. فالكلمة (من المنظور الاسلامى) كلمة مسئولة ..

هى مسئولة عن تعلية التعبير عن كل ما يجيش فى أعماق البشر من هوائف الطبيعة ونوازع الضرورة ، وخوارج الوجدان .. لان تعلية التعبير هى المقدمة الحقيقية لتعلية الحقائق المعبر عنها !!

وهى مسئولة عن توظيف التراث الحضارى فى تطوير الحياة والاحياء ، وليس فى تدمير الحياة والاحياء ، ان التراث ليس صنما يتعبد له وثنيون ، ولكنه ايقاع فكرى وحضارى ينبغى أن يتنامى جانبه الرسمى ، وأن تتوارى جوابه الخرافية !!

وهى مسئلة عن الحفاظ على الرسالات والأديان فى إطار منطقها الالهى ، حتى لا يكون خلط بين ما هو أرضى محدود بطاقة البشر . وبين ما هو سماوى منتم الى وحى السماء ، فتكون فتنه على الأرض ، وتشتبك القوى المتعارضة فى صراع دموى يشبه من طبيعة هذا الجمال المخلوق الوادع القسمات !!

وهى مسئلة عن الحرية مسئوليتها عن وجودها البدئى ، لأن أى عصر عبودى يمكن أن يطفىء على الأرض كل المصاييح ، وأن يترك البشر فى فوضى من الذل والحرس واطراق الجباه ، وأن يمسح بيد البطش على كل التاريخ المضى الذى يشرى جوانب الكون ، ويطور نواميس الفهم لحقائق الأشياء !!

وهى مسئلة عن دوام التواصل بين السماء والأرض ، فبالكلمة نحن نتعبد لله ، وبالكلمة نحن نفهم عن كتابه الخالد ، وبالكلمة نحن نمدد من رقعة الضوء الايمانى فى كل المناخات !!

وهى مسئلة عن وجود وجودها نفسه ، فالكلمة تحيا فى الكلمة ، وانسان هذا الكون يرفض أن يحيا خارج خارطة الكلمة ، لانه يرفض أن يكون شيئا يضاف الى جبال الأشياء !!

ان (مسئلية الكلمة) تعكس فلسفة وضعيتها الفريدة الفذة (من المنظور الاسلامى) لانها تلقى على كاهلها عبء التزام عقائدى يضع الكون فى احداقه كأنه مسئول فيه عن خفقة الضوء ، ونبضة الحصب ، وحركة الفرد ، واندفاع المجموع ، وقيم الحضارة ، ونقاء التواصل ، وبنائية المقولات !!

هذه هى الكلمة (من المنظور الاسلامى) . . وهذا هو حجمها الهائل من هذه الوجهة . . فهل نستطيع أن نكون على مستوى الفروسية حين تكون الكلمة سيفاً ؟ أم اننا ما نزال نرى فى السيف مجرد حشيد من الأسماء تنام هامة على صدر قاموس من القواميس !!!

قضية الفكر الاسلامى بين المد والانحسار

من طبائع الأشياء أن تكون الحركة الفكرية فى طور لاحق أثرى من الحركة الفكرية فى طور سابق ، وتتأكد هذه الفرضية اذا كان مسار (الحياة العامة) - سياسيا واقتصاديا وحضاريا - متجها الى الأمام وليس الى الوراء ، فان بين حركة الفنز - على كل مستويات هذا الفكر - وبين أطر الحياة العامة أواصر واشجة تلهم وتستلهم فى جدل وجودى لا يكف عو المعاطاة !!

فاذا انتكست الحركة الفكرية فى طور لاحق عنها فى طور سابق مع تدفق الأطر الحياتية الأخرى فى اتجاهها الصاعد فلا بد ان تكون هناك خلفية فاجعة تحتم هذه الرجعة أو قل هذا البوار !!

والتأمل فى حركة (الفكر الاسلامى) يروعه ما يلاحظ من انحسار فاجع بلا تبرير ، مع توافر المتاحات الفكرية والعلمية والتقنية على مستوى لم يكن متاحا لكل المبدعين فى هذا الصدد قبل هذه السنوات الحسبية العجاف فى آن .. بمعنى أن جيل الرواد من أمثال طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل - وغيرهم - ما يزال هو الجيل الوحيد القادر على التحرك فى اتجاه تشكيل ملامح المرحلة ، واعطاء حركة الفكر الاسلامى أسلحة معاصرة ما تزال تقاتل بها حتى اليوم !!

لابد ان وراء هذه الظاهرة عوامل جذب وراثية تعيق من تقدم الفكر وتحد من إنطلاقه الى أرحب الآماد ، وفى رأى ان هذه العوامل ليست من النوع المادى الذى يمكن القبض عليه فى عفوية بادهة ، وانما هى على النقيض من ذلك تكاد تشكل قضية بذاتها تحتاج فى تأمل أبعادها الى دراسات واستقصاءات .. أعنى ان تأمل هوية العوامل الوراثية فى قضية الفكر الاسلامى ليس أقل.

خطورة وصميمة من تأمل قضية الفكر الاسلامي نفسها ، فان جانباً هائلاً من تعديل المسارات التاريخية يرجع بالضرورة الى فهم أسلحتنا المنتضاة في هذا الصدد ، والى فهم نوعية استعمالنا الصوابي لهذه الأسلحة المنتضاة ، والى تأمل فرضية الفشل الى جانب تأمل فرضية النجاح هكذا بلا تفريق .. ان الاندفاع المتحمس في طريق التفاؤل لن يجدي على الاطلاق ، وخير منه بملايين الأحجام ان نتوقع نقيضه حتى ندرب طاقاتنا على السبع في امواج الظلام وضد طبيعة التيار !!

ولست بقادر في هذه السطور على رصد كل الظاهرة واستقصاء كل عوامل جذبها الوراثي ، ولست أطمح هنسا الا الى لون من الاستنفار الحقيقي ، والدعوة الى تعبئة شاملة لتحريك جهودنا الفكرية على هذا الطريق ، تماما كما حاولت في دراستي لهوية « الأدب الاسلامي » ودراستي « للفكر الملحد » فيما يقرأ شبابنا من ابداعات مسرحية مترجمة .

القضية الآن هي بالتحديد : لماذا استطاع جيل الرواد ان يبدع لنا هذه الشوامخ : (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل .. و (الله) و (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) و (العبقريات) لعباس محمود العقاد .. و (مرآة الاسلام) و (على هامش السيرة) و (الفتنة الكبرى) للدكتور طه حسين .. و (فجر الاسلام) و (ضحى الاسلام) الخ .. لاحمد أمين ، وغيرها .. وغيرها .. ولم نستطع نحن الا على مستوى هامشي ان نضيف الى ما بذلوا ، أو حتى ان نواصل مسيرتهم الجادة المشقة على هذا الطريق ؟؟

ان معاناة بلا حدود يحسها الباحث المعاصر حين يتصدى لدراسة أكاديمية في هذا المجال ، لأن كل الجهود المبذولة الآن تعيش حالة على هذه الدراسات الرائدة ، وتكاد من فرط العجز

أو من فرط التأؤب لا أدري أن تضع مقاهيمها في اجترار مكزور
وذابل وبلید !!

لقد تصدى الدكتور حسين هيكل في (حياة محمد) لمقولات
هابطة حاصرت تاريخنا الاسلامي من شرق الأرض وغربها جميعا ،
وبعقلية رائعة ، ومنهجية أروع ، استطاع الرجل أن يحيل مناطق
الهجوم الى مناطق استسلام ، أو قل الى مناطق دفاع علي أهون
الفروض !!

ولقد تصدى العقاد في (عبقرية محمد) لمقولات أبشع
هبوطا حاولت أن تجعل من قائد الحركة الاسلامية مجرد فاتك
بالسيف ، أو مجرد عاشق للجماليات ، واستطاع العقاد أن يرسخ -
من منظور عقلي معاصر مستوعب - مسلمة أن هذا النبي القائد كان
وما يزال أعدل من قبض على حمائل سيف ، وأعف من نظر الى المرأة
في رحائب الوجود !!

ولقد تصدى أحمد أمين في سلسلة دراساته الفذة عن الحضارة
الاسلامية بمعناها المتكامل لمقولة الجذب الحضاري على مستوى
اسلامي ، واستطاع بجهود الباحث الباذل وعقلية العالم المثقف
أن يدلل من الباطل للحق ، وأن يضع الحضارة الاسلامية في مناطقها
الصوابي رافدة لكل الحضارات البازغة ومجددة لشباب كل
الحضارات الهرمة المتهرئة !!

ولقد تصدى الدكتور طه حسين في (على هامش السيرة)
لمقولات الجفاف في النمط الاسلامي . واستطاع من خلال تقنية
فاهمة أن يسكب الاخضرار في اعراق هذا النمط ، وأن يحيل كل
مسيرة الشخص الى نبض وجودي زاخر بانبل ما على الأرض من
عواطف البشر ، وبأروع ما في الوجود من هواتف الأرض الرانية
الى مناطقها في السماء !!

وتستطيع ان تقول ذلك فى ابداعات أخرى مما ابدع هذا الجيل الرائد العظيم ، الشئ الذى يرسب فى الأذهان قضية ان هذا الجيل الرائد كان يعرف من أى المنطلقات يبدأ زحفه الهائل ، والى أى الآماد ينتهى مساره الكبير . .

فلماذا اذن توقف الزحف ؟ ولماذا اذن انتهى بهذا الجيل هذا المسار ؟ لماذا لم يواصل الجيل الخالف اندفاعه المؤمن قابضا على حركة التصدى ، فاعلا فى حومة الحوار ؟

أكاد أزعج هنا ان الفارق الصميمى بين موقف كل من الجيلين : ان الجيل الرائد حين خرج الى القتال بالقلم فقد خرج بإيمانه بنفسه ، وبإيمانه بعقائديته ، وبإيمانه بروعة مواريثه الثاوية - لا يهم - فى بطون الكتب الصفراء !! فى حين خرج الجيل الخالف الى القتال بإيمانه المرتعش ، وبعقائديته المدخولة ، وبمزيد من الشك فى مواريثه ، والخجل من ان يقال انه قارئ كتب صفراء لا حمراء !! لقد انعكس هذا التسبب العقائدى والفكرى على موقف هذا الجيل الخالف فلم يستطع ان يصمد على جبهة المواجهة مقاتلا هاجما ، أو حتى مقاتلا على جبهة الدفاع !!

لا تقولوا : ان الزحف هنا يوشك ان يكون كاسحا بأفدح مما تعرض له الجيل الرائد تحت وطأة تفتح الفكر المهاجم على آفاق لم يكن يحلم بها فى قمة المرحلة الفائتة . . فان هذه المقولة مرفوضة من طرفين : الأول ان عرامة أى هجوم تقتضى بالضرورة استجابة دفاع أذكى وأقدر . . والثانى أننا ما نزال نقاتل هذا الهجوم الكاسح بفكر جيلنا الرائد ، وما يزال فكر هذا الجيل الرائد يقاتل لنا على كل الجبهات !!

ويوشك المتتبع لحركة الفكر الإسلامى من خلال أولئك الرواد أن يركز على أساسيات بارزة فى ابداعهم : فليقد كان بعض هذا

الابداع بمثابة (تفجير للينابيع) .. وكان بعضه بمثابة (تأصيل للمفاهيم) .. وكان بعضه بمثابة (طموح الى التنظير) .. وكان بعضه بمثابة (ارتفاق منهج نصي) .. وكان بعضه بمثابة (التجول الفني في حدائق العقائديات) .

ان (حياة محمد) لهيكل كانت خطوة على طريق (تفجير الينابيع) وكانت (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) للعقاد وأعمال أحمد أمين الاسلامية خطوة على طريق (تأصيل المفاهيم) وكانت دراسة العقاد الفذة عن (الله) خطوة على طريق الطموح الى خلق (نظرية اسلامية) في هذا المجال .. وكانت (مرآة الاسلام) لطف حسين خطوة على طريق احتواء (المنهج النصي) .. وكانت (على هامش السيرة) لطف حسين خطوة على طريق (التجول بالفن في حدائق العقائديات) !!

وهنا استطيع ان أزعج ان ابداع هؤلاء الرواد لم يسكن حركة بوح يستريح من معاناته الكاتب بنفته كلمات في سطور ، وانما كان حركة فكر ريادي يتكئ في اندفاعه على حس تكاملي كان يسيطر على حركة أولئك الرواد في حركة ابداعهم الفكري والفني ، بمعنى ان كل واحد منهم كان صوتا لا يريد لنفسه ان يكون صوتا مكرورا ، ولا صدى لصوت مفرد أو مكرور ، وبهذا الحس المغامر الطموح استطاع جميعهم ان يشكلوا هذه الدائرة المتكاملة التي يفضي أولها الى آخرها بلا انشاز ، فحين نرى اتجاهها الى تفجير الينابيع هنا ، نرى الى جوارها اتجاهها الى تأصيل المفاهيم هناك ، وحين نرى غير بعيد ملامح اتجاه الى محاولة التنظير نرى غير بعيد كذلك اتجاهها الى اعتماد المنهج النصي ، وحين نرى ميلا هادفا الى التجول الفني في رحائب العقائديات نحس بان هذا المتجه يأتي لتمام دائرة لا تتم في غيابه الى الاطلاق .. وهكذا تنتهي الدائرة الى تفرد بارز من

ناحية ، والى تكامل رائع من ناحية أخرى ، ولا تكون قضية المبدع هنا أن ينوع على لحن أساسي غامر بإبتكاره سواء، وإنما تكون قضيته ان يبحث في المداد الفكري والفني عن مناطق البكارة والأمل الصميمي في اضافة لبنة الى جدار الواقع العقائدي حتى ينهض الجدار ويتشامخ البناء !!

ولست في حاجة الى شجب الجانب الآخر أو الدعوة الى شجبه ، أعني انني لست في حاجة الى ادانة الجيل الخالف الذي يتحرك بالفكر والفن في مناطق النفوذ التي أفرغت امعاءها تماما .. لقد شهدت المرحلة الأخيرة موجات من « الدعاية » الفكرية للقضية العقائدية مكرورة بلا ملال ، ومقلدة بلا حياة ، وتافهة بلا قرار .. ولم نلمح من خلال كل هذا اللجب قضية واحدة قادرة على البقاء ، ولا دراسة واحدة يمكن ان تضيف الى ضمير العصر أبعادا جديدة تثري حركة الفكر فيه أو حتى حركة الحوار !!

ان يكون الجيل الرائد مفجرا للينابيع .. مؤصلا للمفاهيم .. طموحا الى التنظير .. مقترحا مناهج متعددة .. ومتجولا - على مستوى فني - في حداثق العقائديات .. فان هذا كله يعطى هذا الجيل جدارة التمدد في أحلال الأبد ، وجدارة التخطي للملابس السدود !!

وأن يكون الجيل الخالف عاجزا بقدرية فادحة عن مجرد العطاء في أي من هذه المنطلقات - فكريا وفنيا - فان هذا كله يعطيه جدارة السقوط الفادح تحت سنايك التاريخ .

أعلم ان جهودا بذلت - على مستوى الجيل الخالف - في كل من هذه المجالات ، ولكنني لست عن مجرد الجهد المبذول أبحث ، فقضييتي أوغل تجذيرا في تربة الواقع الفكري من مجرد الحركة أو مجرد الدوار .. وأوشك ان أجزم بأن محاولات مستحثة قد

بذلت بالفعل وهي ليست قريبة الغور في هذا المجال ، ولكنها في النهاية تبقى محاولات مفردة تفتقر الى ما يعاونها على تكامل الدورة ، وانسياب البعض في حركة الكل الكبير من هذه المحاولات - مثلا - بعض جهود مالك بن نبي في الجزائر .. وبعض جهود نديم الجسر في لبنان .. وبعض جهود محمد البهي في مصر .. وهي محاولات موفقه وغيورة وطموحة من غير شك ، ولكنها كما قلت لا تركز في تمامها على حس تكاملي يفضي في النهاية الى ظاهرة بارزة التمام !! لقد كان من الممكن ان يشكل الفكر الاسلامي بمتاحاته المعاصرة حركة أروع من الحركة الرائدة ، وثورة أشمل من كل ثورات الفكر الاسلامي عبر كل العصور ، ولكنه - فيما يخيل الى - فكر قانع ومستسلم ، وغير باحث عن حركة الكدح أو حركة المعاناة ، أو قل أنه فكر غير قابض على قناعاته النهائية ، بما هو عاجز عن ديمومة الحوار مع فكر المراحل غابرها ومعاصرها على السواء !!

وحتى لا انتهى الى مجرد التشنيج أو الى مجرد الصراخ .. فأنتني أود أن أوجه من هنا دعوة الى مفكرى الحركة الاسلامية على امتداد الرقعة التي يتقاسمون فوقها خبز العصر وهواءه : أن يتلاقوا على كلمة سواء ، وأن يتدارسوا امكانية العطاء المتكامل ، وأن يتصدوا للقضايا الصنمية وليس للقضايا القشرية ، وأن يحركوا اقلامهم في اتجاه الحياة وليس في اتجاه الموت ، وأن يكون حاضر الجيل ومستقبله وهمومه المثقفة هي محور اهتماماتهم الحقيقية ، وأن يهيلوا تلالا من الرمال على الاحساس الفاجع باقليمية

الحركة واقليمية الفكر ، فإن جناح الاسلام يغطي حتى الآفاق غير
المنظورة في هذا الكون اللامتناهي الى آمام ، وأن يقاتلوا .. أو
يستسلموا .. فلسنا في حاجة الى نائحين مأجورين .. والحركة
المسلمة بعد قدرة على انتخاب عناصرها القادرة حتى من تحت اطباق
الظلام !! والأفق ممتد .. والسواعد هائلة .. والنداءات بحجم ما
بين الأرض والسماء !!

دراسات قرآنية

الاعجاز القرآنى . . فى فكر المعاصرين

- ١ -

المدخل الطبيعى للحديث عن قضية من القضايا هو استقراء تاريخ هذه القضية ، خاصة اذا كان لهذا التاريخ من الامتداد الزمانى ما يتيح للباحث أن يتجول فى ابهائه ، وأن يرجع فى نهاية الرحلة بحصاد هائل العطاء !

والاعجاز القرآنى قضية كانت لها فى فكرنا الترائى دوائر تتراحب بتراحب المد الثقافى ، وكانت تستقطب من جهود عمالقة المفكرين مساحة تعكس ضخامة الاحساس بصميمية هذه القضية ، وجلال ما تنحنى عليه من معطيات عقائدية وفكرية وفلسفية وبلاغية !

ان تاريخ هذه القضية - ككل التواريخ - لم يبدأ منظماً ولا جارياً على منهج اكاديمى - اذا جاز أن نستعمل هذا المصطلح فى هذا المجال - وانما بدأ منشوراً فى أقوال العرب وآرائهم واستدلالاتهم ، يشكل يوحى بأن مخاضاً من لون ما كان يتخالج الفكر الابداعى فى هذه المراحل ، وان تاريخ الفكر كان يتهاى لاستقبال وافد جديد لم يلبث أن تخلق وتكامل واعطى كنوزه ،

واستحال في حركة الخلق الابداعي الى تيار زاخر باضافاته الفكرية والفنية والعقائدية والمنهجية !

ثم بدأت الظاهرة تأخذ شكلها الأكاديمي ، على تجوز في التعبير هنا (على الأقل في مطالع الحركة) فقد كتب أبو عبيدة كتابه (المجاز) باحثا في أسلوب القرآن بعرضه على أساليب العرب ... ثم كتب الجاحظ (م ٢٢٥) كتابه (نظم القرآن) جاهدا في الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعان كما يقول ... ثم كتب أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (م ٣٠٦) كتابه (اعجاز القرآن) وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحا كبيرا سماه المعتضد ، وشرحا أصغر منه ، يقول الرافعي : (ولا نظن الواسطي بنى الا على ما ابتداه الجاحظ ، كما بنى عبد القاهر في (دلائل الاعجاز) على الواسطي) - اعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٣ - ، : ثم وضع أبو عيسى الرمانى (م ٣٨٢) كتابه في الاعجاز مركزا على أن القرآن معجز ببلاغته ... ثم وضع الخطابي (م ٣٨٥) كتابه (اعجاز القرآن) مبينا أن وجه الاعجاز هنا هو استقطاب القرآن للحدود الثلاثة : اللفظ والمعنى والنظم ، ثم ما للقرآن من أثر نفسي لا تملك معه القلوب الا وجيب الاذعان والانبهار ... ثم كتب الباقلاني (م ٤٠٣) كتابه (اعجاز القرآن) موضحا تفرد الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب الشعرية والنثرية والسجعية ... ثم كتب ابن سنان الحفاجي (م ٤٦٦) كتابه (سر الفصاحة) وتعرض فيه (للاعجاز) من وجهين : خرق القرآن للعادة بفصاحته ، وصرف العرب عن معارضته ، ثم كتب عبد القاهر الجرجاني (م ٤٧١ وقيل ٤٧٤) كتابه (دلائل الاعجاز) وقد عالج فيه موضوع الاعجاز نظما وتأليفا كجزء من ظاهرة اشمل هي طريقة نظم البيان عامة ... ثم تتابعت التفاسير وكلها يقف من الاعجاز موقف الدارس المستنبط وان اختلفت مناحي النظر وتعددت زوايا الرؤية بين الواحد والآخر من هذه التفاسير !!

هذا تخطيط عريض للمسار التاريخي القديم لحركة الإبداع
الفكري في موضوع (الإعجاز القرآني) قد ينقصها الشمول
ولكنها دالة على نحو من الإنحاء ، وقد يعوزها الاستبطان ولكنها
موجية بشكل أو بآخر ، فماذا عن المسار التاريخي لنفس هذه
الحركة من الوجهة المعاصرة ، وهو الموضوع الأساسي الذي
تتحرك في اتجاهه هذه السطور ؟

ربما كانت صيحة جمال الدين الأفغاني في أواخر القرن
التاسع عشر بداية المعاصرة ، في الحديث عن قضية الإعجاز
ولقد تلقف الراية من بعده الشيخ محمد عبده فأعطى عطاء ثاقبا
من خلال دروسه التي سجلها الشيخ محمد رشيد رضا وجمعها
وزاد عليها في : (تفسير المنار) .

ثم تتابعت الجهود وتدفق تيار الحركة الإبداعية مما
يصعب معه استقصاء هذا الكم الهائل من الأسماء والأعمال ،
ولكن هذه الصعوبة في الاستقصاء لا يمكن أن تصرف الباحث
في هذا الصدد عن محاولة استقصاء الملامح العامة التي تتسم
بها محاولات هؤلاء ، أو قل عن محاولة استقصاء أبرز القضايا
التي طرحها الفكر المعاصر في حوارهِ الجاد حول قضية الإعجاز .

وعلى نحو مقارب نستطيع أن نقول أن جهود الفكر المعاصر
في حوارهِ حول قضية الإعجاز القرآني قد أبرزت عديدا من
القضايا الأساسية التي يزورها محورا لهذا الإعجاز هي على وجه
التقريب :

* توثيق التواريخ الغابرة ، وإبراز الحكم والمواعظ
والآداب ، واحتياز قمة البلاغة ، والاختصار بالفيب - (محمد
عبده) (١٥)

* غلبة الروحانية القرآنية التي لا تقاوم - (فريد وجدي).

* البيان والجمال ، واقناع العقل ، وامتاع العاطفة ،
وخطاب العامة والخاصة ، والقصد في اللفظ مع الوفاء بحق
المعنى ، والتآلف الصوتي - (محمد عبد الله دراز ! .

* الافاضة التاريخية فيما يجهل العرب من انباء ،
ومراعاة الاسلوب العلمى والمنطقى والنفسى - (عبد الله عفيفي) .

* اعجاز الاسلوب والمعاني والتشريع والمعارف - (محمود
شلتوت) .

* الاعجاز التاريخى والانسانى والحقائقى للقرآن من
حيث هو كلام عربى هزم التحدى والمعارضة ، وكان ينظمه -
حروفا وكلمات وجملا وأصواتا وتراكيب وبلاغة قولية ونفسية
واحكاما للسياسات المنطقية - أروع نمط معجز يتأبى على كل
محاولات المماثلة أو المقاربة - (مصطفى صادق الرافعى ! .

* الاسلوب البيانى من حيث هو طراز فريد فى أدائه
وصوابيته وطرائق امتلاكه الفذ لعناصر الغلبة الابداعية على كل
المستويات - (سيد قطب وامين الخولى وينت الشاطىء) .

هذه - على نحو مقارب كما أسلفنا - هى أبرز القضايا
الصميمية التى دار حولها حوار هذا الفكر المعاصر فى قضية الاعجاز،
وربما تكون هناك أو على وجه التأكيد لابد أن تكون هناك قضايا
صميمية أخرى قد استقطبها حوار هذا الفكر المعاصر فى هذا
المجال ، والاستقصاء بالضرورة أهدى من الانتقاء ، ولكنه - أعنى
الاستقصاء - ليس هدف هذه الكلمات الراضية ، بقدر ما تبرز
عملية التركيز على أهم القضايا المثارة بالفعل هدفا صميميا لهذه
الكلمات فى هذه السطور !!

اننا اذ ننتهى الى قناعة ان هذه القضايا المثارة هى بالفعل اهم ما يشغل الفكر المعاصر فى بحثه الكادح حول قضية الاعجاز، نجد انه من غير الصوابى ان نمر عليها هكذا مروراً عابراً غير متأمل ولا دارس ، ولكننا كذلك نزع ان ليس فى طوق مثل هذه السطور الواثبة ان تتأمل بالدرس كل جوانب الموضوع ، ولا ان تلم الماما شاملاً بكل عناصره ومفرداته .. يبقى اذن ان نختار فكراً معاصراً أبدع فى هذا الصدد على مستوى شمولي يجمع بين الاكباب على مفردات النظر الموضوعي من جهة ، والاكباب على مفردات النظر التأثري من جهة أخرى ، فربما كان فى ذلك وحده ما يمكن ان يضىء كل جوانب الموضوع اضاءة أعرف انها ستكون هاشية ، ولكنى أعرف كذلك انها ستكون الى مدى ما اضاءة كلية على نحو من الانحاء ، ان الاختيار هنا صعب بلا حدود ، ولكننا محكومون بضرورته ، وحين نختار رجلاً كالدكتور طه حسين ليمثل الفكر المعاصر الذى أبدع فى هذا المجال من هذا المنظور ، فائنا نختاره على ضوء من قناعتنا بأن ما كتبه فى الجزء الذى خصصه لقضية الاعجاز من كتابه (مرآة الاسلام) يثير من القضايا النظرية والتطبيقية ما يصلح ان يكون أساساً لحوار فكرى معاصر يضع القضية كلها على مستوى الجدل الفاعل بدلاً من تأمل وجهها السكوني فى تراث الغابرين .. وأنا نلرجو ان نوفق فى النهاية الى تبرير هذه القناعات !!

- ٢ -

فى محاولة العرض والتحليل التى ينهض بها الباحث لاستبطان آراء الدكتور طه حسين فى قضية (الاعجاز القرآني) يتبغى أن يتسلح الباحث بيقظة عارمة فيفرق بين ما هو

موضوعى وما هو ذاتى ، لأن الدكتور طه حسين يقف من القضية موقفا عقلانيا وموقفا فنيا معا ، ولسنا بالطبع نقصد من هذا التقسيم البدئى الى لون من ألوان التفريق الحاسم بين ما هو عقلانى وما هو فنى ، فان كل اشكال التعبير تفضى فى النهاية الى نوع من التقارض أو المعاطاة ، أن فكرة الحائط العازل ليست فى فكر هذه الدراسة ، وانما هو لون من التحديد المساعد على تأمل طبائع الانواع !!

يذهب الدكتور طه حسين الى أن القرآن ليس (من الوجهة الشكلية) شعرا كهذا الشعر الذى يضطرب فى أغلال باهظة من أوزانه وقوافيه وأعاريضه .. وهو (من الوجهة الموضوعية) ليس شعرا كذلك ، يوغل فى فدائد الخيال وينحنى على موضوعات تهرات كالمذبح والفخر والغزل والرثاء والهجاء والبكاء على الاطلال والحنين الى الاحبة ووصف الصحراء والابل والحيوان وهذه الأشياء التى يفص بها ديوان الشعر العربى .

ويرى الدكتور طه حسين أن هذه الجمالية الشعرية الفارغة من الوجهتين : الشكلية والموضوعية لم تكن لتكون أسلوب القرآن فى ظاهر أو باطن ، لأن القرآن ليس تلهية ساذجة يتقاذفها أغرار يولعون بالشعر ، وانما هو ثورة انقلابية كاملة فى المفاهيم والانماط ، فحديثه عن التوحيد والشرك ، عن الله والانسان ، عن السماء والأرض ، عن الدنيا والآخرة ، عن الرغب والرهب ، عن الرحمة والعذاب ، عن الغيب والشهادة .. كان بمثابة تفجير هائل الدوى فى عالم تحكمه لزوجة منحدره ، تبدأ من عناق الشعر وتنتهى الى عناق الحجر ربا وديانا !!

ويتأمل الدكتور طه حسين نوعية العلاقة بين النبى العظيم الذى حمل هذا القرآن للناس وبين مناوئى الحركة الاسلامية

من اليهود والنصارى ، فمحمد رجل من قريش لم يجلس الى معلم ، ولم يقرأ الهجاء أو يكتب ، ومع ذلك فقد كان يجادل اليهود في التوراة ، والنصارى في الانجيل ، وكان يعرض مواقف الزيف في تحريف الكلم عن مواضعه ، والكتب عن غاياتها ونواميسها الالهية المرادة ، وكان يتصدى لمشركي قريش محقرا لوضعية انحائهم الذاهل تحت أقدام ارتفاعات حجرية صماء يسمونها آلهة !! فأين كان محمد من كل هذا الفعل البطولى الخارق لو لم يكن حاملا في أعماقه وتحت أهدابه كلمات الوحي التى تكاملت قرآنا لم يجيء هادما لناموس سابق عليه ، وانما جاء مصدقا لما بين يديه ومضيفا اليه !!

ولأن القرآن جاء متما ومصححا فان الدكتور طه حسين يستشف من خلال هذه الوضعية أن هذه الصلة العضوية بالواقع الحيوى حددت نوعية هذا البيان الالهى ، فهو لم يجيء بشريعة شلاء تضرب في فراغات الخيال ، وانما جاء بشريعة حميمة تضرب في احشاء الواقع البشرى والكونى بما تنظمه من عبادات ومعاملات على المستويين : الفردى والجمعى ، الجنسى والأسمى . . ومع كل هذا التشابك الحميم بالواقع الحيوى فقد كان القرآن قادرا باستمرار على ربط كل هذه التشريعات ببقظة الحس البشرى الربانى ، بمعنى انه خلق المعادلة الصوابية بتحضير الله رقابة دائمة لا تنفك في ضمائر ووجدانات البشر . . وهكذا يتعالى الأرضى حتى يسامت السماء بقانون الاعجاز الكامن فى حركة الجدل بين ما هو من هنا وما هو من هناك !!

ويدين الدكتور طه حسين كل ردود الفعل القاصرة امام هذا الاعجاز الكاسح المقتدر ، لقد اتهمت قريش محمدا وقرآنه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ولكن محمدا وقرآنه كانا أقوى ،

فلما لم تفلح هذه الردود القاصرة لجئوا مرة أخرى الى الحوار بالصراع العضلي تدبيلًا بواقع مادي على افلاس ملكاتهم الابداعية وقوانينهم الاقناعية ، وهذه هي قمة الاحباط !!

وبذكاء ناقد يرى الدكتور طه حسين ان لونا من الاعجاز القرآني يكمن في قضية أن محمدا يشد هكذا الى ضرورة التبليغ وسط هذا الخضم المائج من العداوة المناوئة ، والضراوة الظامئة ، أن الـهية القرآن تنطق هنا بلسان من الفداذة المعجزة ، بأن نبي هذا القرآن على مستوى من الفداذة المعجزة ، وأيضا فان محمدا كان يجابه نداءات أضري واعتى ، فلقد طولب غير مرة بأن ينشئ لنفسه جنة من نخيل وعنب ويفجر الانهار خلالها تفجيرا ، وأن يأتيهم بالله والملائكة قبلا ، وأن يسقط السماء عليهم كسفا ، وأن يرقى في السماء ويأتيهم بكتاب يقرءونه ، وأن يجعل لنفسه بيتا من زخرف ، وأن ينزل عليهم من السماء كنوزا .. ولكن محمدا كان في مواجهة هذه النداءات الفاجعة لا يملك الا أن يجهش بكلماته الواضحة المضيئة : « قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » !!

وينتقل الدكتور طه حسين الى الأسلوب الادائي للقرآن فيتبين ان هذا الأسلوب الادائي كان وجهها فذا من وجوه اعجازه الخالد ، فهو ليس شعرا مكبلا بأوزان الشعر وقوافيه وأنشائية وهو ليس نثرا كذلك يجرى على قوانين هذا النثر البشري سائبا هكذا بلا ضابط ايقاعي يحكم وقفاته أو اندفاعاته ، وانما هو (كما يقول الدكتور طه حسين) - : (آيات مفصلة لها مزاجها الخاص في الاتصال والانفصال ، وفي الطول والقصر ، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف ، تتلو بعض سورته فاذا أنت مضطر في تلاوتها الى الأناة والتمهل لأنها فصلت في ريث ومهل لاداء معان تحتاج الى البسط والريث ، كالتشريع مثلا ، ووصف ما كان يثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع ،

وتتلو بعض سورته الأخرى فإذا أنت مضطر إلى شيء من السرعة لأنها تؤدي معاني يحتاج أدائها إلى القوة والعنف ، قد فصلت آياتها قصارا ملتزمة الفواصل ، تقرأها فكأنك تنحدر من عل ، وذلك حين يخوف الله عباده ويشد في تخويفهم فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج (- مرآة الإسلام ص ١٤٩ - ١٥٠ - ويحيل الدكتور طه حسين على سورتي الشعراء والقصص) لنذكر أن السياق في الثانية يميل إلى كثير من الريث والهدوء والمهل ، وأن السياق في الأولى يميل إلى كثير من السرعة والقوة والقصر لأنك في القص محتاج إلى تأمل هادئ لمفردات الواقع القصصى ، ولأنك في مجال التنظير غير محتاج إلا إلى إيقاعات خاطفة تعطى إيجاءها وتصير !!

ويحذق الدكتور طه حسين في طبيعة العناصر المكونة للأسلوب الأدائى للقرآن ، ويرى أن إعجاز هذا الأسلوب الأدائى متمثل في جمال اللفظ ، ورصانة السياق ، واحكام النظام ، وروعة الصيرورة من معنى إلى معنى ومن موطن إلى موطن بحيث لا يملك حتى المعاند العقلى إلا أن يثظامن شعوريا أمام هذا الإعجاز فيؤمن قلبه حتى وهو كافر بلسانه .. أن هذا الإعجاز يمتد ليشمل المعرقين فى العربية والشادين بالعربية والمنبتين عن العربية .. أن أعرق الأجيال فى فهم العربية لم تملك إلا الانحناء أمام روعة الاداء الاسلوبى فى القرآن ، وأن أجيالا أخرى ليست على هذا المستوى المعرق فى فهم العربية لم تملك هى الأخرى غير اليقين الجازم بأن هذا الكلام ليس ككل كلام تسمعه أو تقرأه ، أنه يستقر فى أخلادهم مختلفا على نحو من الانحاء ، وأن أجيالا ليس بينها وبين العربية سبب لم تملك حين قرأت وسمعت القرآن أن آمنت وأذغنت واستمتعت إلى مدى بعيد :
! ونحن نعلم أن أروع البيان وأبرعه وأعلاه درجة فى الحسن إنما

يروع من يقرؤه أو يسمعه من أصحاب اللغة التي انشأ فيها ،
فاذا تجاوزهم الى غيرهم من الامم فقد كثيرا من روعته ،
ولا كذلك القرآن حين يقرؤه أو يسمعه من لم ينشأ تنشئاً
عربياً ، بل هو يحتفظ بروعته على اختلاف الأزمنة والامكنة
وأجيال الناس) - مرآة الاسلام ص ١٥٢ - ١٥٣ .

ويلاحظ الدكتور طه حسين بحق ان وجهها من وجوه
الاعجاز يتألق في اقتدار القرآن على تحويل التاريخ وتصيير
البشر .. اذ ان هذا التاريخ كان تاريخاً للظلم والجهل والقهر
والتخلف ، فأصبح بالقرآن تاريخاً للعدالة والعلم والاخاء والتقدم ،
لقد أعطى القرآن الحضارة للتاريخ !! وكان البشر - في هذه
الامة - بشراً متناوئين متدابرين متقاطعين لا يدينون بغير السيف
والدم ، فأصبحوا بالقرآن اخوة متعاطفين متضامنين لا يدينون بغير
السلام والحب ، لقد أعطى القرآن الحب للعلاقات !! وهكذا يقف
القرآن وحده من وراء هذا التحول التاريخي والحضاري للانسان
واطاره الوجودي الذي هو الحياة !!

ويحرص الدكتور طه حسين على توثيق قضية الاعجاز من
خلال دراسة هادئة حول طبيعة النص القرآني من حيث النزول
والجمع والنسخ في المصاحف والتواتر ، فيقرر ان القرآن قد نزل
منجماً لانه لو نزل جملة لما اطاقه القوم ، وكان ماينزل منه يكتب
في اثر تنزيله ، ثم جمع في ايام ابي بكر ونسخ في المصاحف وأرسل
الى الامصار ايام عثمان ، وتواتر مسموعاً ومكتوباً فهو فوق الشك
وفوق الجدل ، ربما تختلف قراءات المسلمين له مداً وقصراً وامالةً
واطلاقاً . ولكن سبعا من هذه القراءات تواترت واجمعت عليها
الامة ، ولا بأس منها على النص لا في لفظه ولا في معناه : (وقد
رتب القرآن - كما هو بين ايدينا - سوراً منذ ايام النبي ، وقدمت
في المصحف طوال السور على اوساطها ، واوساطها على قصارها ،
ولم يراع في هذا الترتيب نزول السور والآيات في مكة أو في

المدينة ، ولا تاريخ نزول الآيات ، وإنما وضعت الآيات حيث كان النبي يأمر أن توضع السور ، ونحن نجد البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في أول المصحف بعد الفاتحة مع أنها مدنية ، ونجد الأنفال والتوبة - وهما مدنيتان - بين سور مكية ، وربما وجدنا في السورة المدنية آيات أنزلت بمكة ، وفي السورة المكية آيات أنزلت بالمدينة ، ذلك أن هذا الترتيب حسب مكان النزول وزمانه لم يراع ، وإنما القرآن واحد جاء كله من عند الله وتلاه النبي على المسلمين كله كما أنزل . . . وقد بين الرواة الأولون والعلماء من بعدهم أماكن نزول الآيات والسور وتاريخها ، وحاول بعض المستشرقين أن يرتب القرآن حسب تاريخ نزول السور فلم يصنعوا شيئاً ، وترجم القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية أحياناً على هذا الترتيب التاريخي فكان هذا النحو من الترجمة والترتيب عبثاً لا يدل على شيء ، وإنما ينأى عما ألف المسلمون من الترتيب المعروف في المصحف (- مرة الاسلام ص ١٥٤ - ١٥٥ .

ويلحظ الدكتور طه حسين لونا آخر من الإعجاز القرآني يتمثل في اطراد الاستنباطات العلمية غير المحدودة التي استنبطها المسلمون من القرآن : في الشريعة ، والتاريخ ، والتفسير ، واللغة ، والنحو ، والقراءات ، واللهجات ، والبلاغة ، والفلسفة . . وما تزال كنوزه العلمية قابلة لمزيد من الكشف والاستنباطات . . أجل لقد فجر القرآن ثورة جدل علمي خارقة ، وليس بين الأجناس القولية ما نستطيع أن نزعم أنه قد استقطب من اهتمامات الباحثين على كل الأصعدة بمثل ما استقطب القرآن ، وليس هناك نص يعرف له ما يعرف للقرآن من حفظ واستظهار وتأمل وشرح ، وليس في التراث الإنساني كله شيء كالقرآن يقوم الألسنة العربية حين تلتوى بها اللهجات العامية المختلفة ، والأجنبية حين تلتوى بلغاتها المتباينة !

ويستطرد الدكتور طه حسين ليلمس قضية الاعجاز من وجهة أخرى ، هي قيام القرآن بالحفاظ التاريخي الذي لا ينتهي على اللغة العربية التي نزل بها ، والتي استهدفت حملات ضارية وما توال تستهدف لأضرى من هذه الحملات ، ومع ذلك فهي باقية بقاء الطود الأشم في مواجهة كل الأعاصير : (والقرآن بعد هذا كله هو الذي حفظ اللغة العربية أن تذوب في اللغات الأجنبية التي تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة في عصور كثيرة وظروف مختلفة ، فبقد تفرقت كلمة المسلمين في السياسة وانحلت الخلافة العربية القديمة وخضع العرب لاستعمار الأعاجم ، حكمهم الفرس في دار الخلافة نفسها أولا ، وحكمهم الترك بعد ذلك قرونا متصلة ، وجاء العصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبي الأوربي يقهرهم بالاستعمار والحكم المباشر لهم ، ويقهرهم مرة أخرى بالتفوق في الحضارة المادية والمعنوية جميعا ويضطرهم الى أن يتعلموا اللغات الأوروبية ارضاء لحكامهم من الأوروبيين والتماسا لما في هذه اللغات من علم وأدب وفلسفة وفن ، وكان هذا كله جديرا ان يحق اللغة العربية محقا ، ويذهب شخصية الشعوب العربية ، ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع ، وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها ، حرص العرب على القرآن لانه يحفظ عليهم دينهم ، ولانه قوام حياتهم ، فقرأه عامتهم وخاصتهم وحفظوا منه القليل والكثير ، ودرسه علماءهم في المساجد والمدارس ، واختلف اليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والازمنة ، واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه في نعمتي ان يدرسوا اللغة التي أنزل بها . . وأكثر من ذلك أن بعض الأمم الإسلامية التي خضعت لسلطان العرب في وقت مضى طوت قلوبها على بغض العرب والعروبة وأذتهم حين استطاعت ايداء شديدا ، ولكنها على رغمها احتفظت بالقرآن لمكان الاسلام منها أو لمكانها من الاسلام فدرست القرآن ، ودرست لغته العربية - مرآة الاسلام ص ١٦٠ - ١٦١ .

ثم يشير الدكتور طه حسين الى ان اختلاف مذاهب القول في القرآن دليل قوى من دلائل الاعجاز ، فللقرآن وحدته من حيث هو يدعو دائما الى اصول معينة ، فلا غرابة في أن تختلف مذاهب القوم باختلاف ما تنحني عليه هذه الاصول من مفردات يذهب كل قوم في تفسيرها وتأويلها مذاهب شتى ، بينما تقف الاصول العامة بمنأى عن هذا التخالف مشعة بوميضها الهائل في دياجير كل العصور !! وهكذا يتكامل الجانب التنظيري في فكر طه حسين حول قضية الاعجاز القرآني ، ولكنه لا يقف بالقضية عند هذا المستوى التنظيري فحسب ، وانما يتخطى هذا المستوى الى مستوى آخر هو المستوى التطبيقي ، وقد أعطى هنا كما أعطى هناك شيئا يستحق معاناة البحث والمقارنة والاستقصاء!!

- ٣ -

حين يستطرد الدكتور طه حسين من منطلقات حديثه عن الجانب التنظيري في قضية الاعجاز الى منطلقات حديثه عن الجانب التطبيقي في هذه القضية ، نحس على الفور أنه ينتقل من شاطئ التأمل الموضوعي الى شاطئ التأمل الذاتي ، وان كنا نضع هنا نفس الاحتراز الذي نصر على ان نضعه دائما في مثل هذا الصدد من ضرورة عدم الفصل الحاسم بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي لان النوعين يدلان معا ويتقارضان بعض الرقعة التي يتحركان على مساحتها في رحلة البحث وجدلية الحوار !!

يعرض الدكتور طه حسين لقضية الاعجاز على المستوى التطبيقي من خلال قصة نوح في سورتي « هود » و « الشعراء » ، ليبين انها

فى سورة هود : (قد فصلت تفصيلا كاملا فى غير تزيد ولا اسراف وأديت معانيها فى آيات ليست بالطوال ولا بالقصار ، ولكنها تؤدى المعانى فى دعة وهدوء ، يكون فيها الاطناب حين يحتاج المقام الى الاطناب ، ويكون فيها الايجاز حين يكون الايجاز اخذ للقلب وادنى على ما أريدت الدلالة عليه من الهول الذى يصوره الايجاز أكثر مما يصوره الاطناب ، ومن الأمر الذى يصدر فينفذ أثر صدوره فى غير تردد أو إبطاء) - مرآة الاسلام ص ١٦٣ - : (فأنت تقرؤها مفكرا فيها ، معتبرا فى أحداثها ، لا يعجلك عن ذلك شئ ، وأنت معجب بانبساط الحديث ومضى القصة فى أناة تؤدى المعانى مستوية ، ويأتى الايجاز حين يجب ان يأتى فلا يضيع عليك شيئا من تمهلك ولا يهملك عن التأمل والتدبر) - مرآة الاسلام ص ١٧٢ .

وينتقل الدكتور طه حسين الى سورة الشعراء ليتأمل نفس القصة التى تأخذ وضعا مغايرا ، فهى هنا قافزة سريعة : (وسورة الشعراء كلها تروع وتبهر بقصر آياتها وانسجامها فى هذا القصر وفى انساق الفواصل فى الآيات كلها) - مرآة الاسلام ص ١٧٢ : (وقصة نوح هنا موجزة أشد الايجاز ، لا يذكر فيها تفصيل العذاب الذى أخذ الله به الظالمين من قوم نوح ، وإنما يكتفى بذكر اغراق الله لهم ، ولا يذكر فيها صنع الفلك وحمل من حمل نوع فيه ، ولا وصف الموج الذى جرت فيه السفينة ، ولا قصة ما أصاب ابن نوح من العذاب ، ولا الحديث بين نوح وربه . . لا يذكر من هذا كله شئ ، وإنما يقص الحوار بين نوح وقومه ، وأعراض قومه عن دعوته . وانذارهم نوحا بالرجم ان لم ينته عن دعوته ودعاء الله نوحا ان ينجيه ، وما كان من نجاته فى الفلك المشحون ونجاة من آمن معه واغراق الظالمين ، فقد اختصرت القصة هنا لان ما قصد اليه من القصص كلها فى هذه السورة إنما أريد به الى تذكير المشركين بآيات

الله فيمن سبقهم من الأمم ، وتخويفهم ان يصيبهم مثل ما أصاب
تلك الأمم ، واطهارهم على بطش الله بالظالمين ، وعلى الآيات العبري
التي آتاها الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . . ومن أجل هذا
اكتفى بما يؤدي هذه الاغراض في قوة وعنف يملكان على السامعين
والقارئين أمرهم كله ، ومن أجل هذا أيضا أدت هذه الاغراض في
هذه الآيات القصار المتتابعة في نسق واحد كأنها السيل المندفع الذي
يغمر كل ما يلقاه ، أو كأنها الريح العاصفة التي لا تدع شيئا تأتي
عليه الا دمرته تدميرا) - مرآة الاسلام ص ١٧٤ - ١٧٥ .

ويوغل الدكتور طه حسين أكثر في الاتجاه التطبيقي المائل هنا
الى كثير من تعقيل الاحاسيس الذاتية والتأثرية ، فيقف مع اسلوب
التكرار في القرآن وقفة دارس فاحص ليلاحظ ان هذا التكرار
(ملتزما) قد يجيء للانتقال من حديث الى حديث كما في سورة
« الصافات » وسورة « القمر » . . وقد يجيء هذا التكرار (غير
ملتزم) وانما يرسل نظام الآيات ارسالا مع اتحاد الفواصل كما في
سور كثيرة من المفصل . . وفي القرآن اسلوب آخر من التكرار
للتخويف حينما وللتعجيز حينما آخر كما في سورة (المرسلات) من
ختم الآيات دائما بقول الله عز وجل « ويل يومئذ للمكذبين »
(واسلوب آخر في القرآن تتسق فيه فواصل الآيات ويلتزم فيها
أو في أكثرها نسق بعينه كالذي تراه في سورة « مريم من ختم »
الآيات أو أكثرها بكلمات تنتهي بالياء المشددة المفتوحة - مرآة الاسلام
ص ١٧٦ ت : (واسلوب آخر من الفواصل لا يلتزم فيه حرف بعينه
كما التزمت الياء في مريم ، أو حرفان كما التزمت الياء والنون في
الشعراء مثلا ، وانما تلتزم حركة بعينها هي الفتحة ، وان اختلفت
الحروف في أواخر الكلمات ، كالذي تراه في سورة الكهف من التزام
الكلمات المنصوبة أو المفتوحة الآخر) - مرآة الاسلام ص ١٧٧ .

ويضع الدكتور طه حين ملاحظاته التي لا تشك في انها تأثرية وذاتية يفصح عنها قوله الدائم : (وأكبر الظن ٠٠) و (يوشك ان ٠٠) الى آخر هذه الكلمات الملتصقة بقضية الذات أكثر من التصاقها بقضية الموضوع ، ولكن ملاحظاته التي يضعها على هذا النحو تشكل مع ذلك لونا من النفاذ العقلي الثاقب الذي لا يكف عن محاولة الاقتحام ٠٠ ان حديث الفواصل يثير فيها نزوعا الى تخصيص دراسة كاملة عنه لأنه أكثر تنوعا من ان يوجز في فصل من كتاب : (وما نجده فيها من التنوع ان دل على شيء فانما يدل على ان القرآن قد أنزل ليتلى ، ويتلى في صوت يسمع ، ذلك يظهر تنوع الآيات في خواتيمها وفواصلها ، ويظهر الوانا مختلفة ترويع باختلافها من الموسيقى ، فاذا أضيف ذلك الى عذوبة اللفاظ واتساق النظم واختلاف الاسلوب باختلاف المقامات شدة ولينا وترغيبا وترهيبا وتبشيرا وانذارا ، لم يشك سامع أو قارئ في ان فنون الاعجاز في القرآن أكثر وأروع من ان تحصى أو يحاط بها) - مرآة الاسلام ص ١٧٩ .

وقريبا من هذا النحو يضع الدكتور طه حسين ملاحظات أخرى حول قضية الفواصل المتسقة وطبيعة ورودها في القرآن ، فهي ليست عشوائية تساق هكذا عفوا : (وأكبر الظن ان التزام هذه الفواصل المتسقة انما يكون حين يتحد موضوع السورة أو ياتلف اثلافا شديدا ، فسورة الشعراء مثلا قد اختلفت فيها قصص الامم التي كذبت رسلها ولكن موضوعها واحد هو التخويف والارهاب وانذار قريش وغيرها من مشركي العرب بان ما أصاب تلك الامم التي أصرت على تكذيب الرسل قد يصيبهم ان اصروا على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ٠٠ وسورة طه توشك قصة موسى ان تستغرقها ٠٠ وفي سورة مريم تمجيد الانبياء وتخويف للجاحدين ٠٠ / مرآة الاسلام ص ١٧٩ .

وغير بعيد من هذا المنطلق يضع الدكتور طه حسين ملاحظات أخرى ذات صلة بالعلاقة الحميمة بين التزام هذه الفواصل من جهة ، وبين وحدة السورة من جهة أخرى : (وأكبر الظن أيضا ان الفواصل حين تلتزم على هذا النحو يدل التزامها على ان السورة أنزلت مرة واحدة ولم تنجم آياتها كما تكون الحال في سورة أخرى لم تلتزم فيها الفواصل على هذا النحو ولم يتحد موضوعها أو يشتد الائتلاف بين موضوعاتها ان تعددت ، واتحاد الموضوع نفسه وشدة الائتلاف الموضوعات حين تتعدد قد يشعر بأن السورة أنزلت جملة واحدة وان لم يلتزم في فواصلها ما نراه قد التزم في السور التي اشرنا اليها . فسورة يوسف مثلا قد اتحد موضوعها اتحادا لا شك فيه ، قد قصرت على قصة يوسف ، وما أرى الا انها أنزلت جملة . وقل مثل ذلك في سورة هود ، أو فيما اشتمل عليها أكثرها من قصص الأمم التي كذبت رسلها) - مرآة الاسلام ص ١٨٠ - (وكذلك سور أخرى في القرآن تكثر موضوعاتها وتتباعد الصلة بين هذه الموضوعات ولا يلتزم في فواصلها ولا في أسلوبها نسق بعينه منذ تبدأ الى ان تنتهي ، فسورة البقرة مثلا كثرت فيها الموضوعات وتباينت فدل هذا على ان السورة لم تنزل مرة واحدة وانما نجمت تنجيما) - مرآة الاسلام ص ١٨٣ - (وقل مثل هذا في سائر سور القرآن الكريم ، فكل سورة يتحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعيا شديدا ويلتزم فيها نسق بعينه فيرجع انها نزلت جملة . . وكل سورة تختلف موضوعاتها وتتباعد ولا تتداعى ولا يلتزم في آياتها نسق بعينه فيرجع انها نزلت منجمة) - مرآة الاسلام ص ١٨٩ .

يخيل الى - بعد هذه الرحلة الهائلة العطاء - اننا نستطيع ان نؤكد ان دراسة من هذه النوعية الفاهمة المستقصية قد تجاوزت بالفعل مناطق البوح الذاتي في اعجابه المسطح ، وانه بمثل هذا

الشمول النافذ قد استطاع الدكتور طه حسين أن يتأمل قضية الإعجاز من منظورين متكاملين ، فهو في الجانب التنظيري قد أعطى أسساً شارك في بعضها وأضاف بعضها الآخر ، وهو في الجانب التطبيقي قد أعطى انطباعات وافق في شيء منها وخالف في بعض من الأشياء ، ولكنه هنا وهناك قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن الفكر المعاصر حين يتسلح بالوعي والاستبصار والدرس والأناة يستطيع أن يعطي لحركة الإبداع إضافات يمكن أن تثري وتخصب ، وهذا هو ما نهض به على مستوى من الفداذة غير منكور !!

يبقى أن نؤكد في نهاية الرحلة بأن قضية الإعجاز في القرآن ستظل شلالاً هادراً بآلاف المعطيات ، وستبقى سماءً منحنية على ما لا يحده من الفضاءات والارتفاعات ، وفي وسع الفكر المعاصر أن يغامر وأن يقتحم وأن يعود بكنوز من الحقائق العلمية والفكرية والفنية ، فقط على هذا الفكر المعاصر حين يبدأ رحلة المغامرة والاقتحام أن يتوضأ بماء المحدودية والتواضع ، فإن أبعاد عالم الكشف كلمات المبدع الأول التي هي : (القرآن) !!

حوار .. حول قضية قرآنية !!

لا أزعج انى فى هذه السطور ساستبدل قضية فى الفهم
القرآنى بقضية أخرى .. فان التطوح وراء هذا الوهم الكبير
مغامرة لا يستطيع ان أحمل وزرها هكذا فى غرور .. كل الذى
استطيع أن أزعجه .. ان هذه المحاولة بكل ما تنحنى عليه من
إخلاص للنص القرآنى .. يمكن ان تطرح فهما قد يكون جانحا ..
وقد يكون سديدا .. ولكنه على أية حال .. تابع من منطلق
إيمانى .. وبصائر فيما يخيل الى .. الى غائية إيمانية كذلك ..
والقرآن بعد .. مناط لا ينتهى لاجتهادات العقول المدربة على كل
المسارات !! .. لقد يجوز ان نتفق حول فهمنا « الانسانى »
للقرآن الكريم أو نختلف .. ولكن الذى لا يجوز بحق هو ان نغلق
فى وجه كل المحاولات كل النوافذ .. أو ان نصادر فهما فى القرآن
لا يلهث على دروب مهدها السابقون .. مهما كان انتماؤنا المجذر
لهم .. واعتزازنا بهم .. ان معنى ذلك لو حدث .. اننا نلغى
تواتر الزمن .. وتهادر العصور .. ان معناه ان حركة الفكر
الاسلامى صائرة الى الجمود والبوار .. ان نعتاه ان المعاصرة

ارتداد .. والمخاطرة دوران .. والتطور خرافة .. وليس منطقاً
محكوماً بالقوانين !!

لقد تسعف الباحث عشرات الأمثلة .. على أن الاسلام هو
الدين الوحيد الذى لم يحتكر الفهم لطائفة معينة .. وإن أساس
تحركه « المجموع » لا « المفرد » وإن حرية الفكر .. والفهم ..
والتوافق .. والتخالف .. والالتحام .. والانشقاق .. كل
أولئك كان بعض صيحاته الأولى التى ما تزال حتى اليوم عاملة فى
مناطق الفكر .. جالبة « للاسلام » وليس « على الاسلام » أروع
قضايا التأييد العادل .. والراشد .. والغائص فى حقائق
الأشياء !! صحيح أن الاسلام بما هو دين شمولي .. يضع شروطاً
لأهلية الفهم والاستيعاب من جهة .. وأهلية المنح والعطاء
« الفكرى » من جهة أخرى .. ولا يترك العطاء .. والمنح ..
والاستيعاب .. والفهم .. حديقة مفتوحة الأبواب لكل الجائلين
أن الشروط التى يضعها الاسلام « للاجتهد » مثلاً .. هى من
نوع ما يمكن أن يسمى « بالحوافز البنائية » لأن بناء الفكر القادر
على الفهم معادلة تحتاج الى مساحات زمنية .. وثقافية ..
وسلوكية .. وإيمانية .. بلا حدود .. أن الشروط هنا لا تشكل
نوعاً من العبء الباهظ المقعد .. بقدر ما تشكل لونا من ألوان
التحدى لذاكرة المجموع البشرى .. يشعذ ولا يشبط .. يعمق
ولا يسطح .. أن الشروط هنا تكاد تكون شروطاً تاريخية لازمة
لتدفق تيار التاريخ فى الزمن .. والزمن فى التاريخ !!

القضية التى أطرحها من خلال هذه السطور يمكن أن تعايش
قضايا أخرى .. ويمكن أن تستفيد من كل القضايا .. وأيضاً
يمكن أن تعطي فائدة من لون ما لهذه القضايا جميعاً .. وهى كما
قلت .. قضية « فهم » وليست قضية « اعتقاد » ولئن لم يجر لنا
أن نختلف حول عقائديات وصلنا معها الى درجة اليقين .. فقد

يجوز لنا ان تختلف حول مفاهيم .. قابلة بالضرورة لمزيد من
الحركة .. ومزيد من الحوار !!

القضية التي أ طرحها الآن .. هي قضية « الترهيب » ..
والترغيب « في القرآن الكريم .. لا أعني « الترهيب » في شكله
العام .. ولا أعني « الترغيب » في شكله العام كذلك .. فان ديننا
من الأديان .. أو حتى أطارا من الأطر الاجتماعية البحتة ..
لا يمكن أن يسقط من حسابه قضية الترهيب والترغيب .. الا
إذا أسقط من حسابه أساسا رغبته المشروعة في البقاء .. وحفاظه
الأكيد على ان يظل في مناطق التحقق والحلول .. انني أعني على
وجه التحديد قضية الترهيب والترغيب في مخاطبة الفطرة
بالعقيدة .. ان خطاب القرآن « للذين آمنوا » بترهيب مرة ..
وترغيب مرة أخرى .. مبرر « انساني » على كل المستويات ..
لأن التزام المؤمن بإيمانه يجب ان يظل دائما في مناطق الضوء ..
يجب أن يظل دائما في حراسة النمط التشريعي .. ولكن خطاب
القرآن الكريم « للناس » عامة .. بترهيب مرة .. وترغيب مرة
أخرى .. هو الذي يثير هذا التساؤل ، وبالضرورة يستدعي هذه
الاجابة التي ن طرحها من خلال هذه السطور ...

التساؤل الذي يثار هنا : هو : لماذا لم يطرح القرآن الكريم
قضايا العقائدية .. والسلوكية « للذين لم يؤمنوا بعد » طرحا
موضوعيا محايدا دون رهبوت ما .. ودون رغبوت ما كذلك ...
حتى تتحقق للناس عناصر المحرية الاولى في التلقى أو الطرح ؟؟
في القبول أو الرفض ؟؟ ان قضية عقائدية تساق في حراسة
مدججة من الوعيد والوعيد : معناه أن ايمان المتلقي يكون خاضعا
بالضرورة لسيف ملوح .. أو جنة موعودة .. معناه كذلك ان

قضية « الايمان » اذا طرحت على هذا النحو .. أو اعتنقت على هذا المستوى . تكون قضية بلا فهم .. بما هي خاضعة في أساسها لسيف الخوف ... أو اغراء الخلود !! معناه ان « الحرية » هنا مصفودة .. وأن « الطوع » هنا مفروض !! اذن لماذا يطرح القرآن القضية هكذا في آيات من سورة البقرة : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون .. الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون .. وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين .. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .. وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون . » ؟؟

لماذا تساق القضية على هذا النحو .. فى هذه الصيغة المتوقعة مرة ... والمؤملة مرة أخرى ؟ أليس فى هذا قسرا للحرية ؟ أليس فيه كسرا لارادات القبول والرفض فى الانسان ؟؟

باستقراء - غير شامل بالطبع - لما قاله المفسرون .. وعلماء الكلام .. وفلاسفة المسلمين فى هذا الصدد .. نستطيع ان نستخلص جوهر ما قالوه اجابة على هذا التساؤل .. يقولون ان هذا الاسلوب « الترهيبى .. الترغيبى » معا .. مما يزع النفس الامارة بالسوء .. ومما يغرس فيها وجدانها الحى الذى يرتعش أمام زواجر التهديد .. ويتفتح للوعد برحلة فى النعيم ... ولانه هكذا ملائم لطبائع الخلق ومخلوقية المخلوقين .. فهو أروع

أساليب التربية وأقمناها جميعاً بروعة الديمومة .. والانتماء
لمصادر الخلود !!

هكذا يقولون وهو قول حقيقى إذا كان المراد من التساؤل
أن نقف على نوعية التربية فى القرآن الكريم .. ولكن ما هكذا كان
التساؤل حول هذه القضية .. ان الحوار المتفجر هنا ليس دائراً
حول صوابية هذا المنهج «التربوى» فى القرآن انحساراً أو مداً ..
فللقرآن دائماً صيغته الراشدة فى هذا الصدد .. وإنما هو
دائر أساساً حول موضوعية العرض القرآنى .. أو انحسار هذه
الموضوعية من خلال الترهيب والترغيب فى المتلقى الذى ينبغى أن
نصون له حرية القبول والرفض فى لحظات بدء المخاطبة .. كما
يجلجل بذلك القرآن الكريم نفسه .. وكما تؤكد كل تفاسير
الرائعين من أسلافنا الكبار .. « فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء
فليكفر .. » !! « ليهلك من هلك عن بينة .. ويحيى من حى عن
بينة » !! أى أن عرض القضايا فى القرآن كان ينبغى أن يكون
موضوعياً بحتاً .. بلا تلويح بثواب .. أو تعريض بعقاب !! أو
هكذا يقولون !!

هنا لابد من معاشة حقيقية لمنطلق الفهم فى القرآن الكريم
فإن ذلك وحده هو القادر على أن يعطينا اجابة مغيرة تمام ..
أو قل .. هو القادر على أن يعطينا اجابة صميمية على هذا
التساؤل .. وليس اجابة عن شىء لا يثور من حوله الحوار ..
فلو أن القرآن الكريم — وذلك من منطق جدلى مفترض — ساق
تعاليمه كما يقال فى «موضوعية» بحتة .. دون ترهيب وترغيب
.. لأمكن وقتها أن يقال : ان الله متكئ هنا على مفردات الطاعة
المركوزة «خلقياً» فى طبائع البشر .. بمعنى أنه خلق فيهم فطرة
الاستجابة .. وجعلهم أسرى هذه الفطرة .. فهو يخاطبهم فى
موضوعية بحتة وهو عالم تماماً أنهم لابد مستجيبون له .. لأنهم

واقعون بالضرورة في منطقة « القبول » الفطري المركوز فيهم حتى من قبل لحظة الميلاد !! اذن .. فالقرآن حين يهدد قارة .. ويؤمل قارة أخرى .. فكأنه يفترض في الانسان ابتداء حرية أن يقول «نعم» وحرية أن يقول «لا» .. والا لما تهدد الرافض .. وتودد المرید .. انه يعطى الانسان شهادة حرّيته في نفس اللحظة التي قال الله له فيها «كن» .. «فكان» !! ثم يخاطب فيه هذه الحرية وهذه الارادة .. في محاولة حادثة بالفعل الى ترشيد ارادته الحرة .. وحرّياته الارادية اذا شئنا ان نقول .. وكم في القرآن العظيم من كنوز !!

اذن .. فقضية الترهيب والترغيب في هذا الضوء لايمكن أن تكون خروجاً على «موضوعية» منشودة .. بقدر ما هي تأصيل لمفهوم «الموضوعية» في أروع أنساقها جميعاً .. ولايمكن أن تكون كذلك افتياتاً على حرية المتلقى الانسان .. بقدر ما هي ترسيخ لحقائق هذه الحرية .. وحقائق وضعية الانسان انزاء هذه الحرية بالذات !!

ان قضية الترهيب والترغيب الى جوار كونها اسلوباً في التربية .. وصيغة في ترشيد العلاقات الكونية .. كما لاحظ بحق أسلافنا الكبار .. تشكل في النهاية تأكيدات جذرية لحرية الانسان على الارض .. وامتلاكه الواعي لمصائره واقداره .. وبالتالي لأهليته المطلقة لقضية الحساب .. والثواب .. والعقاب .. انك في حاجة الى تهديد الانسان القابض على حرّيته حتى تظفر منه بولاء مراد .. وانت في حاجة كذلك الى ترصيته للظفر منه بكل الولاءات .. انك حين تهدد أو تسترضي انما تخاطب فيه حرّيته .. حرّيته القادرة في كل اللحظات أن ترفض دائماً .. أو تقبل بلا حدود !! ولكنك لست في حاجة الى تهديد أو مناشدة الانسان فيما هو مركوز فيه بالطبيعة .. أنت لاتناشده حركة

الفكر .. فان الفكر مزروع فيه منذ البدء .. حتى وهو يرفض
ان يفكر .. فانه من خلال ذلك يفكر في انه يرفض ان يفكر !!
انت لا تهدد او تناشد الانسان ان يأكل .. فان الجوع حركة
كيانية غير قابلة لصيغة من صيغ المساومات ... مهما كان محتواها
.. فوقيا .. أو تحتيا !!

ترى .. هل اطلحت في الافصاح عما أريد أن أقوله ؟ ان
اللاغطين بقضايا العصر من «موضوعية» الى «حيادية» الى
«حرية القبول والرفض» يجب أن نجرى معهم دائما مزيدا من
الحوار .. لا أن نغلق دونهم آذاننا حتى الصمم .. ان ارتباط
«الموضوعية» بتعريفها تماما من الزجر والاغراء يلغى فطرة الحرية
في المتلقى .. أو يوشك أن يكون .. أما ان أعرض القضية عرضا
«موضوعيا» في بادئ الأمر .. ثم أردف هذا العرض بترهيب
معين أو ترغيب معين .. فمعنى ذلك بلا حدود اننى أفترض في
المتلقى حرية بلا حدود كذلك .. وهذا ما فعلته الآيات الكريمة
من سورة البقرة في خطابها «للناس» لقد أهابت بكل الجموع أن
تعبد ربها الواحد .. بما هي مخلوقة له أولا .. ثم بما هي
عائشة على أرضه وتحت سمائه وفي أحضان آلائه ثانيا .. ثم
انتقلت الآيات الكريمة الى لون من الجدل العقلى الرشيد ..
متحدية كل ملكات الابداع في المعارضين .. حتى اذا أحسننا مع
الآيات بوجوم المعارضة .. وتعطيها المطلق لكل امكانيات الفعل
.. وتخريبها الغبى لكل طاقات الايجاب .. كان تقبلنا الطبيعى
لقعقة النذير في هذا السياق : «فان لم تفعلوا .. ولن تفعلوا ..
فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت
للكافرين» !!

ان افتراض حرية المتلقى هنا موجود بلا جدال .. ولكن
القرآن الكريم يعلننا ان الحرية ليست تعطيلا مطلقا .. وليست

رفضاً بلا سبب .. والا كان معنى ذلك أن نعفى كل الوجود من كل الفكر .. نستحيل بدءاً بلا هدف .. وصيرورة بلا غاية .. وانتهاء الى خواء عبثى على الإطلاق !!

ان !التساؤل الذى طرح تساؤل جاد من غير شك .. ولا ينبغي أن ندينه على أى مستوى من المستويات .. فالفكر الإسلامى أرحب من أن ينفلق على نفسه .. وأثرى من أن يشهر أفلاسه أمام تساؤل معاصر مهما كان لون هذا التساؤل ... ومن أى مأتى جاء .. ان الثقافة الوافدة تحمل إلينا أعاصيرها بغير حد .. ولن يفلح أسلوب الكبت .. أو اللامبالاة فى معالجة عقابيلها فى وجدانات شبابنا الطالع مهما قيل من مبررات .. ان الحوار الفاهم المتصدى وحده ... هو الذى يمكن أن يصب .. أو يخطئ .. يهدى .. أو يضل .. يقف الإنسان المعاصر أمام قدره «مع» أو «ضد» كل الأشياء ، ان هذه المعية .. أو هذه الضدية هى العاصم اليوم من طوفان اللامبالاة .. ان المعية تضيف الى الصف الملتزم مقاتلين .. كما أن الضدية تبرز من بين الصفوف الملتزمة مقاتلين .. فالفكر الدينى هو المنتصر فى كل من هذه الجولات !!

ولست أزعج كما قلت فى مطالع هذه السطور أن هذا الفهم لقضية من قضايا قرآنا العظيم يمكن أن يستبدل شيئا بشيء .. بقدر ما هو محاولة لاضافة شيء الى شيء .. وبقدر ما هو فى النهاية محاولة لفتح جبهات الحوار مع الفكر العالمى المعاصر .. المسلح - شئنا أو أبينا - بفنسات مقتحمة غائرة العمق .. مما يهيب بكل الطلائع على أرضنا المسلمة أن تنهض الى دورها الريادى .. وأن تفتح صدورنا جيدا للرصاص والحوار .. غير عابئة بشيء .. الا بما يتضرب داخلها من روافد العطاء .. وما يجيش فى أطوائها من توافق مع الكون .. انسانه .. وأشياءه .. وقيمه الرائعة !!

ومخطئا قد أكون !!

ومقتحما قد أبدو !!

ولكنى فى نهاية الامر .. هادف الى ترشيد وعيى العقائدى
يلا مبالاة من سيف ... بلا انتظار لهدايا من مطر السماء ..
قالسماء كما علمنا « ابن الخطاب » لا تمطر ذهباً .. ولا تمطر
فضة !!

من مناهج التربية في القرآن

إذا كان لكل دعوة كتابها القائد ، وأسلوبها القاصد ، ومنهجها السوي في استقطاب ومعالجة الطبائع البشرية ، فإن القرآن العظيم هو كتاب الدعوة الإسلامية ، وأسلوبها ومنهج حياتها جميعا ، وأروع ما في هذا القرآن الإلهي المعجز انه لا يقف في معالجة الطبائع البشرية عند حافة جامدة لا يتعداها الى غيرها من مناطق . وانما هو على النقيض من ذلك تماما . . انه يتخطى في محاولاته لاستنقاذ الطبائع الجانحة من اسلوب الى اسلوب ، ومن منهج الى منهج ، باذلا من اكتناره الذاتي بالعطاء لكل قضية جانحة ما يلائم طبيعة تكوينها البدئي ، وطبيعة مسارها الحياتي ، وطبيعة تشكيلها الأخير في أى من الأنماط . . ان ما يوائم قطاعا من الطبائع البشرية قد لا يوائم قطاعا آخر ، ومن هنا . . فان تعدد أساليب الحوار مع شتى أنماط هذه الطبائع يلوح في نهاية الأمر ضرورة حتمية بما هو حركة على صعيد الواقع المتحرك الحي ، وليس ضربة لازب جمدت نفسها على مستوى واحد من مستويات فهمها لتيارات دافقة بلا حدود !!

قد يخاطب القرآن نمطا من أنماط الطبائع البشرية مرتفقا
فى ذلك نوعا من « الترهيب » أو نوعا من « الترغيب » . . . مؤكدا
فى قضية هذا الارتفاق قضية حرية الانسان ، لان نمطا من أنماط
التشريع الالهى يخاطب البشر واعدة مرة ، ومتوعدا أخرى انما يوحى
بالضرورة معنى انه أعطى الانسان منذ البدء حرية ان يقول « لا »
وحرية ان يقول « نعم » . . . لان القابض على حريته هو وحده القادر
على حركة القبول أو حركة الرفض . وهو وحده بالضرورة كذلك منماط
الوعد أو منماط الوعيد . . . ان الانسان فى منطقة انتفاء حريته القابله
أو الراضية ليس منماط وعد أو وعيد ، بما هو صائر بالضرورة الى
حتمية الطوع هكذا كما تكون حركة الانحدار الساذجة من ليل الى
نهار ، ومن نهار الى ليل . . . ولكنه فى منطقة احتيازه لحريته . . .
أعنى فى منطقة اندفاعه الى معاقرة الجنوح ، أو امكان ارتفاعه الى
معانقة الصواب ، يكون بالضرورة منماط الحذب من الجانب
التشريعى ، فمرة يلوح له التشريع بفداحة العقاب ومرة يلوح له
بالخلود !!

وقد يخاطب القرآن نمطا من أنماط الطبائع البشرية مرتفقا
فى ذلك أسلوبا بين بين - وهو ما نريد أن نتأمل محاور فلسفته
فى هذا اللقاء - وأعنى بذلك الأسلوب أن يبدأ القرآن العظيم من
منطلق موضوعى ، فهو يعرض القضية فى حيادية من غير تحريض
. . . كما فى قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » وان كنا
نستطيع أن نستشف من خلال هذا السياق فى العرض انحياز
المنطق القرآنى مع « الحسنة » ضد « السيئة » . الا ان هذه
الضدية أو المعية جميعا لا تنفى قضية الحياد فى العرض ، لأن منطق
طبائع الأشياء يرفض استواء الجانب الأشرق « الحسنة » والجانب
الأحلك « السيئة » فاذا جاء المنطق القرآنى بتقرير هذا الواقع
الموضوعى فان ذلك لا يطعن فى قضية حياديته ، ولا يعطى عرض

القضية على هذا المستوى غير معناها الحيادي المنصف الغائر في طبائع الأشياء !!

ثم يترقى القرآن العظيم في قضية العرض من مستوى الحيادية الصارمة الى مستوى التعاطف مع الجانب الاشرق : « ادفع بالتى هي أحسن » .. لأن القرآن ليس نصا من النصوص البلاغية الجامدة التى لا يهمها فى حركة التعبير الا أن تجيء ذروة فى تقنية الحركة ، وقمة فى اعجاز السياق ، ثم لا شيء !! ان هذا المنزع الجمالى البحت يعرى القرآن العظيم من أروع ملامح ذاته الفذة ، انه ليس كتابا لاثارة النشوة الفنية فى قارئ مسترخ على وسائد الفهم الساذج لحقائق الكون أو حقائق التاريخ .. انه كتاب لاشعال الحرائق فى كل شيء .. فى الفكر المسطح .. والكون اللزج .. وطواطم التاريخ منذ البدء وحتى نهاية الرحلة .. وبما هو كذلك بالدرجة الأولى فان همومه الأساسية هى هموم انسان هذا الكون ، ان شقاء الانسان الكادح على الأرض بعض من ضرورة التنزيل ، ومن هنا .. فان تعاطفه البدئى مع الجانب الاشرق فى كل شيء ، وهو هنا « الحسنه » يبدو منطقا متوازن الحركة ، متساوق الايقاع ، مشدودا الى جذور طبيعته كنص الهى يجيء لمساندة الخطي الحائرة لانسان هذا العصر ، وما قبل هذا العصر ، وما بعد هذا العصر .. أعنى انسان كل العصور !!

ثم يترقى القرآن العظيم فى قضية العرض من مستوى التعاطف مع الجانب الاشرق الى مستوى تتويج القضية بمحصلة مقدماتها جميعا .. « فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .. وفى هذه المحصلة أو قل هذه النتيجة يتأكد احتواء القرآن فى حركة مده الوجودى على انسان هذه الأرض ، بكل عذابات الرافعة ، وبكل معاناته اليقظى فى رحلة القرار على شاطئ مأمون ان طرح القضية على مستوى موضوعى منذ لحظة البدء .. ثم الانحياز

الراشد المسئول الى جانب القضية الاشرق .. ثم التهدى من خلال ذلك كله الى نتيجة واعية ومنطقية لهذه القضية ، انما كان من أجل شيء صميمي ، وليس من أجل لا شيء .. ان صفاء العلاقة بين الانسان والانسان على هذه الأرض .. وترشيد حواس البشر في قضية هذه العلاقة .. وتصويب منطق الدفع والمدافعة .. والصداقة والعدائية .. حتى الحسنة والسيئة .. ان كل ذلك وأشياء من وراء ذلك كله، انما هو في نهاية الامر بعض مآرب الرحلة القرآنية الخاطفة في هذه الآية الواحدة المليئة بآلاف الكنوز !!

بدأ القرآن - من خلال هذه الآية - بعرض القضية على مستوى موضوعي .. ثم ترقى الى التعاطف مع جانب القضية الاشرق .. ثم أعطى ذروة الفعل في نتيجة القضية .. وهذا ما قصدت اليه حين قلت في مطالع هذا اللقاء . ان للقرآن مناهجه الفذة في معالجة الطبائع البشرية ومواءمة هذه الطبائع بما يتوافق معها من أساليب التربية ، وانماط الحوارات !!

هذا وجه القضية في شكله الموضوعي - أقول هذا خضوعاً لمنطق فهمنا القاصر في حركة التصدى لما هو بالضرورة اثرى من مناطق العطاء في أفهامنا جميعاً - !! ولكن للقضية وجهها الآخر الذي نستطيع أن نسميه : وجهها التطبيقي .. ففي أي شيء لا تستوى الحسنة ولا السيئة ؟

وفي أي المواجهات ندفع أو ندافع بالتى هي أحسن ؟ وما القيمة الحقيقية لولاءات العدو حين يستحيل من خلال تعامل ما الى حميم ؟

ان معانقة المنطق الصوابي في وجه القضية التطبيقية يفضى في النهاية الى تكامل المنهج القرآني في التربية ، أو قل الى تكامل فهمنا لمنطق المنهج القرآني في التربية فذلك اهدي وأصدق ..

حقيقى ان صيحة القرآن العظيم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » انما تعبر عن حقيقة كونية راسخة ، فلا استواء بين السيئة والحسنة فى قيمتهما الموضوعية ، من حيث كون الحسنة منطق الخير فى الطبيعة ، ومنطق العدل فى العلائق ، ومنطق الضوء فى ظلمات الدروب !!! ولا استواء بين الحسنة والسيئة فى قيمتهما الاجتماعية من حيث كون الحسنة اقدر على الفعل ، وأهدى فى الحركة ، وأكثر قابلية لمعايشة البشر على أرض زاخرة بالتناقضات !!! ولا استواء بين السيئة والحسنة فى قيمتهما الصراعية ، من حيث كون الحسنة فى نهاية الأمر هى مناط الغلبة ، أو مناط الانتصار بما هى منطق الايجاب فى مواجهة منطق السلب .. وبما هى شريعة الحب فى مواجهة شرائع التدمير !!

وحقيقى .. ان صيحة القرآن العظيم : « ادفع بالتي هى أحسن » ، انما نعبر عن فلسفة كونية أرسخ رسوخا ، لان الدفع هنا ليس مواجهة الشر الكاسح بالخير المسالم كما قد بظن ، ان دفع الشر بالشر قد يكون مضمون « التى هى أحسن » حين يستحيل الشر الى قوة هاجمة لا ضمير لها ولا منطق !!! فى البسء .. لا بد من معالجة الشر بالخير ، والسيئة بالحسنة ، والوبال بمزيد من الكمال فاذا لم يفطن الشر الى منطق الخير فى هذه المدافعة العاقلة ، انتضى الخير كل اسلحته ورمى بها فى صدور الشر من كل اتجاه ، وفى كل اتجاه ،! وليس الدفع بالتي هى أحسن قضية موقف واحد قتالى قد يكون .. ان له محاور غير محدودة يدور فى مستوياتها جميعا .. فقد يكون الدفع فى المجال الخلقى بالتسامح والصفح .. وقد يكون فى المجال النفسى بالتعاطف والحب .. وقد يكون فى المجال الحياتى بشرف الكلمة وطهارة السلوك .. وقد يكون فى المجال الانسانى بمزيد من الزمالة والسلام .. وقد يكون فى المجال الفكرى بتأصيل قضية الفهم وتفتيح نواقد الحوار .. وقد يكون فى المجال العقائدى بفدائية الحركة

وايمانية الاصرار .. الى آخر ما يمكن أن نؤصل له في هذا المتطلق
من منادح الرؤية وآفاق لتنظير ..

وحقيقى فى نهاية الامر ان صيحة القرآن العظيم : « فاذا
الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .. انما تعبر عن هموم
الدعوة والداعية ، وتختصر فلسفة موقف القرآن من كادح هذه
الأرض « الانسان » !!! ان العداء المخرب لسوء العلاقة الانسانية هنا
قد يكون عداء عقائديا يجب ان يتحرك المسلم لبتره أو تعديله بما
هو مناط الفهم العقائدى الحافز على حركة التواصل وليس على جبرية
الانفصال !! وقد يكون عداء طبقيا يجب ان يتحرك المسلم لبتره او
تعديله بما هو مناط التعاطف الكونى الذى يدنى طبقة من طبقة
وانسانا من انسان ، بكل ما خطط «الاسلام» له الى ذلك الهدف من
طرائق، وبكل ما اشترع له الى ذلك من وسائل وغايات!! وقد يكون
اجتماعيا دائرا فى مستوى «الشيء» لمن هو ؟ والى من هو ؟ الى آخر
ما يطرح فى هذا المجال من أسئلة تافهة القرار .. ان وضعية المسلم
بما هو مناط التوازن الوضعى فى كونه توجب عليه ان يتحرك لبتتر
هذا العداء أو تعديله ، ليس بمجرد مزيد من الشعارات أو مزيد من
غلبة رأى ، وانما باحقاق قضية الحق ، وتدمير قناطر الباطل ،
ليتيح بذلك للمجمال الالهى ان ينقل خطواته على الأرض ناشرا اجنحته
على الناس !!

ان ذلك المنهج السوى فى فهم صيحات قرآنا العظيم الثلاث :
ولا تستوى الحسنة ولا السيئة .. « ادفع بالتي هي أحسن » .. فاذا
الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .. انما يعطينا أسلحة
انتصارنا الحتمى فى كل معارك النضال على كل مستوياته الآنية وغير
الآنية ونستطيع نحن بمزيد من تأمل النص ، والحوار الراشد مع
منطق الآيات ، ان نفجر فيها شلالات بغير حدود من المعانى والقضايا،
وآفاقا من الفكر لا تنتهى الى حدود !!

وحنى لا تفقد ضوء عيوننا فى نهار الألق ، فقد يتحتم أن تعود
الى المحاور الصميمية لهذه الرحلة ، لنستبين بعضا من مناهج التربية
فى القرآن العظيم ، أو قل بعضا من مناهج القرآن العظيم فى التربية
وهى ربما على وجه مقارب : عرض القضية فى موضوعية هادئة وبلا
ضجيج .. ثم الانحياز الفاهم الى الجانب الاشرق من هذه القضية ..
ثم تجلية الغائية التى يمكن أن نحتازها فى نهاية الرحلة .. والقرآن
العظيم فى كل أولئك جميعا لا يعطى للقضية وجهها الأكاديمى أو
الميتافيزيقى وحده ، وانما هو يؤكد على طول المسار حتمية انتماء
الشعار للواقع ، وحتمية انتماء كل القضايا الى وجودية الانسان ،
ولعل هذا المنطلق المزاج بالضرورة بين الشعار والواقع ، وبين
حركة الفكر وحركة الساعد ، وبين تراب هذه الأرض وضوء المصابيح
فى السماء .. لعل هذا المنطلق هو ما يميز الاسلام فى معترك
الشرائع ، وهو ما يعطيه امكانية أن يحيا على الأرض .. فاعلا أبدا
.. قائدا دائما .. قابلا للعتاء هكذا بلا جمود !!

فليكن قرآنا العظيم محور الحركة فى وجودنا الحى ..

وليكن فهمنا نافذة مفتوحة على كل المنادح ..

ولنكن نحن طلائع الزحف المقدس .. الى تخوم رائعة بلا

تخوم !!!

هذا الزحف .. من يتصدى له ؟ ؟

هذا الزحف .. من يتصدى له ؟؟

- ١ -

الصمت لا يجدى .. وليس يجدى كذلك أن نتجاهل الواقع
الآتى الذى يدوس بغلاظة فاحشة على ما كان واقعا آنيا فى مرحلة
من مراحل تاريخنا المفلطح!!

الصمت لا يجدى .. لان جدلا عقائديا يصمت أحد طرفيه ،
ينتهى فى نهاية الأمر الى غلبة الجانب الصائت على الجانب الصامت،
وينتهى كذلك الى عزلة باردة يقبع فى دياجيرها ذلك اللانث بسمته،
الهارب من حركة الجدل الى سكونية الغباء !!

وليس يجدى كذلك تجاهل الواقع .. لان الواقع الموضوعى
لا يستحيل خرافة اذا نحن - كجيل - تجاهلناه ، وربما كان
النقيض هو الحقيقى ، أعنى أن تجاهلنا البليد لواقع موضوعى
مدجج بآلاف الأسلحة .. هو وحده الذى يتيح لهذا الواقع أن
يعزز مواقعه ، وأن يكتشف من خلال التجريب والتخريب جميعا
أروع وسائل زحفه ، وأرحب امكانيات انتصاره !!

فلنكسر كل قضبان صمتنا الفاجع !!

ولنحرك طاقاتنا فى اتجهاه المبالة وليس فى اتجهاه
اللامبالة !!

ولتكن عيوننا مفتوحة .. فان الحذر الذى يسرى فى
أوصالنا بلا حدود يكشف من تراكمات الصدا الحصارى الذى نعانى
من غبائه الوبيل !!

أدرى أننى بدأت هجوما بلا تحفظ ، عدوانيا أكاد أن
أكون ، وعن عمد فعلت .. لان مسلمة باهظة عششت فى أخلاذ
هذا الجيل توشك أن تفرض منطقها الهابط على كل العقول ، وهى
ان عقائديتها ليست فى حاجة الى من يناضل عنها ، وليست فى
حاجة الى من يدعو لها ، لان هذه العقائدية تملك من قدراتها
الذاتية على الاشعاع والتوصيل ما يغنيها عن معاناة الدعاة ، وكدح
الراشدين !!

ان هذه المسلمة الباهظة غبية من جانبين :

أولهما : ان ديننا من الأديان لا يمكن أن يكون قادرا
« بذاته » على الفتح ، أو حتى على الدفاع !! لابد من « رسول »
لكل رسالة .. من « نبي » لكل دين .. من « دعاة » على مستوى
الفهم والاصرار والاستعداد كل يوم للشهادة لكل عقائدية تريد
لدورها أن يؤدى ، ولضروثها أن ينساح فى آفاق البقاء !!

وثانيهما : ان امكانية الخلود فى دين من الأديان تكمن
بالضرورة فى كونه قابلا لمزيد من الكشف ، ولمزيد من العطاءات ،
بما هو بالضرورة كذلك أكبر من أن يحتويه عصر ، وأرحب من
أن يحتازه جيل ، وأثرى من أن يجف فيه الحصب بعد أول
قطاف !!

والاسلام واحد من الأديان السماوية الخالدة التي لم تنزل من السماء الى الأرض هكذا فى ليونة ونعومة وانسياب .. لقد عانده من عائد ، وكفر به من كفر ، وسل عليه السيف غير جيل وغير قبيل ، ولم يقف مناط وحيه العظيم «محمد» موقف اللامبالاة والاتكال .. لقد أشعل فى قلب العالم وعقله جميعا ثورة جدل فكرى وحضارى ما تزال قابضة على أعناق هذا العالم حتى اليوم .. ولقد رفض – غير مرة – أن يخلع «لامته» حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه !! ان الثائر فى محمد لم يمت ولا ينبغي له أن يموت ، ولست أعنى بالثائر هنا مجرد القابض على سيفه .. ولكنى أعنى به كذلك الثائر على بلادة الفكر ، والثائر على نضوب الوجدان ، والثائر على بتر التواصل الكونى بين انسان هذا الكون وخالقه المحرك لكل قوانين النبض فى الأشياء !!

هذه مقدمة كان لابد منها .. لنخلص بعد الى ما نحن بصدد الحديث عنه ، والحوار من حوله ، فقد خرجت الصدور من طول معاناتها بلا حدود !!

القضية .. ليست أن نختار هنا أو لا نختار ، ولكنها على المستوى الفكرى والعقائدى جميعا أن نكون أو لا نكون !! ولست أدعو من خلال هذه السطور الى مصادرة القضية النقيض .. فان أبعد الأشياء عن تصورى أن يستحيل الفكر فى يدنا الى جلاد يهزم بالسوط معارضيه .. ان الفكر لا يمكن أن يكون الا بطلا شريفا ، الحرف بالحرف ، والقضية بالقضية ، والحوار بمزيد من الحوار .. وثقوا معى ان الفكر المعارض يعطى القضية أكثر مما يعطيها الفكر الدعائى .. ان الفكر المعارض يكسبها جلادة فى العراق ، ومراسل فى المنافحة ، وبصيرة فى أصالة الادراك .. فى الوقت الذى لا تجنى القضية فيه من الفكر الدعائى سوى المرور الأبله الساذج بسطوح القضايا ومشارف الأشياء !!

القضية اذن فى حاجة الى فهم عاقل متفتح ، وليست فى حاجة الى تشنج من أى لون مهما كانت مبرراته العجفاء !!

ولنبداً معا : ان الفكر الملحد يقتات كل يوم بجموع هائلة من شبابنا القارىء شئنا أن نعترف بهذه الحقيقة أو لم نشأ .. ولعل انعكاسات هذه الحقيقة لا تخفى على أحد ممن يحاول أن يمر على حقولنا الفكرية الشابة ، فينظر فى ابداعاتها الفنية .. مسرحاً .. أو قصة .. أو رواية .. أو شعراً .. ان هذه الحقول الابداعية الشابة طافحة بمرارة العبث ، ولزوجة اللا جدوى ، وثورة الرفض ، وقساوة الانكار ... واذا كان كل شئ قائماً على كل شئ .. اذا كانت كل نتيجة ثمرة طبيعية لكل مقدماتها بلا تخلف ، فان هذا الابداع الرافض الشاك انما هو محصلة طبيعية لروافد قرائية هي ثقافة هذا المبدع الشاب ، لقد استطاع هذا الفكر المعبأ ضد كل ما هو مستقر فى حقول الفكر والدين أن يحتل مواقع فى صفوف الشباب . بما استحدث لنفسه من وسائل التوصيل والاشعاع ، وكان أخطر هذه الوسائل المسرح .. والقصة .. والرواية .. والشعر .. ولست أستطيع هنا أن أقوم بمسح شامل وكلى لكل هذه القطاعات والأنماط .. ولكننى أستطيع ان استطعت أن أقف عند كل ظاهرة منها وقفة خاصة ، ربما تكشف عن جوانب العرامة فيها بلا أقنعة ، وهذا هو ما أريد أن أقوله الآن ... اننى لا أقدم اجابات على الأسئلة المطروحة فى هذه الأعمال .. لان ذلك وحده يحتاج الى تعبئة حاشدة من كل قوى النضال الفكرى المسلح بايمانه العقائدى ، وليس تبعة واحد من الأفراد ... ان كل ما أطمح اليه من خلال هذه الكلمات هو أن أدق الأجراس ، وأرفع الراية ، وللمقاتلين المدربين بعد أن ينفروا الى ساحة المعركة ، مزودين بثقة قد لا أملكها ، وبثقافة قد لا أحتازها ، وبجسارة قد تعوزنى كما تعوز آلافا بلا حدود !!!

فى المسرح .. يجند الفكر الهاجم كل تكنيك العمل المسرحى فى محاولات الوصول ، وهو ينجح فى عديد من محاولاته .. ان ذكاء الخارق لا يوقعه على الاطلاق فى ما نقع فيه نحن من خطابية قد تصرف القارىء عن العمل .. لا يوقعه فيما نقع فيه نحن من افتراض أن المتلقى مؤمن بكل شىء ، وبقداسة كل شىء ، وهو لا يحتاج منا الا الى تكريس ايمانه ، ومباركة تقديسه الوهلى . ان كاتباً مسرحياً مثل «جان بول سارتر» .. أو مثل «البر كامى» .. أو مثل «صمويل بيكيت» .. أو مثل «يونيسكو» .. لا يمكن أن يقع فى خطيئة اتكائه على افتراض القداسة فى المتلقى لأى شىء .. وهو ان وقع فى هذه الخطيئة يقع فيها بنية اشعال الحرائق فى هذه القداسات وليس على نية تقبيلها والطواف حول محورها الدائخ من كثرة معاناة الطواف !آ

وهذه نقول من مسرحيات ترجمت الى العربية ، وفى كل قطر من أقطارنا يلتهمها الشباب المثقف القارىء ، لتصبح من بعد خلفيته الفكرية ، ولتشكل فى النهاية نوعية رؤيته للكون ، ونوعية عطائه فى مجال الأدب والفن على السواء .. لن يجدينا كما قلت فى مطالع هذه السطور أن نصمت حيالها كظاهرة ، فالصمت لايجدى .. ولن يطامن من زحفها الكاسح أن نتجاهل وجودها الحى ، فالتجاهل لا يحيل القضايا الى خرافات .. ان النعامة لم تهزم الصائد حين فى رمال اليأس دفنت رأسها أبداً ، ولكنها هزمت امكانية أن تحيا فى نفس اللحظة التى دفنت فيها رأسها فى الرمال !!

فى مسرحية « الشيطان والرحمن » لجان بول سارتر .. يدير المؤلف الحوار على هذا النحو :

جويتز : مات الله !!

هيلدا : مات أو عاش .. لا يهمنى . انقضى زمن طويل وأنا
لا أهتم به !!

جويتز : قلت لك : مات الله .. (يأخذها بين ذراعيه) لم يعد
عندنا شاهد .. سارى وحدى شعرك وجبينك .. لكم أنت
حقيقة منذ عرفت انه غير موجود !!
وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

جويتز : هاينريش .. سأطلعك على سر خطير .. ان الله غير
موجود .. غير موجود .. افرح .. أبك من الفرح .. ايها
المجنون .. اننى أخلصك .. لا سماء بعد اليوم ، لأجحيم ،
لأشئ سوى الأرض !!

وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

جويتز : ان الله يسمعنى .. وأنا أقطع الآذان نكاية فى الله ..
وهذا يكفينى .. انه عدوى الوحيد المساوى لى .. لا يوجد
الا الله .. وانا .. وأشباح الناس .. وسأصلب الليلة
الله (١) !!

وفى مسرحية «الذباب» لسارتر كذلك نقرأ هذا الحوار :

أورست : ماذا يهمنى جويتز ! العدالة هى قضية بشرية .. ولست
بحاجة الى اله ليعلننى ايها (٢) !!

(١) الشيطان والرحمن : جان بول سارتر .. ترجمة عبد المنعم الحفنى

(٢) الذباب : جان بول سارتر .. ترجمة دسهيلى ادريس .

وفي مسرحية «كاليجولا» لأبير كامى ... نقرأ هذا الحوار :

سيزوينا : كلا .. لن يقتلوك .. والا نزلت عليهم صاعقة من السماء فأهلكتهم قبل أن يمسوك .

كاليجولا : من السماء !! ليست هناك سماء أيتها المسكينة !!
وفي نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

كاليجولا : اننى أمارس سلطانا محموما فى التخريب ، يحيث أن سلطان الخالق يبدو بالقياس الى سلطانى تقليدا فاشلا .
وفي نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

كاليجولا : لقد أدركت أنه لا توجد سوى وسيلة واحدة لنكون فى مصاف الآلهة ..

يكفى أن نكون قساة مثلهم (١) !!

وفي مسرحية «سوء تفاهم» لكامى أيضا نقرأ هذا الحوار :

الأم : اننى أصرخ ولا أبكى ، لكن ألى هو ألم الاحساس بالحب وهو يولد من جديد فى قلبى .. ورغم ذلك فهو ألم فظيع ، وأعرف أنه غير معقول ، لكن العالم نفسه غير معقول ، ومن حقى ان أعلن أنه غير معقول بعد ان خبرته كله .. من لحظة الميلاد الى لحظة الفناء (٢) !!

(١) كاليجولا - البيركامى - ترجمة رمسيس يونان .

(٢) سوء تفاهم - البيركامى - ترجمة عبد المنعم الحفنى .

وفى مسرحية « العادلون » لكامى أيضا نقرأ هذا الحوار :

كالياييف : سنصبح كلنا أخوة .. وستجعل العدالة قلوبنا شفافة .. هل تعرف عن أى شىء أتحدث ؟

فوكا : نعم .. مملكة الله .

الحارس : اخفض صوتك

كالياييف : لاتقل هذا الكلام .. الله .. لا يستطيع شيئاً !!

وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

الدوقة الكبيرة : ان الدم يفصل بيننا ، ولكنك تستطيع ان تجعل فكرة الله تجمع بيننا فى نفس الفاجعة .. صل على الأقل معى .

كالياييف : انى أرفض .. لم أعد أعتد على موعدى مع الله (١) !!

وفى مسرحية « محطم الأطباق » لارمان سبالاكرو .. نقرأ هذا الحوار :

الشاب : اذن .. فاننى قدمت فعلا

محطم الأطباق : كلا

الشاب : وهل أنا قريب من أحد الآلهة ؟

محطم الأطباق : نعم

الشباب : اذن هناك آلهة كثيرة

محطم الأطباق : اننى اله الأطباق

الشباب : اله الأطباق ؟ انت تحطم وتقول انك اله — أو ليس عمل الله ان يخلق ولا يحطم ؟

(١) العادلون البركامى — ترجمة بسيم محرم وريمون فرنسيس

محطم الأطباق : (تاركا ثلاثة أطباق تسقط على الأرض) : !تنى
أخلق قطعا من الأطباق •

الشباب : ولكنك ان كنت الها فلا شك انك تعلم لغز هذا العالم

محطم الأطباق : نعم

الشباب : لقد سهرت لىالى بأكملها وعينى مركزة فى أنبوبة من
البلور ينعكس عليها ضوء شمعة • • وأعتقد انه يسكننى ان
أتبين الله بين ألوان الطيف جميعا •

محطم الأطباق : هذا ممكن

الشباب : ولكننى لم أستطع ذلك • • وهل تلهو بالأطباق كما يلهو
الله بالدنيا والأكوان كلها ؟

محطم الأطباق : واحطم الأطباق كما يحطمك الله

الشباب : لماذا ؟

محطم الأطباق : بحكم المهنة (١) ؟!

وفى مسرحية « أليس الصغيرة » لادوارد آلبى ، نقرأ هذا
الحوار :

جولييان : آه • • لقد فقدت ايمانى بالله

بتلر : آه • • (ثم نظرة تساؤل)

جولييان : هل هناك شىء آخر ؟

بتلر : هل هناك شىء آخر ؟

جولييان : حسن • • لاشىء ذو أهمية ، لقد انحدرت ، تفوقعت داخل

(١) المسرح الفرنسى المعاصر - دكتور لطفى فام •

نفسى .. هبطت تحت قبة زجاجية .. فى هذا الشك ..
كنت بعيدا .. لا يصلنى .. وأخيرا لا أصل الى شيء (١) !!
وفى مسرحية « الأفواه اللامجدية » لسيمون دى بوفوار ،
نقرأ هذا الحوار :

عجوز : يا الهى .. الطف بنا .. يا الهى .. ارحمنا !!
امراة : لن يرحمنا أحد .. لقد « انطرش » الله (٢) !!
بديهى .. ان هذه النقول قطرة من محيط لا ساحل له ،
وليست هذه أول مرة تطالعها جماهيرنا من خلال هذه السطور ، فأننى
أزعم انها حصاد كل يوم ، وقراءة كل لحظة من لحظات أجيالنا
العربية ، أولا : بما هى مترجمة وممثلة ومتداولة على مستوى العالم
العربى تقريبا .. وثانيا : بما هى كل ما لديه أو أعمق ما لديه على
مستوى حضارى وتكنيكى .. وثالثا : لأن الجانب الآخر .. اعنى
جانب الفن العقائدى .. ما يزال على مستوى البسداوة أو قل على
مستوى البوار !!

ان طلائع كتاب العبت .. واللامعقول .. والرفض ..
لم ينزلوا أرض المعركة بلا تخطيط مسبق ، ولم يضربوا ضربانهم
هكذا خبط عشواء ، ان كل حركة من حركاتهم محسوبة جيدا ،
ومصممة بلا تفريط ، انهم يعرفون بلا مبالغة كيف يحركون الصمت
الى جوارهم ، كيف يستفيدون حتى من القوضى والجمود ، ان الانطباع
الأخير لدى المتلقى هو ما يعينهم ، وهم يركضون الى هذه الغاية على
كل الجياد !!

« فى خطاب كتبه يونسكو الى المخرج « سيلفين دوم » أول من
قدم مسرحية « الكراسى يقول : لما كانت الفكرة المحسورية فى هذه

(١) اليس الصغيرة - ادوارد آلبى - ترجمة دكتور عبد العزيز حموده .
(٢) الأفواه اللامجدية - سيمون دى بوفوار - ترجمة عبد المنعم الحفنى .

المسرحية هو « الخواء » الانطولوجى ٠٠ أو « الغياب » فأننى أعتقد ان اللحظة الأخيرة ، اللحظة الحاسمة فى المسرحية يجب ان تعبر عن هذا « اللاحضور » ولذلك فانه يجدر ان يسدل الستار على أثر خروج الخطيب العاجز عن النطق بالرسالة بعد نزوله من على المنصة وتحيته للامبراطور ، فعندئذ سيعاين الجمهور - تحت ضوء صار ذا بلا معتما كما كان فى البداية - الكراسى الخالية فى ديكور خاو تزينه أشرطة وأوراق مزركشة وهو ما سيعطى الاحساس بالتعاسة التى يخلفها مرأى قاعة حفل بعد انقضاء الحفل ، وبذلك يكون كل شئ وقد وجد بلا معنى ٠٠ هذا الاحساس الذى يتعلق بالمنطق هو الذى نسعى اليه ويجب ان نحصل عليه « (١) »

وقد لا يواجهون قضية الانكار والرفض هكذا وجها لوجه ٠٠ ربما لأنهم يدركون جيدا ان حالة من العناد والتصميم تجتاح المتلقى اذا أحس ان الفنان يريد أن يقصره على شئ ٠٠ ومن هنا ٠٠ فهم يواجهون المواجهة مرة لأحداث نوع من الدهشة تذيب صدا العادة والبلادة فى ذهن المتلقى أو القارئ ٠٠ وهم يهربون من هذه المواجهة مرة أخرى عبورا الى مناطق التلقى فى فطانة وذكاء !!

« صحيح ان «أنوى» لا يتعرض لفكرة وجود الله بطريقة مباشرة كما يفعل «سالاكرو» مثلا ٠٠ ولكنه لا يكف عن طرق فكرة المطلق، مع التسليم الضمنى بعدم وجود الله » (٢) .

وقد يلجأون الى طرح قضيتهم عن طريق المعادل الموضوعى ، أى عن طريق خلق صور موضوعية تعدى المتلقى بنفس ما يريدون له من انطباعات ، انهم هنا لا يواجهون ولا يهربون من المواجهة ، ولكنهم يخلقون عالما بديلا أو قل عالما « معادلا » ٠٠ يستطيعون من

(١) مسرح العبث - دكتور نعيم عطية .

(٢) المسرح الفرنسى المعاصر - دكتور لطفى فام .

خلال تصالبه الفني مع العالم المعاش ان يقولوا لجماهيرهم ما يريدون،
بلا حركة استعداد .. وبلا انسحاب الى مناطق الصمت !!

يقول « روبير دولوبيه » في معرض حديثه عن مسرحية « سوء
تفاهم » لألبير كامى : « .. فى مورافيا .. أم وابنتها » مارتا « تديران
فندقا منعزلا فى الريف . ويأتى « زبون » غنى . فتضعان له فى
طعامه منوما وتسلبانه ماله ثم ترميانه فى النهر ، وذات يوم يطرق
الباب فيكون القادم « جان » الابن الذى غادر القرية منذ عشرين عاما
فلا تعرفه المرأتان (ذلك انه قد أخفى هويته) ويكون مصيره ان يلحق
بالآخرين فى النهر .

« هذا المكان المنعزل الذى يعمره المجرمون انما هو عالمنا العبثى
اللامعقول وان جان القريب الذى يطرق الباب هو السؤال المطروح
.. اما الجواب .. فهو الجثة التى تنتن عند سد النهر (١) » .

ان رصد ملامح التكنيك المسرحى فى أعمال هؤلاء الرافضين
ليس ترفا نتهى بالتحديق فى عينيه ، ولكنه ضرورة حياتية الى
جانب كونه ضرورة فنية بما هو سلاح قتالنا فى المعركة ، وبدونه
تبقى أسلحتنا هجومية بلا هجوم !! ولكن مثل هذه الدراسة العجلى
لا يمكن أن تنكفىء على رصد هذه الملامح ، فكل همومها ان تدق
أجراسا ، وتقرع طبولا ، وترفع رايات ، وللقادرين من بعد أن
ينكفئوا على هذه الدراسة الأكاديمية البحتة . من أين هذا المسرح ؟
والى أين هذا المسرح ؟ وما مقوماته الجمالية والتكنيكية والحضارية ؟
الى آخر ما يطرح فى هذا المجال من أسئلة بلا حدود !!

وقد أود ان ألقى بقفازى فى وجه المسرح العربى الحديث ..
فقطاع منه يتلهى بالتسكع الفاشل على ضفاف فكرة الزمن !! وقطاع

(١) كامو والتمرد - روبير دولوبيه - ترجمة سهيل ادريس .

منه يتغنى بانتصاراتنا التي أجهضها الواقع الضاغط حتى من قبل مواعيد ميلادها الطبيعي !! وقطاع منه يتلکأ على صدر مومس عجوز تبيع الحب في طرقات المدينة !! وقطاع منه يتهاوى تحت معاول عجزه الذاتي فلا يقوى حتى على مجرد أن يقول !!

ان مضمون المسرح العربى الحديث لم يتحدد بعد ، لم يتشكل حتى هذه اللحظات ، لم يعرف وجه قضيته الحقيقية ، وهو وحده المتهم والقاتل فى قضية انتماء كثير من شبابنا الى غير هذه الأرض ، ونضالهم أن ناضلوا كل طواحين الهواء !!

وليكن واضحا اننى لا أريد من وراء هذه الكلمات أن اصادر ثقافة وافدة ، أو أغلق نافذة مفتوحة على فكر حديث ، مهما كان لون هذه الثقافة أو لون هذا الفكر . اننى أكون جارما بلا حدود أن فعلت !! اننى أنفى نفسى من العصر الذى أعيش فيه أن حاولت أن أفعل !!

ان كل ما أريد هو ألا يكون صوت واحد صارخ فى البرية . . لابد من تعدد الأصوات ، لابد أن نقول كلماتنا نحن كما نبيح الآخرين أن يقولوا كلماتهم أبدا ، لابد أن نجد صيغة ما لمضمون حضارى ما يشكل فى نهاية الأمر رؤيتنا للكون ، وموقفنا من الله ، والتزامنا نحو الآخرين . . اما أن يستحيل فكرنا الى ملامسة . . وأدبنا الى متادمة . . وفننا الى استهواء غرائزى رخيص . . فهذا ما نرفضه . . وعلى جبينه الداعر ندوس . . وندوس !!

ان التبعة هنا ذات شقين . . فواجب المثقفين العقائديين ان يناقشوا جذور هذه الفلسفات على مستوى فكرى بلا حماسيات مبحوحة جوفاء . . وواجب الفنانين العقائديين ان يبدعوا فنا بلا جلبة ، فنا يستوحى هذا التراب ، ويستلهم هذه الأرض .

ويعطى من اكتنازه الذاتى بآلاف المواعيد !! هذا هو الطريق ..
الطريق القاصد بلا شعاب !!

.. ان التصدى لهذا الفكر ليس تبعة الفنان العقائدى وحده
ولكنه تبعة كل المبدعين .. ان مقالاتنا ، وبحوثنا ، وجرائدنا ،
ومجلاتنا .. يجب أن تتصدى لهذا الفكر .. فى محاولة للاستيعاب
من البدء ، ومحاولة أخرى للعطاء من بعد .. اما ان ننكفى فوق
ما تهرأ من طول ما كتبنا حوله ، ومن طول ما أثرنا فيه من حوارات ،
فليس قضية العصر ، وليس التزام أى من المبدعين الشرفاء !!

اننى واحد من الذين يقرأون دوريات العالم العربى - أو قل
جانبا منها - ويصيبهم من ذلك دوار بلا حدود .. ان شهوة النشر ،
واكتناز الرصيد ، وإيثار السلام ، هى ما يحرك قطاعا هائلا من
الذين يلطخون وجه الورق الأبيض بمزيد من الحبر الأسود .. وليس
أبدا الغيرة على راية سقطت فى أحوال عصر كل ما فيه شاهد زور !!

فلنتحرك من منطلق العقائدية وليس من منطلق الوثوب
الاستفزازى !! ولنضرب بسيف الحق لا بسيوف الأنانيات !! ولنقل
كلماتنا المثقفة وليس كلمات من ماتوا بلا دفاع !! ولتسقط كل الأقنعة
عن كل وجوه الكاذبين !!

هذا الزحف .. من يتصدى له ؟؟

- ٢ -

حين نشرت الدراسة السابقة (هذا الزحف من يتصدى له ؟)
في عدد شوال ١٣٩١ هـ ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧١ م على
صفحات مجلة الوعي الاسلامي ، محاولا من خلالها أن أعبئ لثورة
عقائدية في الفن تصالب ثورة الالحاد في الفن على كل العقائد والموروث
الديني هنا وهناك ، كنت أطمح الى اشتجار جدل حقيقي حول هذه
الدعوة الى التعبئة ، وليس الى تناؤب مرضي يسحب عليه غطاءه
وينام !!

وفي عدد (صفر) ١٣٩٢ هـ من الوعي الاسلامي قرأت أول
أصداء هذه الدعوة . بحثا بحجم ثقافة عصرية واعية ، كتبه الصديق
الشاعر يوسف حسن نوفل المدرس بالكويت تحت عنوان (هؤلاء
المتصدون من يدعمهم ؟) !!

وبدءا .. نحن لم نختلف حول محاور الدعوة الصميمة ،
وان كنا قد اختلفنا بعض الشيء في منظوراتنا حول تطبيقية المقولات

في الفكر الاسلامي - ١٧٧

٠٠ اننى لا أكتب الآن ردا على الصديق الباحث الشاعر ، ولكنى أكتب استدراكا ، أو قل اننى أرفع يدي لمجرد الاستفسار عن أشياء !!

وقبل أن أستطرد ٠٠ فقد يكون من المفيد أن أوجز رؤيتي للقضية ، وإن أوجز كذلك رؤية الصديق للقضية، ثم أرفع في نهاية الرحلة يدي متسائلا ٠ وللصديق ان يمنح جوعى الحقيقى قرى اجاباته على كل ما أثير من تساؤلات :

قلت وأقول : اننا على مستوى العالم الاسلامى - نواجه كل القضايا الصميمية بمزيد من لزوجة الصمت ومزيد من لزوجة اللامبالاة ، فى نفس اللحظة التى يتحرك فيها الآخرون بمزيد من بنادق الوعي ، ومزيد من رايات الاستبصار !!

وقلت وأقول : أن فننا العقائدى يتكىء فى تحركه - ان تحرك - على فرضيتين : أولاهما أن العقائديات ليست فى حاجة الى من يناضل عنها ٠٠ وثانيتهما ان هذه العقائديات تملك من قدراتها الذاتية على الاشعاع والتوصيل ما يغنيها عن معاناة الدعاة وكدح الراشدين !! وهذه فيما يخيل الى مقولات باهظة غيبة تطفئ احداق الدعوة واحداق الدعاة على السواء !!

وقلت وأقول : اننى لا أصادر الفكر النقيض ، ولا يمكن ان أدعو الى مصادرته ، لأن معنى ذلك اذا حدث اننى أنفى نفسى من العصر الذى أحياء من جهة ، واننى أصادر رافد الحصب الحقيقى - وإن كان نقيضا لايهم - فى حقول فكرنا العقائدى وقتنا العقائدى جميعا من جهة أخرى، وتلك جريمة لا يتصدى للعمل فى رهبها الا المهرجون !!

وقلت وأقول : ان ما يقرؤه شبابنا فى هذه المرحلة لا يعدو ان يكون واحدا من اثنين :

١ - فكر بلا فن ، وفن بلا فكر ، هذا على الشاطئ العقائدى !!

٢ - فكر مبطن بالفن . وفن مائج بحركة الفكر ، هذا على الشاطئ
اللاعقائدى !!

وحتى لا آتهم بتسطيح قضية من أخطر قضايا فكرنا المعاصر
بلا تحفظ حددت لنفسي محاور من خلالها قلت ما قلت . . قلت ان فى
المسرح الغربى ، والرواية الغربية ، والشعر الغربى ، نزوعا الى
مصادرة مقولة (الله) ربما تبدأ بخلخلة الجذور ، وربما تنتهى الى
اقتلاع الشجرة ، مروراً بالأكباب على بتر شروشها مرة ، وعلى
اجهاض ثمارها مرة أخرى ، هكذا بلا توقف وبلا مبالاة!! وقلت -
من خلال احصاء مقارب استشهادى - ان نمطا من أنماط هذا الابداع
الفنى المكرس لهذه الغاية وهو (المسرح) قد ضرب فى هذا الصدد
ضربات الفاجعة ، مؤسسا كل خطوة من خطواته على اقتدار فنى ،
وعلى استبصار ثقافى بطبيعة المرحلة ، وطبيعة العصر ، وطبيعة
الشخص الذى تتعامل معهم هذه الكلمات !! وقد حاولت ان
استكنه ملامح هذه الحركة الفنية القاصدة الى خلخلة ايماننا بكل
شئ ، مستنهضا ملكات وأقلام أدبائنا وفنانينا ونقادنا جميعا على
طريق التصدى لهذا الزحف المسلح بكل امكانيات عصره الخلاق !!

قلت وأقول : ان مسرحنا العربى فى مواجهة هذا الزحف -
واحزن معى ان شئت - ما يزال قطاع منه يتلهى بالتسكع الفاشل
على ضفاف فكرة الزمن ، وقطاع منه يتغنى بانتصاراتنا الوهمية
التي أجهضها الواقع الضاغط من أول لقاءاته معها ، وقطاع منه يتلصق
على صدر مومس عجوز تبيع الحب فى طرقات المدينة ، وقطاع منه
يتهاوى تحت معاول عجزه الذاتى فلا يقوى حتى على مجرد أن يقول !!

هذه محصلة مقولاتى التى حملها مقالى الأول ، واعتقد ان لقاء
المقال أجدى بكثير من القناعة بمجرد المرور المسطح على حروف هذه
المحصلة مهما كانت قدرتها على حمل ملامح هذا المقال .

وقبل ان أدير نقاشا من أى لون ، فلأغامر بتحديد ملامح مقال الصديق يوسف حسن نوفل (هؤلاء المتصدون من يدعمهم ؟) ، وعذرا من لحظة البداية اذا كبوت على طريق فهمى الجاد لمقولات مقاله الممتع ، وآمل ان تجنبني المعاناة مرارة العتار على هذا الطريق !!

يقول الصديق الباحث : ان انسان الثلث الأخير من القرن العشرين قد تعرض لهزات عقائدية فادحة مهد لها التطور الحضارى بانجازه المادى من جهة ، وببروز عمالقه الملحدين من جهة أخرى ، وبتدفق الحس المأساوى القلق المصاحب لتطور أدوات الحرب من جهة ثالثة . . وقد زكى هذا الصدع الفاجع انشطار العالم الى شرق وغرب ، وإيمانه الأعمى بمنطق القوة المغرورة بلا حدود .

ويحيل الصديق الباحث الى هذه الأسباب والدوافع التى أسلف بروز تيارات الالحاد المعاصر مرتبا فيما يشبه الحتمية هذه النتيجة على هذه المقدمات !! ثم يمهد لقضية (الفن العقائدى) - التى من أجلها يدور هذا الحوار - باستعراض آراء (تشارلتون) الذى يرى ان الفن ينبغى ان يكون (تصويرا للواقع كما هو) - ولا أدري كيف ؟ - (وتولستوى) الذى يرى ان الفن المعبر عن الدين فن جيد ، وما عداه فهو فن ردىء !! ويسوق الصديق نماذج من كتابات أدبائنا - فى مجال القصة - يستوحون فيها تراثنا العقائدى ، على مستوى الارتباط الميكانيكى مرة ، ثم على مستوى التحرك من خلال اطار عام مرة أخرى ، ثم على مستوى الاهتمام بالأولياء وكراماتهم واحفالهم ومواسمهم وعاداتهم آخر الأمر !!

ويستطرد الصديق الى رصد نتائج اجتماع اليونسكو عام ١٩٦٩ وخروجهم بنتيجة ان الثقافة العربية المعاصرة لا تحتل المكان اللائق بها فى عالم اليوم !! ثم ينمى فى نهاية مقاله الممتع بحق على نقادنا تنطعهم اللامحدود فى انقاض رؤسهم عن كل فن له محتوى عقائدى ، بلا تبرير لهذه الحركة العدوانية الصماء !!

هذه محصلة المقولات الصميمة التي يمكن ان يكون مقال الصديق الباحث قد دار في محاورها ربما على وجه اليقين . . وآمل ان أكون قد وفقت في نشدان هذا القطع اليقيني .

فهل يأذن الصديق لي الآن بأن أرفع يدي في محاولة مخصصة للتساؤل المتشوف الى مزيد من اطلاعات ضوء على هذا الطريق ؟؟

كان مقال صيحة احتجاج على عشوائية الخلق في فننا المسرحي ، ولم أكن بعد قد خطوت خطواتي على طريق التأمل في ملامح القضية الروائية والقصصية في أدبنا العربي ، وهي القضية التي استقطبها مقال الصديق الباحث ربما امتدادا وليس معارضة لمقال الاول ، ولكننا على الرغم من كل ذلك نختلف هنا في عديد من الأساسيات !!

أولها : اننى - ودع الجانب التاريخي في مقال الصديق - لا أوافق على ان نتناول القضية على مستوى فني وعقائدي معا من هذا المنطلق ، فحين تحركت بهذه القضية من مخاضها الفكري الى واقعها الحلولى لم أكن أريد بها هذا اللون من ألوان اللقاء (مصادفة) مع الفكر العقائدي ، فما أكثر هذه اللقاءات اللقيطة في أدبنا المعاصر ، وانما أردت لها ان تكون قضية وجود كوني مقاتل على كل الجبهات في آن ، اعنى اننى اردت لهذه القضية ان تستجيل في أدبنا العربي الى ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح (الخلفية الفلسفية) ينزع عنها الفنان نزوعه عن نبضات الوعي في شرايينه ، أعنى أن تكون هذه الخلفية العقائدية خبزه وهواءه ، لا يتحرك الا من خلالها ، ولا يصدر الا عنها ، ولا يتيح للجدل الجانبي أن يصرف وجهة عنها بما هي أساسا حركة حلولة الجواني في الكون وحركة جدله البراني مع ظواهر هذا الكون اذا استعرنا بعضا من هذه المصطلحات !

ان نجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعلى أحمد

باكثير ، وعبد الحميد جوده السحار ، أولئك الذين استشهد بهم الصديق الباحث في مقاله لا يمكن ان يكونوا نموذج هذا العالم العقائدى الذى ينزع عن خلفية فلسفية عقائدية ، وبالتالى لا يمكن حتى ان يكونوا قلعة صمود على الأقل ، حين لم يستطيعوا ان يكونوا جبهة فتح وانتصار .. ان الوجودية بمضمونها الملحد عند واحد كجان بول سارتر تشكل خلفية كل أعماله على السواء . الفكرية ، والفنية ، والأكاديمية جميعا ، فهل نستطيع ان نقف واحدا من هؤلاء الأدباء العرب مع سارتر على هذا المستوى الصميمي؟ أوشك ان أصرخ : ألف لا .. ولا !! فمثلا نستطيع فى أدب واحد كنجيب محفوظ - على روعته وقيمته اضافاته - ان نعثر ليس على قضية محور تستقطب أبعاد تحركه الفنى من شتى الاتجاهات ، وانما نعثر بلا تردد على امشاج هائلة من البنى الفكرية . والرؤى العقائدية ، والتجارب الروحية ، وليت كل ذلك كان صميم المجرى الفنى للكاتب المبدع يعمقه من مستوى الى مستوى جديد ، ان الواقع الفنى لكاتب مثل نجيب محفوظ يؤكد بالضرورة صيرورته المستمرة ، من الكاتب الملامس للأشياء ، الى الكاتب المتأمل للأشياء ، الى الكاتب الحائر فى مواجهة كل الأشياء .. ان الموت اللامبرر ، والعشوائى ، والفاشم ، يطل كواحد من المصائر اللازمة لأبطال هذا الكاتب ، ان الأسئلة الطفلة عن الحب ، والموت ، والله ، لا تجد فى مساحات الواقع الفنى لروايات الكاتب العربى وقصصه اجابة واحدة مقنعة ، وهى ان وجدت اجابة ايجابية مرة ، فسوف تواجه اجابات قلقة غير واحدة من المرات !! فهل نستطيع مع هذا الكاتب أن نقول : انه كاتب عقائدى ؟؟ هل نستطيع مثلا فى رواية (أولاد حارتنا) أن نبايع نجيب محفوظ حتى بمجرد الادعاء العقائدى على النحو الذى ندير من حوله هذا الحوار !!

ان نجيب محفوظ ثروة قومية وأمية على مستوى فنى لا أجادل فى ذلك على الاطلاق ، ولكنه على مستوى عقائدى واحد

من ملايين الراكضين على سفوح القلق الوجودى بلا قرار ، وربما كان هذا القلق واحدا من العناصر الهائلة التى تعطى ابداعه مذاقه الخاص!! ولكنى لست عن كل أولئك أبحث - اننى باحث عن الفنان العقائدى الذى ينزع فى تحركه الفنى عن خلفية فلسفية عقائدية صامدة ، لا أعنى نزوعا جامدا يبدأ من حيث ينتهى ، وينتهى من حيث يبدأ بلا ملال .. وانما أعنى نزوعا متخلقا متناميا متسقا ، يكتشف من خلال تجاربه ذاته وأبعاده ، ويطور من خلال مغامراته رؤيته الصميمية ، لله - والكون - والانسان .. الشرط التاريخى الوحيد الذى أضعه هنا هو ان يكون مؤمنا أساسا بهذه العند الثلاثة : (الله .. والكون .. والانسان) !! وتستطيع ان تقول فى أدب عبد الحليم عبد الله ، وعلى أحمد باكثير .. وعبد الحميد جودة السحار .. وغيرهم وغيرهم .. نحو من هذا الذى قلت فى أدب كاتبنا الرائع نجيب محفوظ !!

ثانيها : اننى أرفض أن يكون الوعظ من جهة ، والخرافة من جهة أخرى ، طريقنا الى محاولة الترشييد العقائدى ، وما أشك فى ان الصديق الباحث يوافقنى على ان مجرد ذكر الاسلام فى قصة أو رواية لا يعنى بالضرورة ان هذه القصة أو هذه الرواية يمكن ان تكون خلقا عقائديا مسلما على الاطلاق ، وما أشك فى انه يوافقنى كذلك على أن احتواء الخرافة التى تستشرى فى ريفنا العربى حتى وان كان محورها دينيا لا يعنى على الاطلاق احتواء ظل من الحسن العقائدى خاصة على المستوى الاسلامى الذى يرفض منذ البدء منطق الخرافة ، ومنطق التدين الأبله الساذج المتسكع فى دروب الهلوسات !!

ان الصديق الباحث - وهو بصدد اعداد رسالة الدكتوراه عن الفن القصصى - يعلم أكثر مما أعلم ان روائع الادب العالمى التى لامست قضية الدين كانت تحمل هموما أكبر من مجرد الوعظ ، وأعمق من مجرد الهروب فى مستودع الخرافة .. ان أعمالا من

أمثال : (الاخوة كرامازوف • لديستوفسكى) • (والأخوة الأعداء •
لكازانتزاكس) • (والغثيان • لجان بول سارتر) (والطاعون •
لالبير كامى) • (والقصر ، والمحكمة • لكافكا) • وعشرات غيرها
كثيرة ، لم تتلأ على أرصفة التناول الهش لقضية من أخطر قضايا
الفكر العالمى ، وانما واجهت قضيتها - رفضا وقبولا - بحس
المسئولية وهيبة الفن ، فأتاحت بذلك لنفسها سيرورة مجذرة في
تربة كل العصور !! فهل نجم فى أدبنا العربى حتى اليوم عمل واحد
فنى يسامت واحدا من هذه الاعمال !! ان عيتنى على العصر الذى
نحياه ، على احباطنا الحضارى ، على وقوعنا فى المضايق ، على
الحصار الوضعى الذى نعانى من كبوله وسيوله !! ولكنى مع كل
أولئك لا أستطيع ان أغفل قضية اننا نتنفس من خلال قرون وموارث
كان من الممكن ان تشكل فى وجداننا الفنى رافدا متنامى العطاء
يقفنا فى النهاية على مستوى الندية الصميمة لأولئك الأغيار ، وهذا
ما لم تلح له إيماضة واحدة ، حتى إيماضة واحدة على أفق حياتنا
المركوم بظلام الظلام !!

ثالثها : ان طموحى يمتد الى ملاقة فنان عقائدى مثقف بثقافة
عصره وكل العصور ، أعنى ان رعيلا هائلا من فنائنا المبدعين قد يكون
مثقفا بثقافة العصر ، ولكنه مجذب تماما فى قضية احتوائه للتراث ،
تراثه هو ، وهذا واحد من العوائل الصميمة فى حركة عجز هذا
الفنان عن استيعاب تجربته العقائدية ، وبالتالي عجزه عن استقطابها
فنا رائعا فى مسيرة ابداعه الكمى والكيفى ، وأذكر اننى كتبت فى
هذا الصدد على صفحات (الوعى الاسلامى) تحت عنوان : (دعوة
الى أدب اسلامى) • ومرة أخرى وأخيرة ، أمل ان لاتفهم هذه الدعوة
على انها تفوق داخل جغرافية ثقافية أو حتى روحية مغلقة ، ان معنى
ذلك لو حدث ان يستحيل الفكر العقائدى ، والفن العقائدى جميعا

الى استحلاب ذاتى مريض يرفض شمس العالم وهواءه ، ثم ينتحر
فى غرفه المغلقة غير تارك وراءه سوى قدر البوار !!

ان نوعية الثقافة التى ادعو الى احتوائها هنا هى (الانسانية)
أحجاما وأغوارا ، ثم التحرك بهذه الثقافة الانسانية الشاملة فى
اتجاه تأصيل عقائدى بمنهج (الفن) ومنطقة ، وليس بمنهج
الدعاية والخرافة من جهة . . وليس كذلك بلا منهج على الاطلاق !

هذا هى المحاور الاساسية الثلاثة فى قضيتى بلا هروب من
قدر المواجهة . . المحور الاول هو ان منحى القضية الصميمى
ان يولد على خريطة الوطن الاسلامى هذا الفنان العقائدى الذى
ينزع فى تحركه الفنى عن خلفية فلسفية مكتملة أو متنامية ، بلا
جنوح للتخبط فى دياجير التناقض أو احتطاب امشاج الحلول !
والمحور الثانى هو ان يكون طريق هذا الفنان الى ابداعه العقائدى
ليس الوعظ الدعائى بما هو مقولة مرفوضة فى منطق الفن ، وليس
الخرافة المسطحة بما هى حركة مبرورة لا تستطيع ان تواجه شمس
الحقيقة الكونية !! والمحور الثالث هو ان تكون هموم هذا الفنان الأمل
ان يحرك فى اتجاهه ثقافة عصره وكل العصور ، قابضا فى حركة
ابداعه على قيمة وضعيته العقائدية ، غير هارب فى اردية التوافق
الجماهيرى من هويته الذاتية التى قد يوصم معها بالجمودية ،
والرجعية ، والأورائية . الى آخر ما فى جعبة الاغرار من شعارات
فارغة جوفاء متأكلة الجبين !

فهل - فى أدبنا العربى المعاصر اليوم - حتى ما يوحى بميلاد
مثل هذا الفنان المبدع الخالق ؟؟

وهل - فى أدبنا العربى المعاصر اليوم - حتى ما يوحى الى
ميلاد مثل هذا الفن المغامر المدجج القابض على أمل الخلاص ؟؟
أترك الاجابة للذين يستطيعون !!

الفن العقائد .. بين الزحف .. والتصدي .. وتساؤلات خرى

- ٣ -

فى كل قضايا الفكر ، يبدو الحوار أروع طريق الى تكامل المقولات ، وخاصة حين يكون أطراف هذا الحوار مسلحين ببراعة الداخل ونظافة القلم ..

ان المعارك الفكرية التى نشبت منذ مطلع القرن العشرين : بين العامة والفصحى من جهة ، وبين القديم والجديد من جهة أخرى ، وبين الأدب بما هو مقالة ومقامة والأدب بما هو قصة ورواية وملحمة وشعر تمثيل من جهة ثالثة ، وبين الفن القائد والفن الصدى من جهة رابعة .. ان المعارك الفكرية التى نشبت حول هذه القضايا الصميمة كان يمكن ان تكون أكثر جدوى لو ان حملة القلم الذين خاضوا غمارها كانوا على درجة أعلى من التزام المنهج الموضوعى ، أو قل لو أنهم كانوا يهدفون الى تأصيل قيمة فكرية أو فنية ولا يهدفون الى تهديم بعضهم بعضا فى نفوس جماهير القارئین ... ربما كانت الحزبية الوبيلة ، والنعرات الطائفية النابحة ، والهوس العرقى

الفادح ، بعض بواعث هذا الجنوح الخابط في هذه المعارك الهائلة مع الاعتراف البدئي بأن هذه المعارك كانت نقطة انعطاف في تاريخنا الفكرى المعاصر ، ولكنها كان يمكن ان تكون أكثر صميمية وجدوى لو انها كرست كل طاقات أقلامها للإبداع لا للاقذاع .. وللحوار لا للشجار !!

من الذى يصدق ان قامات في مثل قامات لطفى السيد وطه حسين والعقاد وهيكل والمازنى والرافعى وقاسم أمين وأحمد أمين وزكى مبارك وأمين الحسولى ومحمد مندور ، كانت بعض أطراف الحوارات المندلعة في أدبنا العربى منذ مطلع هذا القرن حتى أواسط الستينات ولا يكون من هذه المعارك الفكرية رصيد (موضوعى) يمكن ان يكون أساسا لنهضة فكرية وفنية شاملة تضع أدبنا العربى على مستوى الندية الكاملة لما عداه من الأداب العالمية الكبرى التى استقطبت هموم الانسان الروحية والمادية وعاشت بها هتافا في كل شفة قارئة ، ووعيا في كل خلد مفكر أو فنان ؟؟

ان غياب المنطق الموضوعى يقف من وراء هذه الرجعة الفاجعة ، ويشكل واحدا من أفدح العوامل الوراثية في قضية فكرنا العربى المعاصر الضائع في مفارق الظلمات !!

توقفت عند هذه المقدمة لأدلل على شيء .. ان قضية (الفن العقائدى) يمكن أن تكون قضية ناتلف من حولها ونختلف ، .. ولكنها لا يمكن أن تكون قضية الائتلاف وحده ، أو قضية الاختلاف وحده ، انها قضية كل الأطراف . الفكر المكرس والفكر النقيض ، لأن غياب ضلع ضوئى واحد يعنى غياب (الكل) فى المنشور الضوئى بلا محاولات للتجزئ ..

الذى يحمل راية الدعوة الى (فن عقائدى) هو الذى يحمل

المعول في وجهه مصححا أغلاطه صديقان .. وصديقان (للفن
العقائدي) بالدرجة الأولى ...

ومن هنا .. كان احتضاني لكل حروف الكلمات في مقال
الصديق الشساعر يوسف حسن نوفل : (هؤلاء المتصدون من
يدعمهم) (١) و (قبل الزحف والتصدي ما هوقفنا الحضاري) (٢)
امتدادا لمقالين لي : (هذا الزحف من يتصدى له) (٣) و (بل هذا
الزحف من يتصدى له) (٤) ...

ان براءة الداخل ونظافة القلم ، يتوهجان في كل حروف
كلمات الصديق ، وأعرف انني عند كل كلمة أقنص ثراء لي ،
أمتد في مسافات الفكرة أبعد وأعمق ، أتعرف على نوعية ناضجة
من الحوار الراشد المثقف .. وهكذا يتغير وجه القضية ، فيحتل
الابداع موقع الاقذاع .. وينحى الحوار شياطين الشجار !!

لقد كانت قضيتي (وما تزال) أن الصمت في مواقع الفكر
والفن لا يجدي وان تجاهل الواقع الآن لا يشجب القضايا النقيضية
بقدر ما يرسخها ، وان أيا من العقائديات لا يمكن ان تدافع دفاعا
ذاتيا عن مقولاتها (لا بد من أنسنة هذا الدفاع - أي اناطته بانسان)
وأنا - على المستوى الفكري والعقائدي - نواجه حتمية أن نكون أو
لا نكون ، وأن فكرنا لا يمكن بغير الابداع أن يحيا ، لا يمكن أن يكون
جلادا يهزم بالسوط معارضيهِ ، وان فكرا مسلحا بكل تقنيات عصره
يهاجم هذه المنطقة بلا حدود ، وان ابداعات شبابنا في هذه المرحلة
أخذت تطفح بمرارة العبث والرفض (وهذه محصلة لروافد قرائية

(١) عدد صفر ١٣٩٢ هـ من مجلة الوعي الاسلامي .

(٢) عدد صفر ١٣٩٣ هـ من المجلة .

(٣) عدد شوال ١٣٩١ هـ من المجلة .

(٤) عدد جماد الأولى ١٣٩٢ هـ من المجلة .

احتلت مواقعها في المسرح والقصة والرواية والشعر) ، وان الفكر الهاجم لا يقع فيما تقع نحن فيه من افتراض أن المتلقي مؤمن بكل شيء (ومن هنا نلامس سطوح الأشياء ولا نصل الى زلزلة قيعانها الكاسدة) ، وان مفكرين من أمثال سارتر في : (الشيطان والرحمن) وألبير كامى في : (كاليجولا) و (العادلون) وسبالاكرو في (محطم الأطباق) وسيمون دي بوفوار في (الافواه اللامجدية) وآخرين .. وآخرين .. لا ينزعون في أعمالهم الفنية عن نشر قناعات ممزوجة تطل مرة من هنا ، وتغيب مرات هناك .. ان خلفية فلسفية تملئ على أقلامهم كل ما يقولون .. ان (الوجودية) هي الخلفية الفلسفية لكاتب مثل جان بول سارتر وهو في كل ابداعه الفكرى ، والفنى ، والفلسفى لا يكف عن اثراء هذه القناعة ، وتأصيل هذه الفرضية ، انه لا يصادف (الوجودية) من خلال عمله المسرحى وحده فحسب ، انه ينزع الى التعبير عنها من خلال معطياته المسرحية والقصصية والروائية والفلسفية ، (وهذا ما أسميه بالفن العقائدى) !! وأتساءل في نهاية الرحلة : هل في أدبنا العربى مثل هذا الفنان ؟ هل فيه مثل هذا الفيلسوف ؟ وأجيب بالقطع : لا !! وأزعم اننى غير جاهل بنبضات الوعى العقائدى - من خلال الفن - فى أبعاض شاحبة من ثمار عقلنا العربى المعاصر ، ولكننى - كما كررت - لست عن هذا أبحث ، وليست هذه قضيتى .. ان قضيتى ان يكون الفنان العربى محتقبا لمنظور فلسفى كامل ، لنظرية عقائدية تفرض حلولها الوجودية من خلال الفن ، لرؤيا كونية متخلقة أو متنامية تندلع من جذوة اننا من هنا لا من هناك ، واننا قادرون على التصدى لما يمكن ان يكون نظرية فى الفن ، فنحن وإرثوا أجيال من ثقافات العالم أو هكذا ينبغي لنا ان نكون

ان الفاجع - بالضرورة هو ان تظل المنطقة العربية - على المستوى الفنى - حتى الآن بلا محتوى عقائدى .. مع مسلمة ان هذه

المنطقة نفسها هي من صدر الى العالم القديم والمعاصر كل قيمه
العقائدية .

فليقل لي الصديق يوسف حسن نوفل . . . هل استطاعت
المنطقة العربية (على المستوى الفنى العربى المعاصر) أن تعطى هذا
النموذج العقائدى ، مع التسليم البدئى بأن هذه المنطقة العربية
يمكن أن تكون أقدر من غيرها على اعطاء هذا النموذج العقائدى
الفنان ؟؟

يقول الصديق . . ان المعاناة الحضارية التى حاصرت المنطقة
تحت وابل من الاستعمار والتبشير وتخيم التخلف هى المسئولة
عن ذلك . . .

ومن هنا - يقول الصديق - (فاني لا ألقى بما أحمل من
هموم فوق رأس الأديب العربى فأغرقه من شعره الى أخمص قدميه ،
وأطلب منه موقفا فنيا عقائديا وفلسفة حضارية ، بل أكاد أبرئ
موقف الأديب - أقول أكاد - لأن الأديب نتاج بيئته ومجتمعه بما
يحملة هذا المجتمع من مثالب ومحامد ، فإذا كان مجتمعنا فى حيرة
من أمره ازاء اصطخاب عالمه بغزوات متعددة متلاحقة متناقضة
متضاربة ، أفلا يكون شيئا حتميا ان يحار الأديب ويضطرب ؟)
* * *

وأود هنا أن أوافق الصديق الباحث ، ولكنى - أكاد - أن
أخالفه ، فالمنطقة العربية تحمل من المعاناة أرتالا هائلة ، ولكنها
كذلك تحمل من التمدد فى أعراق التاريخ ما لا يحمله غيرها ؛ هذا
شيء . . . والشئ الآخر ان هذه المعاناة كان يمكن أن تكون محورا
لتفجر فنى بلا حدود . . . كان يمكن ان تكون تجربة مأساوية للأحمر
وليست للنخبة واحدة ، والشئ الثالث هو ان انفتاحنا على الثقافة
الغربية - فيما اعتقدت - بلغ من عمره الآن قرابة قرن ونصف القرن

أو يزيد ، أفلم يكن من المستطاع أن يولد على أرض هذه المنطقة خلال هذه المرحلة الهائلة فنانون عقائديون يتحسسون أعماقهم وتراثهم وتجاريبهم المأساوية فيما يعكسون من فن ، وفيما يعطون من ابداع ؟

ألا يوافقني الصديق على أن أدبنا العربي بفنونه المتشعبة كان يمكن ان يكون أقرب الى التكامل المذهبي لو انه صادف فنانه الحقيقي ، الذي ينزع عن فكر فلسفى متكامل أو متنام على الأقل ، ولكن فى اتجاهه الصاعد وليس فى كل اتجاه ؟؟

ان التصور الأول لمقال الصديق عن التخلف الحضارى كان يمكن ان يكون نقطة تحسس لمواقع خطواتنا على الطريق ، وليس نقطة احباط ديمومى بلا فكاك !!

ان التصور الثانى لمقال الصديق عن النماذج التى أشار اليها فى أدبنا العربى ليس بحاجة الى مناقشته ، لأن الصديق - كما يقول - لم يقصد به النموذج الأمثل لانتاج عقائدى (ولكن اشارته الى نجيب محفوظ ، والى دراسة أحد الباحثين عن (الاسلام والروحانية فى أدب نجيب محفوظ) بهدف تنصيب نجيب محفوظ فنانا عقائديا لمجرد انه قال فى رسالة الى المؤلف انه لم يجد تناقضا بين أحكامه عليه وبين نبض قلبه الخاص . فلا أدري ماذا فى هذه الكلمات يمكن أن يدعم دعوى ان نجيب محفوظ فنان عقائدى .. وهى دعوى لا يعطيها على الاطلاق أدب كاتبنا العربى الكبير ، وربما كان البحث الدائخ عن مجرد (اقتناع ذاتى) فى مجال العقائديات هو أكبر هموم كاتبنا على الاطلاق .. بمعنى انه ما يزال - وعفوا لنجيب محفوظ - فى طور الانفعال القابل ، ولم يصل بعد الى طور الفعل القادر على تحريك الآخرين فى اتجاهه المحتوى بلا هروب !!

ان التصدى الثالث لمقال الصديق عن عبز أدبائنا ومفكرينا
عن استقطاب المذاهب الفنية والاتجاهات الأدبية العالمية للخروج
منها بمذهب خاص يؤيد ما ذهب اليه ولا يناقضه ، ولكنى اختلف
معه فى تصور أن دعوتى تبدأ من هنا أو تنتهى الى هناك . . انى
ما قصدت أن أشايح أحدا دعا الى لون من هذه الألوان . . . فهم
يتحدثون عن مدارس الفن من كلاسيكية الى رومانتيكية الى رمزية
الى سريالية الى لا معقولة بهدف استيعاب هذه المدارس أو التحرك
من خلالها . . وأنا أتحدث عن فن عقائدى يؤمن بنظرية كاملة فى
الكون ، بفلسفة خاصة فى الوجود ، ثم يصدر عن كل ذلك فى
إبداعه لا يهم أن يكون فى شكل كلاسيكى ، أو فى شكل رومانتيكى
أو فى شكل رمزى أو فى شكل سريالى أو فى شكل اللامعقول . .
لأن كل واحد من هذه المذاهب الأدبية وجد فنانه الذى يهاجم تحت
رايته فكرة (الله) ولعل الصديق يذكر أكثر مما أذكر أنا . ان
مسرحة يونسكو اللامعقولة (فى انتظار جودو) تنتهى الى تأكيد
أن انتظارنا لمجىء الله خرافة بلا طائل وبلا مضمون !!

أريد أن يجيء الفنان العقائدى الذى يؤكد قناعته النهائية
بوجود الله من خلال أى شكل . . من خلال كل الاطارات . . وهذا
فرق ما بينى وبين الداعين الى هذا الاتجاه !! اننى باحث عن قضية
فى اطار وهم باحثون عن مجرد اطار !!

ان التصور الرابع لمقال الصديق عن أزمة الثقة بين الفنان
وجماهيره يوشك أن يكون معنى بلا اختلافات . . فلو أن فنانا عقائديا
انبعث من ضمير هذا الكم الحضارى الذى ينتمى اليه ، لما وجدت أزمة
الثقة هذه التى يشكو منها صديقى الفنان . ان السلبية واللامبالاة
لا يمكن أن تكون بعض سمات هذا الفن العقائدى ، ان (التسريب)
هو سمة هذا التخبط الذى يعانى منه الحرف العربى فى هذه المرحلة
الثقيلة بالآف الجراحات !!

.. إن التصور الخامس والأخير لمقال الصديق عن أهمية اللقساء
 العقائدي تصور صائب بلا حدود ...
 ومن هنا ... أهد يدى الى الصديق الباحث يوسف حسن
 نوفل . فسطوره المكتتزة تعطى قضيتى أبعادا جديدة ، تلهننى رباطة
 الجأش فى حراسة كل ما هو فكر وحزبة ، تقتل فى فمى الصمت ...
 هذا الدثار الذى احتفى به من ثلوج أن أكون غير ما أنا كائن فى عالم
 لا يكف عن الدوار !!

قراءة في فكر الإسلاميين المعاصرين *

على هامش السيرة • • من الوجهة النقدية

- ١ -

حين كتب الدكتور طه حسين كتابه الرائع : « على هامش السيرة » حاول في مقدمته لهذا الكتاب أن يطرح عدیدا من القضايا السالبة ، وعدیدا من القضايا الموجبة - ان صح ان يقال - ويخيل الى أن هذه القضايا جميعا على مستوى الايجاب والسلب لا تهم الدراسة النقدية الا من وجه واحد هو التعرف على فكر الكاتب فيما أبدع من فن ، أو قل على محاولته الرد المسبق على ما يمكن أن يتعرض له عمله الابداعي من نقد وملاحظات أما ما يهم الدراسة النقدية بالفعل فهو العمل الفني نفسه ، بكل أبعاده وقضاياها ، وهو صيرورة الكاتب من قارىء مستوعب للتاريخ الى فنان متحرك بالفعل الابداعي في مجال التاريخ • • هذا - فيما يخيل الى - هو ما يهم دراسة من هذا اللون • • وان كنا لا نستطيع في الوقت نفسه ان نتخبط في فكر الكاتب فيما أبدع من عمل ، أو شروطه الفنية فيما أعطى من نتاج • • كل ما هناك • • ان تكون الأولوية المطلقة للعمل الفني بما هو منطاب البحث • ومنطاب الحوار !!

فى مقدمة الكتاب يؤكد الدكتور طه حسين انه لا يتوجه بهذه
الصفحات الى العلماء ولا الى المؤرخين ، لأنه لم يرد بها الى العلم ،
ولم يقصد بها الى التاريخ . . . وانما هى محاولة لرد الناس الى الأدب
العربى القديم القادر - ككل أدب حقيقى - على العطاء فى كل جيل
مهما تقادمت به العصور ، وهو يستشهد فى ذلك بخلود الياذة
التي ما تزال - على الرغم من كل المسافات التاريخية - قادرة على
الالهام والايحاء والعطاء . .

وفى هذه المقولات يستبين الوجه الحقيقى لاتجاه الكاتب منذ
البداية اتجاهها فنيا لا هو علم ولا هو تاريخ . . وتتأكد قيمة المنحى
الذى أحاول أن أؤكد دائما من ضرورة التفريق بين التاريخ ،
والسيرة ، والترجمة . . ان التاريخ هنا مستبعد . . وكذلك السيرة
المحققة . . أما الترجمة بما هى معنى رحلة فى الحياة فقد تفتح
ذراعيها وسع الانفتاح لهذا اللون من الكتابة الفنية ، لأن التاريخ
ليس هدفها وان كان هو الأرض الحقيقية التي تتحرك عليها . .
ولأن السيرة ليست هى ما ترمى اليه ، وان كانت تستفيد من حقائق
هذه السيرة وترفض فى نفس الوقت أن تستقصى مثلما تستقصى ،
وان ترتب مرحلة على مرحلة مثلما يفعل . . يقول الدكتور طه
حسين : (ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا
الكتاب ، فانى لم أفكر فيه تفكيرا ، ولا قدرته تقديرا ، ولا تعملت
تأليفه وتصنيفه كما يعتمد المؤلفون ، انما دفعت الى ذلك دفعا ،
وأكرهت عليه إكراهي . . ورأيتني أقرأ السيرة فتبتلى بها نفسي ،
ويفيض بها قلبي . . وينطلق بها لسباني) (١) . . . هذا منحى رجل
لا يكتب بالفعل تاريخا ، ولا يكتب بالفعل سيرة من السير . . وانما
هو منحى رجل يكتب ترجمة لبطل استجاشه وحركته . . وملا وجدانه

(١) على هامش السيرة - من برقة

يقظة واخضراراً .. فأحب لا أن يعكس حياته بما هي رحلة بادئة من هنا ومنتهية الى هناك ، ولكنه أحب أن يعكس « معنى هيسنדה الحياة - الرحلة » أو « معنى هذه الرحلة - الحياة » .. وانتهى الى قناعة ان هذا الاطار الفني هو ما يتيح له ان يعكس نبض الاعجاب ببطله على هذا النحو ، فأملى أو كتب هذه الفصول ... يؤكد هذا الذي أذهب اليه ان الدكتور طه حسين ينظر الى عمله في هذا الكتاب على انه ليس « سيرة » وليس « تاريخاً » وانما هو ترجمة تغرى بقراءة السيرة في شكلها الموثق ، وتدفع الى قراءة التاريخ في مناقله الأساسية .. يقول الدكتور طه حسين : (فاذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب الى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتماس المتاع الفني في صفحاتها الخصبه ، فأنا سعيد حقاً ، موفق حقاً لأحب الأشياء الى ، وآثرها عندي) (١) ..

ويكاد الذين يضربون « على هامش السيرة » تحت جناح الرواية التعليمية (٢) ، ظناً منهم ان وضعها هكذا يزرى بقيمتها الفنية من جهة ، ويزرى بقيمة الرواية التعليمية من جهة أخرى يخطئون أبشع الخطأ .. فلست أدري أية ذراية يمكن ان تكون في ان يتوجه الفنان الى جماهير القارئة « بشيء » .. في أن يعطى من خلال عمله « قيمة اخلاقية » .. في أن يضع من منظور فني نموذجاً أو مثلاً ؟؟ الذي أفهمه ان الرواية التعليمية حين تبتغى الى المباشرة ، أو الوعظ ، أو الخطب الطويلة الجوفاء .. يمكن ان تكون في هذه اللحظة ليست خارجة من دائرة الفن وحده ، وانما تصبح خارجة من دائرة المعقولية بما هي اعتساف هابط لشيء لا يحتمل الاعتساف !! وعلى الرغم من أن الدكتور طه حسين يتوجه بعمله

(٢) على هامش السيرة - ص - ط

(٣) انظر : فاروق خورشيد - محمد في الأدب المعاصر - ص ٦٩ ..

الى الشباب عيسى ان يحبيب اليهم الحياة العربية الأولى في يسرها
ومحتاجتها . . . والى الشباب عيسى ان يجد في هذه الحياة موضوعا
للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي والأدب الانشائي
كذلك . . . والى الشباب عيسى ان يفهم أن القديم والجديد وجهان
لشيء واحد هو استقطاب النفع منهما معا . . . على الرغم من أن
الدكتور طه حسين يتوجه بعمله الى أولئك الشباب على هذا النحو .
فلمست أعتقد أنه وقف - من خلال عمله كله - خطيبا يحرض أو
يعقل أو يلقي بمقولات مباشرة وموجزة ومرفوضة . . . لقد أعطى كل
ما يريد من خلال تقنية روائية فاهمة ، ولقد سبر أغوارا كثيرة ،
وحدد ملامح وجوه كثيرة ، وركز على بطله أوشك أن أقول من
جوانب أكثر . . . ولكنه في كل أولئك لم يجنح الى المباشرة ، ولم
يجنح الى التعليمية الباردة ، والتلقين البليد . . . ولم يكن الهدف
الأخلاقي المتضمن في عمله ليتحيف على الإطلاق من قيمة العمل
الفني . . . وهذا ما نقصد الى تأكيد وتعميقه !!

ويرفض الدكتور طه حسين ان يتكئ على العقل وحده في
هذا العمل ، ويعطى نفسه حرية ان يوسيع على نفسه في القصص ،
وان يمنحها من الحرية في رواية الاخبار واختراع الحديث ما لم يجد
به بأسا ، الا حين يتصل الحديث والخبر بشخص النبي (صلعم)
أو بشخص من أنحاء الدين ، فانه لم يبح لنفسه في ذلك حرية
ولا سعة ، وانما التزم ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة
والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين (١) .

هنا تلوح الترجمة أوضح وأبرز ، ويلوح اللفظ الشاغب حول
اختراع الأحاديث والأخبار ساقطا متهاويا ، لأن بطل الترجمة
بحياته ، وأقواله ، وأعماله ، وما يتصل به من كل أولئك الأشياء

(١) انظر : على هامش لسيرة - ص ٠ ك .

يبقى بعيدا عن التعريف والتزويد .. فاذا اخترع الكاتب بعيدا عن ذلك موقفاً ليجلي به فكرة ، أو يفسر به ظاهرة ، أو يكشف به عن اتجاه نفسى .. فليس ذلك كله الا « تجسيدها » لحقائق يراد التعبير عنها ، ووسيلة ايضاح لتوصيل شئ معين عن طريق التجسيد والتمثيل .. وقد يعترض هنا على أن الذى كبل من حرية الكاتب هو شخصية البطل بما هو نبي لا ينبغي أن نحمل عليه ما لم يقل ، أو نفتري على تاريخه ما لم يحدث . واذا وجب ذلك مع بطل نبي ، فقد يتجاوز فيه مع بطل عادى من الناس ، فيعمله الكاتب ما لا يحتمل ، ويضيف الى تاريخه ما يجعل منه مجرد خيالات وأساطير

ولكن هذا الاعتراض ينسى منذ البدء أن التراجع ليست مصادر تاريخية بقدر ما هي مصادر استبطائية ، أى اننا لا نلجأ اليها لكي نفيد من تاريخ البطل بما هو وقائع وأحداث . وانما نلجأ اليها لكي نفيد من تاريخ هذا البطل بما هو معنى وقائع ومعنى أحداث ومعنى أن نطل على شخصية بطله على جانب هائل من البروز !! وهكذا تستقيم الموازين !!

وحتى لا نفقد احساسنا بصميمية هذا العمل وتاريخيته ، يحدد الدكتور طه حسين مصادر كتابه القديمة المحددة : سيرة ابن هشام .. وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبرى ، ويردف على الفور : (وليس فى هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث الا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد فى كتاب من هذه الكتب) فاذا اتصل الخبر بشخص النبى فأنى أردته الى مصدره ليستطيع من شاء ان يرجع اليه ، لا احتمال فى ذلك تبعة خاصة ، لاني لا أذهب

فيه مذهباً خاصاً ، إلا ان يكون تبسيطاً في الشرح والتفسير واستنباط العبرة والوضوح بها إلى قلوب الناس (١) .

إذا انتهينا من تأمل مقدمة هذا العمل الفني الرائع بحق ، وجدنا أنفسنا في حيرة حقيقية أمام مواجهة العمل الفني نفسه أن « تلخيص » العمل الروائي خطأ منهجي فادح بلا شك ، لأن قيمة العمل الروائي تكمن في التفاصيل الهائلة ، والاستطرادات الشارحة . واللمحات الموهوبة ، وفتات الواقع الحي حتى وإن تناهى في الصغر هذا وجه !! ولكن الدارس الذي لا يضع العمل الفني أو قل صورة العمل الفني تحت عينيهِ وعيني قرائهِ يواجه معضلة الدوران في فراغ ، وتأمل وجه غائب تماماً بلا جدوى هذا وجه آخر !! فماذا نفعل ؟؟

يخيل إلى أن سلوك منهج وسطي في هذا الصدد يمكن أن يكون أهدى وأوفق فلن تقدم على تلخيص العمل الروائي من جهة ، ولن ندور في فراغ ذاهل من جهة أخرى ، وإنما سنحدد أبرز قضايا هذه الترجمة الروائية ، لنجرب معها حوارنا الذي قد يطول وقد يقصر ، فنكون بذلك السلوك الوسطي قد تنأينا عن اعتساف الخطأ المنهجي وتنأينا في نفس اللحظة عن اعتساف العمل الأكاديمي في فراغ لا يجدي أن ندور فيه وربما كان عرض هذا العمل على ما ارتضيناه ملامح صميمة للتراجم الروائية والقصصية يبرز في شكل نهائي لما نهدف إلى تحقيقه وتأكيده من استظهار أبرز قضايا هذه الترجمة الفنية وأجراء ما ننشد منها من حوار نرجو في نهاية الرحلة أن يكون على مستوى صوابي !!

(١) على هامش السيرة - ج ١ : كتاب ل

لقد أدار الدكتور طه حسين ترجمته في (على هامش السيرة)
حول الحياة المادية والمعنوية لشخص النبي ، وغصنت الرواية
بشخص آخرين ٠٠ الا انهم جميعا كانوا يمثلون روافد جانبية
تتدفق في هذا المصب العظيم .

فحديثه عن عبد المطلب ، وحديثه عن عبد الله ، وحديثه عن
آمنة ، وحديثه عن شيوخ قريش وفتيانها ، وحديثه عن الرهبان
والاحبار والقسس ، وحديثه عن اصحاب محمد وأعدائهم جميعا ٠٠
كل ذلك يشكل ليس حديثا فرعيا ، أو جملا معترضة - كما فهم
بعض الباحثين (١) - وانما يشكل روافد جانبية تثرى الرافد
الأعظم ، ويعطى نوعيات متعددة من الشخصيات كان يتعامل معها
محمد بكل ما أوتي من عظمة النفس ، ورحابة العقل ، وتفتح
الوجدان ، فاذا هذه الشخصيات بطبائعها الخيرة أو المعتمة ، دلالات
انسانية حية تبرز تعدد جوانب هذه الشخصية ، وإيماضها في
كل اتجاه ٠٠

ان كل هذه الفصول التي تلوح جملا معترضة في طريق
السياق تشكل الاطار الحي لبطل هذه الترجمة الرائعة . فالنبض
الحضارى في العالم المعاصر ، والمعتقد السائد في كل دولة ،
والمستوى الفكرى لدى كل شعب ، وطبيعة تعامل النوع البشرى
مع الاشياء والاحياء هنا وهناك ، وتأثير الوسط الاقتصادى على
الوسط النفسى والاجتماعى ، واتجاه السياسات على تخالفها الى
ضرب الفكر والعقل وتحفز الجماهير ٠٠ ان كل أولئك يشكل بالفعل
نوعية الاطار الحي الذى استدعى دعوة ، واستقبل هذه الدعوة ،
ويشكل آخر الأمر « عالمية » هذه الدعوة بما هي بالضرورة « مطلب

١١١ فاروق حروشيبة - « محمد في الأدب المعاصر » ص : ٨٤ .

عالمى « موجه الى ضرب فساد كل الحياة فى اطارها الشمولى .
ليقيمها على طبيعة الحق والخير والجمال .

وربما ذهب الدكتور طه حسين فى ذلك الى أبعد من التزام
التركيز على البيئة الانسانية الجية التى كان يتعامل معها محمد ..
الى التركيز على نوعيات من البيئات المادية الأخرى التى ربما تلوح
فى حديثه عن يشرب ، ومكة ، والطائف ، واليمن ، وروما ، وغير
ذلك من البيئات ..

وربما ذهب أبعد فأبعد الى التركيز على نوعيات من البيئات
الفكرية والعقائدية والنفسية الأخرى التى مهدت لظهور محمد
أو عاصرتة كحديثه عن أشواق زيد بن عمرو ، وعن حواريات
كلكراتيس وأندروكليس ، وحاكم المدينة ، والراهب الشيخ ..
وهكذا تتكاتف الشخصوس والبيئات بأنواعها على رسم صورة معمقة
لمحمد قبل الرسالة وبعدها على السواء !!

وقد استطاع الدكتور طه حسين - عبر كل صفحات الكتاب -
أن يوهم بالواقع وأن يرتفع عنه فى نفس اللحظة .. فحديثه
- مثلاً - عن عبد المطلب أو عن مصعب بن عمير ، مع ما بين
الشخصيتين من تفاوت هائل - يوحى بأن حياة عبد المطلب ليست
شيئاً سوى هذه الهموم الروحية التائقة للمثل الأعلى ، والباجئة عن
التزام قيم معينة حتى ولو ضحى فى سبيلها بابنه الأثرى ... وهى
توحى كذلك بأن حياة مصعب بن عمير ليست شيئاً سوى هذا
الانعطاف الحاد من ليونة الحياة الى معاناة شظفها الهائل ...
ولكننا لا نخرج من الحديث عن هذين الرجلين بحيث نستقر بهما
على هذا الافق التجريدى المثالى .. وانما نرى فيهما مع ذلك الى
رجلين من عامة الناس يعيشان حياتهما ، ويستمتعان بخفضها متى
أتيح لهما من ذلك نصيب ... وهكذا يركز الدكتور طه حسين على
هذين الايقاعين معتنقين فبتيح لنا نوعاً من الكشف التاريخى عن

الشخصية المحور ونوعا من التحليق معها في فضاء مثالي نابغ من طينة هذه الارض وترايبها . والأمنلة أكثر من أن تقف عندها عبر كل صفحات الكتاب !!

وقد عرف الدكتور طه حسين كيف ينفخ الروح في المرحلة الزمانية التي عاشها محمد - انسانا ونبيا - ربما بانتخاب نوع من الحوادث التاريخية التي يمكن ان تكون لها صيغة الديمومة والشمول - كما نرى في الصراع بين السلطة والجماهير - وكما نرى في تملل القطيع وثورة الفقراء - وربما بتحريك الحوادث التاريخية من منظور معاصر يعطى لها منطق التساوق مع اطارها الزمني من جهة ، ومنطق امكانية الاسقاط على ما نعيشه من واقع مادي وروحي من جهة أخرى . . مثلا نستطيع من خلال حديث الدكتور طه حسين عن حب خديجة لمحمد وهيامها به . . ان نرى آفا من الوجوه الشريفة المعاصرة التي تكن مثل هذا الحب ، وتهيم مثل هذا الهيام . . . ونحن نستطيع ان نرى كذلك قيصر روما بكل بطشه وارهابه وجبروته في كل القياصرة المعاصرين بلا فوارق تذكر في هذا المجال . . . ولكن الدكتور طه حسين كأن حريصا دائما على ان يعطى الحدث منطقته الطبيعي الذي لا ينبو به عن عصره ، ولا يخرج به عن مجال الآن الزماني الذي عاشه وعاناه .

وقد سار الدكتور طه حسين في كتابة على أساسية بارزة ، هو أنه لم يخش كل النقول التاريخية المتعلقة بحياة محمد وجهاده وانتصاراته . . وانما ركز على مجموعة من النقول التي تعطي ترجمة حياة ، وضاعها صياغة قضائية وروائية ، وضرب صفحا عن عشرات من الاخبار والنقول التي ربما لا تضيف الى عمله ، أو التي ربما لا تساوق طبيعة المنهج الفني الذي ارتضاه شكلا لهذه الترجمة التي أرادها على هذا النحو ان تكون . . وربما لو أخذنا أي كتاب

من كتب السيرة القديمة ، أو أى كتاب من كتب التاريخ القديم
لوجدنا فيه أضعاف ما نجد فى كتاب الدكتور طه حسين « على
هامش السيرة » من الانباء والاخبار والنقول ... إننا لا نصادف
محمدا « نبيا » فى « على هامش السيرة » الا من خلال شخوص
ثانويين « فأين صراغة المأساوى مع كل القوى المتأولة ؟ وأين وقوفه
البطل فى وجه كل التيارات ؟ وأين حياته الشخصية ، وتقلبه بين
الرضا والغضب ، والاتصال والانفصال ، والكد والراحة ، والدموع
والابتسامة ؟ » ان أى كتاب يصادفنا أو نصادفه من كتب السيرة
أو التاريخ ربما يعطينا حشدا من الأخبار ينسقط بعضها فى هذا
العمل الفنى فلا تراه ... ان كل ما نجد هنا هو استقطاب النفس
البشرية من حيث هى ذات مائجة بعوالم من الاخاسيس والنزعات
« ان الجزء الثانى من « على هامش السيرة » يشتهى ببدء بعشة
النبي ... ليسلمنا فى الجزء الثالث الى احاديث عن « عمرو
ابن هشام » و « حمزة بن عبد المطلب » و « جعفر بن أبى طالب »
و « عداس » و « مضعب بن عمير » و « ابن الأقالح » و « وحشى »
و « ابن مخزوم » و « صفوان ابن أمية » و « زيد بن حارثة »
و « حنظلة بن عمير الخزاعى » ... وينتهى الكتاب !!

أين إذن بداية الملحمة الحقيقية ؟ أين الصراع الخارق بين
محمد وأعدائه ؟ ربما نجد أطرافا من هذا الصراع فى قصة كل
واحد من أولئك الذين يبدو أن الحديث موجه اليهم وصادر عنهم ،
الا أننا فى النهاية نكتشف ان كل قصة من هذه القصص تنتهى
الى التركيز الدرامى على جانب من جوانب شخصية النبي ...
ولكن هذه القصص مجتمعة أو مفردة لا تعطى فى النهاية كل الكم
التاريخى المرصود فى كتب السيرة القديمة أو فى كتب التاريخ ...
وهذا هو معنى الانتقاء !!

وقد استطاع الدكتور طه حسين فى « على هامش السيرة »

ان يغيد تشكيل حياة بطله ، ليس بمعنى ان يعالج هذه الترجمة الفنية من منظوره المعاصر المثقف القادر على الانتخاب والرفض . والتقديم والتأخير ، والالتزام والحرية فحسب . . (ولكن التشكيل الجديد هنا يمتد الى دقائق البناء نفسه ، وما يستتبعه الإطار الروائي من تكامل فني (١) . .) وأنت تحس ان الكاتب قد راح يبحث في كتب السيرة بروح الفنان ، يقف عند الاحداث التي تبرز من الفنان مشاعره ، ويختار من الشخصيات ما يلد الفنان ان يصور انفعالاتها وعواطفها ، وهو يؤمن بما يقرأ إيمان الفنان ، ويصدق ما ترويهِ كتب السيرة تصديق الفنان الذي يخرج من الحدث المعجز بأدق ما فيه من معاني الانسانية ، وبأجمل ما يصوره من تشوف الانسان وتطلعه ، ومن عجز الانسان وقصوره ، وهو آخر الامر يلمس بريشته أدق ما في نفس الناس من نوازع تبدو مهما طال الزمن وكأنها بنت اليوم ووليدة الحاضر (٢) . .

وقد لا يخطئ المتأمل ان يرى في « على هامش السيرة » تشكيلا جديدا للحياة النبوية . . أبرز ملامحه : الرؤية الروائية للحياة . . والتركيز على أعمق جوانب الشخصية البطلة من خلال الزمان ، والمكان ، والإنسان . وما يحرك كل أولئك من تيارات يادوية ومبتسرة .

وقد نرى في « على هامش السيرة » إيقاعا تاريخيا لا يختلف ، ولكنه « إيقاع » تاريخي بلا مزيد . . فحفر زمزم ، والتحكيم ، والفداء ، وبشائر الميلاد ، والبعث ، وكل الصراعات الفاجعة بين محمد وقريش . . أحداث تاريخية حقيقية ، ولكنها هنا في كتاب الدكتور طه حسين تستحيل من مجرد أحداث تاريخية

(١) د. ماهر حسن فهمي - السيرة تاريخ وفن - من ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) فاروق خورشيد - محمد في الأدب المعاصر - ص ٧٥ .

صلبة الى ايقاع تاريخي نابض بحركة الفن ، متدفق وفق تيار
مسيرة الشخص !!

ونرى الدكتور طه حسين ينوع في استعمال الضمائر
والافعال عبر كتابه كله ، فبينما يبدأ الفصل الاول بالفعل الماضي :
(كان عبد المطلب سمح الطبع ، رضى النفس : سخر اليد ، حو
العشرة ، عذب الحديث) (١) لا يلبث يجنح الى الفعل المضارع
بعد ذلك بقليل : (ثم يقبل الليل ويأوى الفتى الى مضجعه) (٢) .
ثم لا يلبث كذلك حتى يعطف الى فعل الامر : (أقبل أيها الصبي
أسرع في الخطو ، ارفق بهذه النفس الحائرة ، هلم الى سوطك
المشرق المضيء فبدد به هذه الاشخاص المائلة . فرق به هذه الظلال
المضطربة من حولي) (٣) وهو حين يستعمل ضمير المتكلم :
(ما رأيت كاليوم دعاء ولا اغراء) (٤) لا يلبث حتى يستعمل ضمير
الغائب : (هي متمردة على العقل لانها أقوى منه ، وهو متمرد عليها
لان الغرور قد أفسد عليه أمره) (٥) ثم هو لا يلبث أن يعطف الى
ضمير المخاطب : (لك ان تلقائي بما أحببت من رفق وغلظة ،
ولك ان تحدثني بما شئت من لين القول وعنيفه ، فقد وطنت نفسي
على أن أحتملك كما أنت لان كل شيء فيك يروقني ويعجبني) (٦) .
وهكذا تتشابه الانحاء ، وتتكامل الابعاد ، من خلال تقلب
الكاتب بوعي شمولي في منادح البناء والحس التاريخي ، والتهديف
المتواصل الى احتياز قيمة الفن الى جانب قيمة التاريخ !!

-
- (١) على هامش السيرة - ج ١ ص ١ .
 - (٢) على هامش السيرة - ج ١ ص ٣ .
 - (٣) على هامش السيرة - ج ١ ص ٦ .
 - (٤) على هامش السيرة - ج ١ ص ٣٨ .
 - (٥) على هامش السيرة ج ٢ ص ٦٧ .
 - (٦) ١٥ : هامش السيرة - ج ٣ ص ٦٤ .

يلاحظ ان الدكتور طه حسين قد أدار حديثه في كتابه :
« علي هامش السيرة » من خلال أشخاص كانوا من صناع هذه
الاحداث التي نراها في هذا الكتاب . . وهو يزاوج دائما بين
الحديث عن الشخص الابطال والحوادث التاريخية ، على غير
ما يذهب اليه علماء التاريخ . أو كتاب السير . . فعلماء التاريخ
لا يعنيهم كثيرا ان يتحدثوا عن الشخص الذي صنعوا هذا التاريخ
بقدر ما يعنيهم ان يتحدثوا عن التاريخ نفسه . . وكتاب السير
لا يعنيهم ان يتحدثوا عن الشخص المجاورين للبطل بقدر ما يعنيهم
الحديث عن البطل نفسه كأنه وحده صانع الاحداث ومحرك
التاريخ . . . ولكن الدكتور طه حسين لا يعنى فقط بالحديث عن
الشخص الى جانب عنايته بالحديث عن التاريخ الذي صنعوه . .
وانما هو يتحدث عن التاريخ من خلال أولئك الشخص ، تواؤما
مع المنهج الفنى فى كتابة التراجم الروائية أو القصصية جميعا .
اننا نواجه أول ما نواجه عبد المطلب . . ثم نفرا من قريش . . ثم
زوجاته وأبناءه . . ثم تبعا وحسانا ، ثم أقيال اليمن وأذواءها . .
ثم حاكم المدينة وكلكراتيس وأندروكليس والراهب كلينيوس . .
ثم بحيرا وعمرو بن هشام وزيد بن عمرو . . ثم حمزة وجعفر
ومصعب بن عمير . . وغير هؤلاء وهؤلاء . . عشرات من الاسماء
المحركة لحوادث التاريخ ، تصب كلها فى نهر هذا العمل الروائى
العظيم . . . ولست أعنى ان هؤلاء الشخص من ابداع كاتبنا . .
فهم أولا وأخيرا شخص تابعون من مجرى التاريخ الصميمي . .
ولكنى أعنى ان تحريكهم وتحريك الحوادث بهم يأتى على جانب من
الغرام التركيز عليهم كمحركين للاحداث فى هذا العمل . . بينما
يلوحون فى التاريخ والسير كأنما تحركهم الأحداث وتستبد بهم
طبائع الاشياء فى مسيرتها اللازمة ، اذا استثنينا فى السير بطونها
وحده من هذا التعميم !!

وقد حرص الدكتور طه حسين على ان يقول كثيرا من
 آرائه عبر هذا الكتاب .. آراءه في السلطة ... وآراءه في
 العدالة .. وآراءه في الثروة ، وآراءه في الفقر ... وآراءه في
 الحرية .. وآراءه في الاستعباد .. ولكنه لم يقل كل هذه
 الآراء في شكل مباشر أو وعظي ، ولكنه قالها من خلال
 شخصه مرة كما فعل في حديثه عن حاكم المدينة وكلكراتيس
 واندروكليس ... وقالها مرة أخرى من خلال الحوادث الفاجعة
 كما فعل في حديثه عن العبيد الذين وكل باستعبادهم عمرو بن
 هشام ووكل بتحريرهم أبو بكر ... وقالها مرة ثالثة من خلال
 عديد من المفارقات كما فعل في حديثه عن مصعب بن عمير بين
 جاهليته المترفة واسلامه الصابر المناضل الفقير !

ولناخذ لذلك مثلا حديثه عن طفيان قيصر الذي هو طفيان
 كل القياصرة في كل العصور : (قال حاكم المدينة : بل انا مشفق
 من جواسيس قيصر الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم ، والذين
 يندسون في كل بيئة ، وينسلون الى كل مكان ، ويتلطفون حتى
 يعرفوا أسرار البيوت ، ويظهروا على دخائل النفوس) (١) ..

ومثلا آخر حديثه عن الحرية : (من الذي فرض لكم على
 الناس هذا السلطان ؟ ومن الذي أباح لكم ان تنفذوا الى نفوس
 الناس وضمايرهم ولا تسألوهم عما يعملون حتى تسألوهم عما
 يرون ؟ وما ينبغي لكم مع ذلك ان تسيطروا من أعمال الناس على
 شيء ما لم يبدو لكم صفحتهم او يظهروا لكم مقاومة وعصيانا .
 فكيف بسؤالهم عن رأى العقل وحديث الضمير !) (٢) .

(١) على هامش السيرة - ج ٢ ص ١٢ .

(٢) على هامش السيرة - ج ٢ ص ١٤ .

وما أكثر الاقنعة التاريخية التي تحدث من خلالها الدكتور طه حسين عبر كتابه : « على هامش السيرة » عن أشواقه وأحزانه وتمرد فكره على مواضع كثيرة .. (وأنا أريد أن أزعم أن الدكتور طه حسين كان في كل ما صور أنما يصدر عن شيء حقيقي حتى يجسده في عصره وأيامه ، ذلك القلق ، وتلك الحيرة ، وهذا اللون المتناقض من الشخصيات ، والبحث الجاد عن الإيمان ، والاضطراب والقلق يغمر النفوس ويقض مضاجعها ، بل أريد أن أزعم أن هذا انصدق في التعبير أنما هو وليد معاناة وتجربة قد تكون تجربة روحية فنية خالصة ، وقد تكون تجربة معاشة بالفعل ، استحدثت الثوب القديم لتختفي وراءه واستعانت بالشخصيات التاريخية لتستخفي بعض الشيء) (١) .

وقد امتلأ كتاب : « على هامش السيرة » بالحوار الحقيقي التاريخي ، وبالحوار المستلهم من طبيعة المرحلة وطبيعة الأحداث وطبيعة الشخص . . ان الجزء الثاني من هذا العمل يوشك أن يكون حوارا دائما . . وفي الجزء الأول والثالث كذلك ربما لا تخلو صفحة من حوار ، فإذا لم يجد الكاتب حوارا قائما بين شخصين عمله الروائي أقام هو حوارا « بينه وبين محدثه » . . أو « بينه وبين الذات في محاولة لاستجلاء نجواها » أو « بينه وبين الطيف العابر » إلى آخر ما هنالك من حواريات ! ولست أستطيع بالطبع نقل هذا الحوار كله أو بعضه . . فان صفحات مثل هذه الدراسة تضيق عن ذلك بلا حدود !

وقد استطاع الدكتور طه حسين بحق لا ان يوفق الى صياغة أسلوبية فنية فحسب . . بل الى صياغة أسلوبية مواثمة لطبيعة المرحلة وطبيعة الأحداث وطبيعة الشخص . . فهو قد

(١) فاروق خورشيد - محمد في الأدب المعاصر - ص ٨٨ .

وفق أولا الى صياغة أسلوبية فنية من حيث القص ، ورسم الشخصيات ، وثنامي الحدث ، وتشابكه ، والمزج الرائع بين الواقع والخيال ، وتعميق حس المتلقى بالزمان والمكان ، والقدرة على الايهام بالواقع والايهام بالارتفاع عنه في نفس الوقت . . . الى آخر عناصر هذه الصياغة الاسلوبية . . . وهو قد وفق ثانيا الى صياغة أسلوبية موائمة لطبيعة المرحلة وطبيعة الاحداث وطبيعة الشخص من حيث اعطاء الجو التاريخي ، وانطاق الشخص بمقولات تتفق مع واقع هذا الجو التاريخي ، والتغلغل في أحشاء الحركة المادية للمكان على نفس مستوى التغلغل في أحشاء الحركة الروحية للزمان ، والاتكاء على نوعية من الاسلوب الابداعي يمكن أن تكون على لسان الشخص القريبين من النبي مستعينة بالجملة القرآنية والأسلوب القرآني كقوله : « فظلت منه في شك مريب » (١) . . . وقوله : « ان كانت لتأوى الى فراشها فيأخذها نوم هادي رفيق » (٢) وقوله : « والا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقا » (٣) ، وقوله : « ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا ، ولكن الله قد جعل لكل شيء قدرا » (٤) وقوله : « ويمضون لا يلوون على شيء حتى يبلغوا بيت آمنة ، فاذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة (٥) » . . . فاذا فارق الكاتب الحديث عن أولئك الشخص الى الحديث عن شخص آخرين كأولئك الذين نشأوا على الفكر اليوناني والثقافة اليونانية رأيته يعطى على الفور نوعية أخرى من الاسلوب الموائم لطبائع أولئك الشخص .

-
- (١) على هامش السيرة - ج ١ ص ٥٩ .
 - (٢) على هامش السيرة - ج ١ ص ٦١ .
 - (٣) على هامش السيرة - ج ١ ص ١٤١ .
 - (٤) على هامش السيرة - ج ١ ص ١٥٣ .
 - (٥) على هامش السيرة - ج ١ ص ١٥٤ .

وقد ذهب الدكتور طه حسين في احتواء عنصر الخيال الى آماذ بعيدة ، وضرب بخياله في أعماق النفوس ، وفي شعاب الطبيعة ، وفي منادح الفكر والثقافات ، وفي أجواء الديانات الغابرة بكل آفاقها المتزاخبة ..

نستطيع أن نرى إيغاله في استبطان الذوات من خلال أحزان عبد المطلب عقب رحيل ابنه عبد الله (١) ، ومن خلال هواجس آمنة بعد انفلات زوجها الى رحلة الغروب (٢) ، ومن خلال رحلة كيمون الى مالا يدرى من الآفاق (٣) ..

ونستطيع أن نرى تحليقه في سماوات الطبيعة من خلال حديثه عن الصحراء ، والليل ، والفجر ، والضمت ، وأحزان الأشياء في جلالها الابدى ، وقد نشير هنا الى مطالع حديثه عن جعفر بن أبي طالب (٤) ، فهو شعر متوجه به الى الطبيعة محلق الى آفاق عالية من الخيال الموهوب .

ونستطيع أن نرى جنولانه في منادح الفكر والثقافات من خلال فصول رائعة بكاملها تدير ألوانا من الحوار بين أندروكليس اللاهى فى حياته بكل شيء .. وكلكراتيس الباحث فى ديمومة لا تنقطع عن كل شيء .. وحاكم المدينة الرومانى المضطرب بين الصمود والانهيال .. والراهب الشيخ الذى يضع يده على أفواه (٥) الجروح !!

(١) على هامش السيرة - ج ١ ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) على هامش السيرة - ج ١ ص ٥٨ وما بعدها .

(٣) على هامش السيرة - ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها .

(٤) على هامش السيرة - ج ٣ ص ١٢٧ .

(٥) أنظر : الجزء الثانى من « على هامش السيرة » .

ونستطيع أن نرى حواريه الصميمي مع كل الديانات الغابرة
من خلال حديثه عن المسيحية ، وعن اليهودية (١) ٠٠ ومن خلال
حديثه عن الوثنية في بلاد العرب (٢) ٠

وقد حاول الدكتور طه حسين أن يستثير التعاطف مع
ابطاله غير مرة في كتابه الممتع .. فهو قد استشارنا الى التعاطف
مع عبد المطلب في كفاحه الدائب ، وفي بحثه عن المجهول ، وفي
التلقى الغامض عن المجهول ، وفي وفائه ينذره القاتل ، وفي حديث
نفسه بعد رحيل ابنه عبد الله ، وفي تلقي نبأ الهول ، وفي استقباله
لحفيدة وايشاره له .. وهو قد استشارنا الى التعاطف مع عبدالله
المنذور للفداء في كل مراحل محنته .. ومع آمنة العروس التي
رحل عنها زوجها وما يزال خضاب العرس مرتقا في يديها
الصغيرتين .. ومع محمد طفلا يتيما ، وشابا جائعا لاحتضان
الارض والسماء ، ورجلا حاملا راية الفتح في ممالك السقوط ..
وهو قد استشارنا الى التعاطف مع كل من تحدث عنه من أولئك
الرأعين الذين ناصروا محمدا ، وحملوا الى جواره عبء الرسالة
وتبعات النضال !

وقد حاول الدكتور طه حسين أن يفرق بين ما هو تاريخ
وما هو سيرة وما هو ترجمة ، الا اننا نستطيع أن نزعم أن
الدكتور طه حسين طبق مقولات هذه التفرقة دون أن يؤصل
لها أو يفطن على نحو علمي جازم لحدودها القاطعة والحاسمة ..
فقد كتب الرجل عن محمد ليس تاريخا مستقصيا جامدا ،
وليس سيرة مستوعبة مرتبة ، وانما كتب ترجمة تعنى برحلة
المعنى في الحياة ، وبمعنى رحلة الحياة معا ، وان كان لم يضع
شروط هذه الالوان تحت عينيه أو عيني قرائه على السواء .

(١) انظر : الجزء الاول من « على هامش السيرة » ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر « على هامش السيرة » الاجزاء .

إذا فرعنا من هذا العمل الابداعي العظيم « على هامش السيرة » الذي كتبه الدكتور طه حسين من واقع الحب والفن فاننا لا نستطيع أن نزعم على الإطلاق ان هذه الظواهر الفنية التي ركزنا عليها حتى الآن هي كل ما في هذا العمل من ظواهر فنية .. فهناك اشياء كثيرة أخرى كالاستطراد لشرح موقف أو فكرة (١)، ورضا الكاتب عن كل ما ذكر التاريخ (٢)، واقتناص المواقف لشجب شيء أو تكريس شيء آخر (٣)، واجراء مزيد من المنولوج الداخلي (٤)، وتلوين السياق أحيانا بالمسحة الأسطورية (٥)، واتخاذ بعض المواقف الوعظية التي تتخلل السرد الروائي (٦) وابتسار المواقف أحيانا (٧)، وتدخل الروايات التاريخية بحرفيتها واسنادها كذلك في بعض المواطن دون تمهيد لها (٨)، وتدخلها في بعض المواطن الأخرى من خلال التمهيد التاريخي المنطقي لها (٩) .. الى آخر هذه الظواهر الكثيرة الهائلة .. وربما لا نستطيع أن نزعم على الإطلاق كذلك ان الباحث في مجال التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث قد يكتفى بتأمل هذا

-
- (١) انظر ص ٧١ ج ١ .
 - (٢) انظر ص ٢٢ x ج ١
 - (٣) انظر ص ١٩٤ ج ١
 - (٤) انظر ص ١٠٥ ج ١
 - (٥) انظر ص ١٠٦ ج ١
 - (٦) انظر ص ١٦٤ ج ١
 - (٧) انظر ص ١٦٧ ج ١
 - (أ) انظر ص ١٦٨ ج ١ وما بعدها
 - (٩) انظر ص ١٧٨ ج ١

النوع من الظواهر الفنية ، فقد يهمله أن يقف على طبيعة النص التاريخي .. وطبيعة انحناء كل الخطوط في العمل الروائي لتلتقي بالخط الأساسي الذي يعكس حياة ومشاعر وصورة البطل .. وطبيعة المزج بين ما هو تاريخ ضميمي وما هو رؤيا تاريخية مستنبطة من واقع السياق ... الى آخر ما هناك من ظواهر بنوعياتها المتغايرة !

ولكننا في النهاية لا نستطيع ان نفعل الاشارة الى ان الدكتور طه حسين كتب في « على هامش السيرة » ترجمة روائية لمحمد بن عبد الله ، مستخدما في بناء هذا العمل تقنيات كثيرة متعددة .. من قصص .. الى رواية .. الى خيال .. الى واقع .. الى اسقاط .. تفريق الحديث عن مواطن وشخصات ثم الانتهاء بهذه الأحاديث الى شخصية البطل الحقيقي .. الى استبطان كل رواية وكل شخصية وكل مفارقة .. الى غير ذلك من الأساليب التي أخرجت لنا في نهاية الأمر عملا روائيا بالغ الروعة ، متوامض الأنحاء .

وبل أن نظوى أوراقنا ونمضي ، فلا يد لنا من تفرس ملامح هذا العمل الابداعي العظيم . لنخرج بصورة مقاربة عن أبرز هذه الملامح .

نتوقف هنا أمام دوران مثل هذا العمل الابداعي حول الحياة المادية والمعنوية لشخص واحد متعین : حتى ولو غص هذا العمل بشخص آخرین ، لأن كل أولئك جميعا إنما يشكلون في نهاية الأمر رواقداً جانبياً تصب في نهر الشخصية المظلة ،

أو يعكسون بتفاير وجوههم وطباعهم واتجاهاتهم جوانب من عالم هذه الشخصية البطلة ، بحيث تنتهى مع المؤلف الى حقيقة ان بطله انسان متعدد الجوانب والزوايا . قادر على قيادة كل الأنماط في كل الاتجاهات .

ونتوقف أمام قدرة هذا العمل على إلهام بالواقع والارتفاع عنه في وقت معا ، بحيث يتاح للمتلقى نوعا من الكشف التاريخي - عن شخصية البطل أو عصره أو هما معا - ونوعا من التحليق في فضاء مثالي نابع من طينة هذه الأرض وتربتها ، وهذه الظاهرة لا تشكل مطعنا موجهها الى انتخاب بطل تاريخي معين فهو ليس قصدا عشوائيا ، انه انتخاب هادف الى تجلية حقيقة تاريخية ، الى جوار حقيقة انسانية ، تتيح للمتلقى في كل العصور نوعا من التأسي والاحتذاء ، أو على الأقل الاسنجاشة والاستنفار . . والا . . فعبث ضائع ان يختار الكاتب بطله من الواقع التاريخي ، بكل ما يفرضه هذا الاختيار من ضرورات وقيود هو في غنى عنها اذا انطلق ببطله من منطق خيالي الى مستقر خيالي . . (وليست الرواية بالضرورة غير اخلاقية ، لأن الروائي يسعى نحو فكرة مهيمنة أو هدف مهيمن (١)) .

ونتوقف أمام نفخ الروح في الآن الزماني الذي عاشه البطل ، وفي الأحداث التاريخية التي حركها ، أو تحرك بها ، بكل ما يتيح العمل الفني من اقتدار للآلات الزمنية الماضية ، والحوادث التاريخية الهامدة ، على التحرك الحي ، والصراع الوجودي بين البطل وما يحتويه من عوالم مادية وروحية وانسانية ، والافادة من تجارب التاريخ في تجاوز الحاضر الى المستقبل .

(١) د . هـ . ثورنس - نظرية الرواية في الأدب الانجليزي الحديث .

ونتوقف أمام حق هذا العمل في الانتقاء والاختيار ، وهو حق لا يتاح للتاريخ بمعناه العام ، أن العمل الفني ينتقى من سياق الحوادث التاريخية للبطل ما يساوق طبيعة التشكيل الروائي والقصصى ، وما يتيح لهذا التشكيل آمادا من تطور الحركة ، وتنامي البناء ، ودرامية الحدث ، والا كان اختيار هذا اللون عبثا ضائعا بلا معنى .. وكان اللجوء الى الحقيقة التاريخية الصلبة اهدى واقمن بالاتجاه اليه .

ونتوقف أمام اعادة تشكيل حياة البطل بما تتيحه هذه الاعادة من تقديم ، وتأخير ، وإثبات ، وحذف ، وتفسير ، وخيال ، وواضح هنا أن كاتب التراجم الروائية والقصصية لا يمكن أن يعمد الى كتب التاريخ الموثقة فينقل عنها حياة بطله كما جاءت في هذه الكتب التاريخية الموثقة ، لأنه حينذاك سيصبح مؤرخا لا فنانا ، ولن تكون جهوده سوى بتر حياة بطله من مجموع الأحداث التي تعاورت المرحلة التي عاشها هذا البطل .. ان عمله الحقيقي هو اعادة تشكيل هذه الحياة ، بكل ما تعنى هذه الاعادة من حرية البدء والمسار والختام جميعا ، ومن حرية الأخذ والرفض معاً ، ومن حرية النجوى والخيال والاسقاط على السواء .. اذا اصفنا الى ذلك عاملا جذريا صميما .. هو البناء الروائي أو القصصى ، بكل ما تعنيه كلمة البناء من دلالات الأسلوب ، والصنعة ، والبدائية ، والنمو ، والتطوير ، والتكامل ، والحكاية ، ورسم الشخصيات ، وكل ما يسهم في اثر المضمون وتحديد الشكل ..

ونتوقف أمام الاتكاء على العنصر التاريخي ، فان التراجم الروائية والقصصية لا يمكن أن تدور في فراغ خيالي ، والا كانت عملا ابداعيا محضا ، ان الابداع هنا - فى التراجم الفنية - يتعلق بطريقة الانتقاء والتشكيل والبناء ، ولكنه ينأى تماما عن أن

يكون ابداعا لمسيرة البطل من حيث هي وهم خيالى مقترح من الذاكرة أو من مجرد التخيل .

ونتوقف أمام اباحة استعمال الضمائر والأفعال لكاتب التراجم الفنية بلا حدود . . فقد يجوز أن يروى أو يقص بضمير الغائب ، أو بضمير المتكلم ، أو بضمير المخاطب . . وقد يجوز أن يروى أو يقص بالفعل الماضى ، أو بالفعل المضارع ، أو بفعل الأمر . . وهذا غير متساح بالطبيعة للمؤرخ أو الكاتب الا فى أضيق الحدود .

ونتوقف أمام التركيز على الاشخاص بالقدر الذى نركز به على الأحداث ، وإذا كان المؤرخ لا يعنيه الا أن يركز على الأحداث بما هي النسيج الطبيعى لفكرة التاريخ ، فان كاتب التراجم الفنية يعنيه بالدرجة الأولى أن يركز على الاشخاص الذين صنعوا التاريخ ، ووقفوا وراء كل الأحداث ، ربما لأنه لا يرى فى التاريخ جبرية مطلقة تسمير عشوائيا من البدايات للنهايات ، ولكنه يرى فى التاريخ عقلا انسانيا يصنع الحدث ، ويطوره ، ويعيش به فى اعمار الزمان .

ونتوقف أمام حق كاتب التراجم الفنية فى أن يقول آراءه وأن يصوغ مقولاته فى الحدود التى لا تفسد طبيعة عمله الروائى والقصى ، ولا تخرج بالترجمة من مجالها الى مجال القصة التاريخية ، أو الخطب الوعظية ، أو الشرح العقائدى . .

ونتوقف أمام اقتدار هذا اللون على أن يكون قناعا تاريخيا يبوح من ورائه الكاتب بكل ما يتلاطم فى صدره من عوامل الجذب والرفض والقلق والتمرد والانفجار . . بشرط أن تكون الشخصية التاريخية المترجمة من الاتساع والرحابة بحيث تتيح له هذا القدر الهائل من الترحك وبشرط أن لا يشعرنا كاتب التراجم أنه

هو الذى يفضى ، وانه هو الذى ييوح ، وانما على النقيض من ذلك ينبغى له ان يشعرنا ان هذا الحديث هو حديث شخصيته التاريخية ، الا اذا لفت الى انه يستطرد من هذه المواقف التاريخية الى التنظير لها من خلال مواقف اخرى مشابهة تعيش فى عصره الذى يحياه .

ونتوقف أمام احتواء الحوار فى التراجم الفنية . . . بشرط ان يكون الحوار اما حقيقيا جرى على السنة ابطاله ، واما غير حقيقى فيوحى لنا الكاتب بطريقته الخاصة ان هذا الحوار مستلهم فحسب من طبيعة مقولات بطله فى الحياة ، او من طبيعة عصره وما يمر فيه من موافقات ومخالفات .

ونتوقف أمام الصياغة الأسلوبية الخاصة من حيث دقتها ودرجة الفنية فيها . . . (١) وقد كان « فلوبير » واعيا لمثل هذه القيم حين قال : انه مهما كان الشيء الذى يسعى الانسان الى التعبير عنه ، فان هناك كلمة واحدة تعبر عنه وفعل واحد يوحى به وصف واحد تحدده ، ولهذا كان على الكاتب ان يطبل البحث والتنقيب حتى يعثر على هذه الكلمة وذاك الفعل وتلك الصفة ، فعملية الصياغة ليست الا كفاحا متصلا مع متطلبات المعنى والاحساس (١) .

ونتوقف أمام اتاحة حق الخيال لكاتب التراجم الفنية بالقدر الذى لا يفسد فيه طبيعة الواقع ولا منطق الأحداث ، بمعنى ان يكون الخيال ناهضا بدور فى البناء الفعلى للترجمة ، كأن يملأ ثغرة ، أو ينهض بنجوى ، أو يتيح قدرا من الفعل الفنى الذى يلين من صلابة المادة التاريخية ويحيلها من مجرد أحداث

(١) د . مهر حسن فهمى - السيرة تاريخ وفن - ص ٨٦ .

صماء الى شرائح حية من جسد الوجود ونبضه وايقاعه .

ونتوقف أمام محاولة استثارة التعاطف مع يطل هذه الترجمة ، من خلال منطق محاذر تماما ، حتى لا تستحيل هذه المحاولة الى دفاع أعمى أو تعصب جاهل أو خطابية جوفاء .. إن التعاطف شيء والتعصب شيء آخر ، وهذا هو ما ينبغي أن يكون في ذاكرة الكاتب بلا فكاك .

ونتوقف أمام التفرقة الحاسمة - في ذهن الكاتب على الأقل - بين ما هو تاريخ ، وما هو سيرة ، وما هو ترجمة .. إن التاريخ هو مجموع هذه المادة الصلبة من الاخبار والاحداث والخطوب التي أخذت وضعها الحلولى النهائى فى مرحلة زمانية معينة بحيث لا نستطيع حيالها تغييرا ولا تحريفا .. أما السيرة فهى اقتطاع حياة خاصة لرجل خاص من هذا المجموع التاريخى الهائل على نحو استقصائى أو مقارب على الأقل .. أما الترجمة فهى معنى رحلة خاصة لكائن خاص فى الحياة بكل ما يحمل مصطلح «معنى الرحلة» من أبعاد وأعماق ..

وفى يقينى أن هذه التفرقة الحاسمة هى وحدها التى يمكن أن تحل لنا المعادلة الصعبة - كما يقولون - فى الفكر النقدى ، حيث يضطرب هذا الفكر كثيرا أمام أعمال ابداعية مثل « على هامش السيرة » مثلا ، فيحار هل يضمها الى عالم السيرة ؟ ولكن السيرة تركز على واقع تاريخى بينما يذهب هذا العمل الى التطوح الهائل فى عوالم الخيال ؟؟ هل يضمها الى عالم الخلق الروائى ؟ ولكن الخلق الروائى يرتكز على واقع خيالى بينما يذهب هذا العمل الى التزام التاريخ فى مواضع شتى من جوانبه حتى لينقل عن التاريخ أحيانا نقلا حرفيا لا يتعدى الرواية الى مجرد صياغة مضمونها من جديد ؟؟ !!

ما الحل اذن ؟ ؟

في يقيني ان الحل هو استقرأنا على فهم التراجم فهما غير مشتبك مع السيرة هكذا في اعتباط ... ان فهم التراجم تحت مصطلح « معنى الرحلة في الحياة » يستقطب على الفور كل الاعمال التي حاولت ان تعطي تراجم من هذا اللون ... تراجم تعطي التاريخ حقه والابداع حقه كذلك لأن السيرة هنا ليست معنى رحلة في الحياة كما نقول عن التراجم ... وانما هي الرحلة في الحياة غير مختلطة بشيء آخر .. ولكن ... يجب هنا ان نتيقظ دائما الى حجم الخيال ونوعيته في التراجم حتى لا تختلط التراجم بالقصة التاريخية حين تسرف في ذلك او تختلق فيه .. وحتى لا تختلط التراجم بالسير حين تقف عند حد الاستقصاء او تأمل الوجه الخارجي للأحداث ..

اكاد اؤكد ان هذه الملامح الفارقة هي بعض ما يميز مثل هذا العمل الابداعي عما سواه . وهذا وحده هو ما يعطي هذه هذه السطور قيمة ان تمنحني بكل هذا الجهد على تأمل هذه المعطيات ، ليس ذلك فحسب ، وانما هو بالتالي ما يعطي هذه السطور مبرر وجودها البدئي على هذا النمط الدارس المتفرس بلا مبالغات .. او التواءات !؟

ملاحم المنهج التحليلي في عبقریات العقاد

مقدمة

- ١ -

من الطبيعي في حركة فكرية تملك عافيتها تماما ان لا تستحيل بعض ظواهرها الصميمة الى تكرير لبعض الظواهر الصميمة الأخرى ، وان تندفع تياراتها في اتجاهات متباينة وأنحاء متعددة حتى لا يكون صوت صدى لصوت ، ولا وجه هو صورة من وجه !! وقد استطاعت حركة الفكر العربي الحديث على مستوى الابداع في مجال التراجم مثلا ان تحتاز هذه القيمة ، وان تمتلك هذه الناصية ، وان يكون اتجاه منها الى حركة التراجم التحليلية - كما نرى عند العقاد في عبقرياته - واتجاه الى حركة التراجم الروائية - كما نرى عند طه حسين في على هامش السيرة - واتجاه الى حركة التراجم التاريخية - كما نرى عند محمد حسين هيكل في حياة محمد - واتجاه الى حركة التراجم المسرحية - كما نرى عند توفيق الحكيم في مسرحية محمد - وان يكون هذا المد قادرا بذاته على التراحب والاندياح والتمدد في جهود أغيار كثيرين حتى قبل ان ينزل الستار على حيوات رواده الرائعين ، مما يؤكد ان اتجاهاتهم

الفكرية والفنية كانت تعبيرا عن روح مرحلة بكاملها ، ولم تكن مجرد ارتعاش بالكلمة على سفوح الورق . . .

ان قيمة أولئك الرواد تنبثق من وضعيتهم كمبدعين كما تنبثق من وضعيتهم كمقعدين . . وليست هذه الوضعية الثنائية بهينة في موازين الحكم ، وليست بضامرة في مجال المقارنات والموازنات . .

لقد مضى العقاد بالمنهج التحليلي ابداعا وتقعيدا . . ومضى بالمنهج الروائي والقصصى طه حسين . . ومضى بالمنهج المسرحي توفيق الحكيم . . ومضى بالمنهج التاريخي هيكل وأحمد أمين . . والجدير بالتقدير في أمر أولئك الرواد انهم بقدر ما أفادوا من الروافد الثقافية الوافدة بقدر ما استعصوا على الذوبان في هذه الروافد مع ما صاحب قدومها من بريق وضجيج ، والعجيب ان أولئك الكبار بحق لم ينعضوا رؤسهم الى تراثنا الفكرى والحضارى وانما ظلوا على صلة واشجة به يستوحونه ويبدعون فيه . ويحاولون بكل ما أفادوا أن يطوروا مضامينه وأشكاله ، وقد أتيح لهم من ذلك أمد ليس بالضامر ولا بالهزيل ، فاذا أضفنا الى ذلك قيمة ان هذه التراجم الغيرية التى أبدعها هؤلاء الرواد على اختلافها نوعيا تمثل كثيرا من القيم الحضارية التى كانت سائدة فى مراحل ابداعها الزمنية هالنا بالفعل ما قام به هؤلاء ، وان كان هذا الفتون أو قل هذا الاعتراف بدورهم الريادى فى هذا الصدد لا يصرف أيا من الأقلام الناقدة ولا ينبغى أن يصرف أيا من الأقلام الناقدة عن التصدى الراصد هكذا وجهها لوجه لكثير من المأخذ التى يمكن ان تؤخذ على هذه الأعمال !!

وقد يبدو هذا الاجمال غير منطقي فى دراسة تتصدى لرصد ملامح منهج بكامله ، وقد تلوح هنا ضرورة التفصيل والتأصيل

والصديق ، فاذا عرفنا ان الاستجابة الفكرية لهذه الضرورة ليست
هوى ذاتيا بقدر ما هي حتمية موضوعية يفرضها المسار الطبيعي
لحركة الفكر في هذا المجال ، كانت ضرورة الاستجابة لهذه الضرورة
أعمق أبعادا وأبعد أعماقا بلا حدود !!

والكاتب العربي الكبير عباس محمود العقاد يقف على رأس
المنهج التحليلي في كتابة التراجم الغيرية ، فاذا خصصنا الحديث
هنا عن عبقرياته فليس لأنها هي المستوى الوحيد القادر على إبراز
قسماته في هذا الصدد ، بقدر ما هي المستوى « النوعي » المتكامل
الذي يسطي المثل ويتحرك في نفس المجال ، اعنى ان العظمة الكامنة
في محمد هي العظمة السارية الى أبى بكر .. وعمر .. وعثمان ..
وعلى .. أولئك الذين كتب عنهم العقاد عبقرياته الشامخة التي
ما تزال حتى اليوم رافدا يتدفق بالضوء والعطر والجلال الفكرى ،
والتي ما تزال نحن في حاجة الى من يكتب عن عظماء تاريخنا من
مثل منظورها الجاد الذي يرفض أن يجرى على مسلمات لاكتها
جماهير أقلام بلا حصر ، ولكنها أبدا لم تعكس نبضة صدق واحدة ،
ولا نبضة وعى تضيف الى ملامح وجودنا الفكرى فى عالم لا غط
بملايين الإضافات !!

ولقد نعرف ان منهج العقاد التحليلي في كتابة التراجم الغيرية
قد هوجم بلا هوادة ، وعيب عليه بلا تحفظ ، وأخذ كما تؤخذ الثغرة
فى جدار يقتحم منها الواغلون والدخلاء والمنطوون على حفاظ
باهتلة ، وضغن غبى ، ولكن كاهل العقاد كان دائما أقوى !!

لا ننفى ان فى كتابات العقاد ما يمكن ان يؤخذ عليه وأن يندار
مع فكره فيه حوار ما .. ولكن ليس معنى ذلك أبدا ان العقاد لم
يفهم طبيعة منهجه ولا طبيعة كتابة التراجم الغيرية ، أو أن العقاد
قد اعتسف طريقه الى هذه الكتابة اعتسافا ، فالعقاد - بشهادة

التاريخ لا بشهادتنا نحن - واحد من قلائل مثقفينا على الاطلاق ،
وواحد من أنبغ مبدعيننا في حركة الفكر العربى قديمه وحديثه .

لقد تقف عبقریات العقاد على مستوى الندية لكثير مما كتب
في تاريخ التراجم الغربية من كتابات ، خاصة على المستوى العربى ،
ربما لانها تنطلق من موقف استقلال بحث حين اتجهت الى هذا اللون
من ألوان التراجم التحليلية غير مبالية بما يمكن ان يكون في طريقها
اليه من صخور ومعوقات . . والواقع اننا في ظلمات جمودنا الراهن
أحوج ما نكون الى هذه الفرادة وهذا التميز ، فقد غشيت نفوسنا من
طول ملامسة السطوح وتقيؤ البدييات !!

واذا كان لتكوين العقاد - فكريا ونفسيا - اثر في اتجاهه
هذا الاتجاه ، فان ذلك لا يغض من القيمة الحقيقية للتحول بكتابة
التراجم من نسقها التاريخى السردى الى هذا النسق التأمل المقارن
الطموح ، ان قيمة الكاتب الفكرية لا تشيد على فرضيات أو مجرد
أمانى ، ان قيمته الحقيقية ثابوة وقافزة معا في كل ما أنجز من
فعل فكرى ، وفي كل ما ابدع - بذهنية مستقلة - من مقولات . .
لا يهم ان يكون تكوينه الفكرى والنفسى هو الذى قاده الى هذا
السلوك . أو يكون هو الذى قاد تكوينه الفكرى والنفسى الى هذا
السلوك حتى ولو لم يكونا أساسا متجهين به ومعه في هذا
الاتجاه !!

وبدءا . . لا نريد ان نخوض في شئ قبل ان نغامر باقتحام
عالم العقاد ، كيف ترجم للنبي ؟ كيف ترجم لعمر ؟ كيف ترجم
لعثمان ؟ كيف ترجم لعلی ؟ كيف ترجم لاولئك الرائعين جميعا من
خلال منظوره القائم على حركة الاستبصار والتحليل معا . . فان
هذا المنحى النقدى اذا شئنا ان نسميه ، هو وحده القادر على اقتحام
عالم العقاد بكل ما فيه من خصوبة ، وفرادة ، واستقلال منهج
وذاات !!

ولكن لنا كلمات في مطالع هذه الرحلة : ليست هذه الدراسة كلمة أخيرة - حتى بالنسبة لكاتبها - تقال في هذا المجال ، وإنما هي محاولة اغراء حقيقى بالدخول الى هذا العالم الفاتن ، عالم التراجم الغيرية ، عالم ان تقسول كلمتك فيمن قال كلمته عن قائل كلمات بلا حدود .. عالم ان ترى من الداخل كيف تحاصر العظمة أو تقدر، أو يضائل من أقدارها التافهون .. عالم ان تضرب بالسيف وتكون الضحية هو أنت .. وان تقول الكلمة ويكون الفارس هو أنت .. وان تقف حتى ذاهلا ويكون الهائل بكل أحجامه هو أنت !!

ستكون الرحلة مع عبقریات العقاد .. عن منهجه في ابداعها .. وعن منظوره من خلالها .. وعن قناعاته الفكرية التي يمكن أن نرصدها .. وعن حركة التوافق والتخالف جميعا في حركة الفكر الابدع الذي تحرك بهذه العبقریات ومعها من زمن التأمل والاحتياز والطرح .. الى زمن المعاناة والمخاض والتحقق .. الى زمن استحالة كل أولئك الى بنية صميمة في جسد الوجود الذي هو وجود بالفعل لا بالقوة كما نعنيه .. وسنرى ..

« فى عبقرية محمد »

- ٢ -

لا نستطيع بالطبع حتى ان نوجز هنا كتاب العقاد عن « عبقرية محمد » فان المدى يتراحم بنا حينذاك الى آفاق موعلة فى البعد وموعلة فى الاتساع .. ان قصارانا هنا ان نومي « وان نشير ، والكتاب بعد فى أيدي قرائه على امتداد العالم الاسلامى .

فى مقدمة الكتاب يتحدث العقاد عن بواعث تأليفه له .. وعن أرجاء انجازه الى مدى ثلاثين عاما بعد .. ويلتفت العقاد ليؤكد ان القدر وحده هو الذى تعتمد هذا الارجاء ليضيف الى خبرة القلم المبدع خبرة ، الى قراءات العقل المفكر قراءات ، الى تجارب الكاتب الطموح تجارب واستلهامات من مذاهب شتى فى الفكر والفن والحياة .

ونحن نحن مع ايقاع هذه المقدمات بدبيب المنهج التحليلي ، فكل خاطرة منجزة أو مرجأة هي خاضعة هنا لتفرس ملامحها واستنطاق مدارها الكونى ، وليست من نوع ما يقال من خواطر عائمة لا تقع فى دائرة التحليل والتأويل والتعليل .. ان البواعث

هنا مندفعة من منطق الذود عن عقائدية مفترى عليها ، والارجاء
هنا كامن في قدرية بصيرة لا عشوائية ، وكل تحرك أو سيكون
قابل - من خلال هذه الدراسة - للانضواء تحت معقولة قابلة من
بدورها للانضواء تحت راية المنطق التحليلي .

وبدءا ٠٠ لا يريد العقاد لكتابه - عبقرية محمد - ان يكون
كتابا مضافا الى غير مناطه الطبيعي من حركة الابداع العربي في
كل اتجاه ، انه يؤكد منذ مطالع السطور على ان هذا الكتاب ليس
سيرة نبوية جديدة تضاف الى رصيد السير العربية والافرنجية ،
لان الوقائع هنا غير مقصودة لذاتها ، وليس الكتاب شرحا للاسلام
أو دفاعا عنه ٠٠ انما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين
به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى . وبالحق الذي يثبت له الحب
في قلب كل انسان وليس في قلب كل مسلم وكفى ٠٠

فهل استطاع العقاد بهذه المقولات ان يجد لكتابه انتماء نوعيا
معينا الى فصيلة محددة من فصائل الفكر ، أو الى لون معين من
ألوان الابداع ؟؟ أوشك ان ازعم هنا ان العقاد بهذه المقولات قد أبعد
القارئ عن اختراق الحائط بينه وبين نوعية كتابه ، لان هذا الكتاب
بالفعل ليس سيرة تضاف الى كم السير ، ولان هذا الكتاب بالمعنى
تقدير لعبقرية محمد ٠٠

فماذا هو اذن ؟ هناك اتجاه أو مذهب أو مدرسة في عالم
الفكر والفن يطلق عليها اسم « مدرسة تقدير العبقريات » ؟ لا أعتقد
٠٠ ان هناك ما يسمى بالسير ٠٠ وهناك ما يسمى بالتراجم ٠٠
وهناك ما يسمى بالدراسة ٠٠ وهناك ما يسمى بالتأريخ ٠٠ . أبدا
ليس هناك ما يسمى بتقدير العبقريات .

من هنا يبدو ان تمهيد العقاد أو محاولة البحث لكتابه عن
انتماء لم يكن موفقا بالقدر الذي أراد له والذي كنا نريد ٠٠ وان

كانت هذه الوضعية تلقى علينا تبعة ان نبحث نحن لكتابته عن انشاء ،
حتى لا يبقى ضائعا في المابين ، فلا هو سيرة ، ولا هو ترجمة ،
ولا هو دراسة ، ولا هو تاريخ ..

ان الكتاب - في رأيي وقد آكون مخطئا - ترجمة لمحمد
النبي صلى الله عليه وسلم وترجمة من هذا اللون الذي ارتفق فيه
العقاد عناصر المنهج التحليلي الغائر أبدا في كل ما وراء السطور
والحوادث والأشياء .. والرابط بين مقدمات كل شيء ونتائجه
بلا تخلف .. والخارج من كل أولئك بنظرية ان لم يصغها قوانين
ومبادئ وحيثيات فقد صاغها أسلوب بحث ، وطريقة عرض ،
ومنحى رؤية ، ومنهج تحليل .. دليل على ذلك ان هذه الترجمة
التحليلية الرائعة تستقطب بالفعل كل أبعاد التراجم الأخرى
وتتجاوز منها مالا يلائم طبيعتها كترجمة تحليلية ..

فحياة المترجم له مرصودة في هذه الترجمة أو تكاد ..
والأطر المادية والروحية والفكرية والانسانية التي تقلب في
مهاده المترجم له موجودة في هذه الترجمة أو تكاد ..

والشخص الذين أثر فهم المترجم له أو تأثر بهم ، وعاش
معهم أو عاشوا معه ، وشاركهم خطوب حيواتهم وأفراحهم أو
شاركوه هم خطوب حياته وأفراحها موجودة في هذه الترجمة أو
تكاد ..

وتطور المنحى الحياتي للمترجم له وانحناء هذا الخط الصاعد
أو اندفاعه موجود في هذه الترجمة أو يكاد ..

هذه هي استقصاءات هذا اللون من التراجم التحليلية ، الى
جانب اسقاطها الدائم والمستمر من منظور تحليلي على كل
ما استوعبته من وقائع على تعدد هذه الوقائع ، وأطر على تباين هذه
الأطر ، وشخص على اختلاف أولئك الشخص ، وتطور على تغاير

هذا التطور .. ولكن هذا اللون من التراجم التحليلية تجاوز كذلك قيمة الوقوف عند الكم الكلي لوقائع الحياة .. بمعنى ان كل حادثة من الجوادث لا تعنيه الا بمقدار ما توحى وتشع وتعكس عالم الداخل للمتخرج له .. لا يهم ان تكون هذه الحادثة ضخمة الحجم أو ضامرة هذا الحجم .. ان ما تشعه وحده هو الذى يستقطب اهتمام كاتب التراجم التحليلية ، وهو ما استقطب بالفعل كل اهتمام العقاد ..

فاذا انتهينا الى هذه الحقيقة النقدية .. حقيقة ان هذا اللون من ألوان الكتابة الفكرية والفنية جميعا ينتمى الى عالم « التراجم التحليلية » ولا ينتمى كما حاول العقاد أن يقول الى عالم « التقدير » أو عالم « الهيولات » التى بلا تحديد .. استطعنا بعد ان نعثر على أرضية تتحرك فوقها خطواتنا الواثقة ، وأن نسير فى اتجاه الضوء وليس فى مفارق كل الاتجاهات ..

انها ترجمة بما هي مستقطبة للحياة .. والأطر .. والشخص .. والتطور ..

وهي تحليلية بما هي رافضة من كل أولئك غير الموحى والعاكس والمشع .. وبما هي محركة كل ما احتازته فى اتجاه الخضوع الشدولى لمنطق المقدمة والنتيجة ، أو الباعث والفعل ، أو الشيء ونقيضه ...

لا يهم ان تفضى المقدمة هنا الى نتيجة ايجابية أو سلبية .. لا يهم ان يفضى الباعث الى الفعل أو الالفعل .. لا يهم كذلك ان يفضى الشيء الى نقيضه أو الى أى شيء .. المهم ان هذا الجدل الهائل هو ما يحرك كل المقدمات والبواعث والاشياء ، وهو هو ما يحرك كذلك كل النتائج والافعال والنقائض .. فاذا كانت طفولة محمد - مثلا - طفولة وادعة يتيممة مائلة للاعترال .. فان هذه المقدمات لا تفرض بالضرورة ان يكون محمد الرجل هاربا .. أو

خانعا .. أو خوارا .. أو مائلا للتفلسف المريض .. على النقيض ..
فقد خرج محمد الرجل ليحمل سيفه وكتابه .. مقاتلا على كل ثغر ..
وداعيا في كل مناط .. وضاربا عنق الخرافة والتفلسف الكاذب
بسيف من قطعة اليقيني في مجال الرؤى والأشياء !!

ويؤكد العقاد على المنحى التحليلي حين يتحدث في حديثه عن
علامات المولد النبوي من العام الى الخاص .. فقد بدأ حديثه عن
« العالم » الذي ولد فيه النبي ، ثم عن « الامة » في هذا العالم ،
ثم عن « القبيلة » في هذه الامة ، ثم عن « البيت » في هذه القبيلة ،
ثم عن « الأب » في هذا البيت ، ثم عن « الرجل » الحلم في كل
هذه الأبعاد .. والعقاد لا يتحدث عن العالم مؤرخا ، ولا عن الامة
موثقا ، ولا عن القبيلة ناسبا ، ولا عن البيت معددا ، ولا عن الأب
عاطفا ، ولا عن الرجل مفتونا ... انه يتحدث عن كل أولئك ...
منطلق نقدي على مستوى القبول والرفض ، على مستوى الدينونة
والبراءة ، على مستوى العافية والضمور .. فالعالم كان عالما متأكلا
وفاقدا لتوازنه .. والامة كانت أمة تتحسس طريقها الى الغد ..
والقبيلة كانت قبيلة مائلة الى البوار .. والبيت كان بيتا جليلا
وان كان فقيرا .. والأب كان رجلا من طينة الشهداء .. والرجل
كان يحمل في عينيه أحزان العالم وأفراح النبوة !!

ان هذه الاحكام التي يوردها العقاد لا يطلقها هكذا عارية من
التدليل والتحليل ، انها تنهض - جميعا - على ركائز من الفهم
لطبيعة العالم الموضوع كقوى متشابكة تحكمها صراعات معينة ..
وللون الامة كوحدة مستقلة من ناحية ومنتمية الى هذا العالم من
ناحية ثانية .. ولنوعية القبيلة من حيث هي مناط صراع الاغنياء
والفقراء .. ولحقيقة البيت من حيث هو وضعية جليلة اثلتها عراقا
الارومة ولم يؤثلها تراكم المال .. ولسمت الأب كواحد من الرجال
الذين لهم عمر الشهب ونفاذ الشمس .. ولهوية الرجل كناقل

للتاريخ من مناطه الهابط الى مناطه الصاعد ، وكموجه لكل الكون
فى وجهة الاكمل والاشمل شكلا ومضمونا !! .

ويمضى العقاد فى اطار منهجه التحليلى وتحت عنوان : «بشائر
الرسالة» يحلل • ويعلل • ويرفض الا القاطع الحاسم فليست
العلامات المزعومة يوم المولد النبوى تعنيه أو تستوقفه فوقتها لم
يعرف أحد مغزاها أو مؤداها ، وليس من أصباخوا الى الرسالة كانوا
من شهود هذه العلامات ، وليس محمد هو الطفل الوحيد الذى ولد
فى هذا اليوم ، فاذا جاز لمؤمن ان ينسب خارقة من هذه الخوارق
الى مولد محمد ، فقد يجوز لكابر ان ينسبها الى مولد سواه
بلا ترجيح •• ان الاتكاء الحقيقى هنا ينبغى ان يؤسس على علامتين
هما من خصائص حركة الاشياء : علامة الكون •• وعلامة
التاريخ !!

ونعبر فصول الكتاب عن « عبقرية الداعى » و « عبقرية محمد
العسكرية » و « عبقرية محمد السياسية » و « عبقرية محمد
الادارية » و « محمد البليغ » و « محمد الصديق » و « محمد
الرئيس » و « محمد الزوج » و « محمد الأب » و « محمد السيد »
و « محمد العابد » و « محمد الرجل » و « محمد فى التاريخ » ••
فلا نواجه من كل أولئك سردا أو ما يشبه السرد •• وانما نواجه
منهج تحليليا متوهجا فى كل هذه الفصول • لا يرضى بشئ ان
يؤسس عبقرية الداعى على ركائز مؤهلة لتكوين داعية بلا انداد ••
أو يؤسس عبقرية السياسى على مكونات تنفى كل مظنة لامكانية
مقارنته بمن سواه •• وهكذا •• وهكذا •• مما لا يمكن الاستطراد
معه ، فان الاستطراد يخرج بهذه السطور عن طبيعة ما وجهت
اليه •

واذا شئنا مزيدا من التحديد فى اقتناص الملامح العامة للمنهج
التحليلى فى عبقرية محمد •• فقد نستطيع أن نجد هنا بعضا من

هذه الملامح .. مما يؤكد حتمية ان هذه التراجم مجتمعة تتكامل
وتتساند .. وتنتمي بالضرورة الى عالم التراجم التحليلية ولا تنتمي
الى سواه ..

فالاصرار على تقصى السلائق النفسية واستقصاء الملكات
الشخصية ..

والدخول الباحث الى ممالك الذات بلا فكاك ..

ورفض التعويل على الخوارق واعتماد الفعل والباعث في تحليل
الظواهر ودراسة الشخصية ..

والمقارنات التي لا تكل بين المترجم له وبين انداده من الغابرين
والمعاصرين ..

وتقدير العبقرية من منظور يؤكد بانها خالقة لقوى التطور
الفاعل ..

والبحث عن مواءمة الفعل التاريخي لمنطق وطبيعة الاشياء ..
ورسم الشخصية من خلال استقصاء كل ملامحها المادية
والنفسية ثم من خلال رؤية الكاتب الذاتية لا من خلال رؤية
الآخرين ..

كل أولئك يؤكد ان العقاد كان يعرف طريقه جيدا الى كتابة
هذا اللون من التراجم التحليلية ، ويؤكد ان المنهج التحليلي ليس
عشوائية ضاربة على كل مدار ، وانما هي فلسفة مسبقة يدخل بها
الكاتب من منطق الوعي الى عالم الابداع .. نازقا حبره ودمه !!

« في عبقرية عمر »

- ٢ -

ليست عناصر الحركة في أى منهج من المناهج يابسة أو قابلة للتحجر والجمود ، لان ديمومة الاستحالة والتطور في كل منحى من مناحى الحياة والفن والفكر تحتم بالضرورة ان تكون عناصر الحركة في أى منهج من المناهج قابلة للتطور والنمو حتى والانكماش ، لتصير بما هي متطورة ، أو بما هي نامية ، أو بما هي منكشبة الى شكل أعلى اذا هي وافقت خطى التطور ، أو الى شكل أسفل اذا هي لم تستطع ان توائم حركة النمو وتسير في موازاة الصعود !!

من هنا . . فقد نرى في عبقرية من عبقریات العقاد ملامح منهج تحليلي . . ثم نرى في عبقرية أخرى اضافة الى هذه الملامح ، أو ضمورا في هذه الملامح . . مما يؤكد فرضية ان أيا من المناهج ليس يجوز ان يبقى حركة فكر يابسة تقف عند قناعاتها القابضة غير قابلة للمعاطاة ايجابا وسلبا ، وان من طبيعة الأشياء أن تكون ملامح المنهج التحليلي في عبقرية عمر انضج من ملامح المنهج التحليلي في عبقرية محمد ، وان تكون أبعاد الرؤية المؤصلة لهذا المنهج في

عمر ٠٠ اذا صح ان الترتيب الزمني في ابداع هذه العبقریات كان عبقرية الصديق ارحب من ابعاد الرؤية المؤصلة لهذا المنهج في عبقرية بادئا بعبقرية محمد ٠٠ ومثنيا بعبقرية عمر ٠٠ ومثلثا بعبقرية الصديق ٠٠ ان قيمة « العنصر الزمني » هنا لا تهدر ولا تضيع وانما تبقى في النهاية واحدة من القيم الصميمة التي تضيف الى رؤية الكاتب وخبرته ونوعية ما يعطى من المقولات !!

كنا قد وقفنا من ملامح المنهج التحليلي في « عبقرية محمد » عند هذه العناصر :

الاصرار على تقصى السلائق النفسية واستقصاء الملائك الشخصية •

الدخول الباحث الى ممالك الذات بلا فكاك •

رفض التعويل على الخوارق واعتماد الفعل والباعث في تحليل الظواهر ودراسة الشخصية •

المقارنات التي لا تكل بين المترجم له وبين أنداده من الغابرين والمعاصرين •

تقدير العبقرية من منظور يؤكد بأنها خالقة لقوى التطور الفاعل •

البحث عن مواءمة الفعل التاريخي لمنطق وطبيعة الاشياء •

• رسم الشخصية من خلال استقصاء كل ملامحها المادية والنفسية .. ثم من خلال رؤية الكاتب الذاتية لا من خلال رؤية الآخر ..

هذه هي عناصر المنهج التحليلي كما بدت في « عبقرية محمد » فهل انداحت هذه العناصر في « عبقرية عمر » وتراجبت آمادها المادية والفكرية ؟ هل انكششت هذه العناصر وتراجع كاتبها عن عديد من مقولاتها تبين له خطئها أو تجاوز العصر لها ؟؟

هذا هو ما نهدف الى استكناه حقائقه من خلال هذا الاستقصاء النقدي .. وهو منشود هائل في موازين الحكم والتقدير بكل المقاييس :

في عبقرية عمر .. يوميء العقاد الى المعاناة الفادحة التي صاحبت ميلاد هذا الكتاب والى معاناة أخرى لا تقل فداحة عن هذه في « محاسبة عمر » لأن عمر - كما يرى العقاد - كان حتى حين يخطئ على حجة ناهضة في كل أمر ، ومن هنا كان أصعب رجل في العظماء نقدا ومؤاخذاً .

رسمة أخرى نواجه العقاد رافضاً أن يكون كتابه عن « عبقرية عمر » سيرة .. أو تاريخاً .. أو ترجمة .. وأن يكن قد اعترف هذه المرة بأن كتابه « دراسة » لأطوار عمر وخصائص عظيمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس والأخلاق وحقائق الحياة ..

ولكننا هنا - كما في عبقرية محمد - لا نوافق العقاد على نفي كتابه « عبقرية عمر » من مناطق التراجم التحليلية ، فهو ترجمة تحليلية واعية تعرف من أين بدؤها والى أين انتهاؤها ، وتعرف الى جوار ذلك كيف تضع بطل ترجمتها تحت عديد من مشاغل الفكر والنفس والاجتماع والسياسة وحركة الأشياء ، لتقيم في نهاية

الأمر أروع المعادلات الكاشفة عن حقائق النفس ، واتجاهات نوازع الوجدان !! أن العقاد هنا - كما في عبقرية محمد - يرفض أن يكون الحدث بذاته هو القيمة المنشودة في حركة الفكر ، لأن البعد الدلالي للحدث هو ما يعنيه بالدرجة الأولى ، وهو ما يستقطب اهتماماته الباحثة من وراء كل السطور !!

في الفصل الأول من عبقرية عمر . يربط العقاد فيما يشبه الحتمية الوجودية بين عمر بن الخطاب وبين الدعوة الإسلامية . فقد كانت الدعوة لعمر أفقا تفتحت فيه عبقريته وتنامت على جنباته ملكاته . ومن يدري ماذا كان يمكن أن يصير عمر لولا الإسلام . فهو وليد الدعوة المحمدية دون سواها بلا مرا . . . هذه الحتمية تنسحب كذلك على صلة النبي بالفاروق وعلى صلة الفاروق بالنبي . فمن غير محمد كان يستطيع أن ينفذ إلى حقائق عظمة الفاروق وأن يبتعثها فيما يشبه الدوى ليستحيل « في الإسلام » قوة بعد أن استحال « بالإسلام » عنفوانا ؟؟ . . . هذه الحتمية تنسحب كذلك على علاقة عمر بالفعل . . وعلى علاقة العقاد بتقدير هذا الفعل معا ، فليس تقدير حركة الفعل - في حياة عمر - تبريرا للشيء بعد حدوثه ، وإنما هو قائم على مبدأ القصد والمراجعة في حياة رجل يمكن أن يكون بكل الموازين « أول » من فعل . . و « أول » من ابتكر . . و « أول » من أوصى . . و « أول » من تفرد . . إلى آخر هذه الأوليات !!

لو كان العقاد هنا يكتب « دراسة » كما قال ، لاكتفى من هذه الحتميات بحركتها الميكانيكية البحتة ، ولكنه يكتب ترجمة تحليلية تخضع منطق كل شيء للمنطق في كل شيء ، بحيث تبدو حركة الحتمية حركة كأنما هي مقدودة من لحم الوجود الشامل الذي يحياه الجماد والنبات والحيوان والإنسان . وهذا فرق ما بين الجبر في إطاره الساذج ، والجبر في إطاره المتنامي من قاع الكون الصميمي إلى أعراف كل الأكوان !!

.. ان عمر « الممتاز كرجل » .. هو عمر « الرجل القوى » .. هو عمر الذى نرى الى « مفتاح شخصيته » - كما يرى العقاد - فى « طبيعة الجندي » .. ان « الممتاز » فى الرجل يفضى الى « الرجل » فى القوى .. وهما معا يشكلان « الرجل الجندي » المأمول لقيادة دعوة فى عالم ضاج بزئير الوحوش وقعقة الرماح!! ولقد أفضى كل أولئك الى عمر « المسلم » الذى لم يكن اسلامه طفرة غاشم من الفراغ الى الفراغ .. وانما كان تحولا صميميا مسبقا مهدت له فى عمر استجابات صميمة ، ومهدت له فى النبي القائد بصيرة نافذة وعبقرية بطائع الرجال : (لأن الانسان اذا غير معيشته فانما يغير صناعة ، واذا غير موطنه فانما يغير بلدا ، واذا غير زيه فانما يغير سمتا يقوم على كسائه ، ولكنه اذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه واستبدل به كونا آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله ، وغير حاضره وحاضر أهله ، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ، ومنها مآلف وأواصر ، ومحارب ومكاره متوشجات الأصول الى ما وراء الآباء والأجداد) .

هذا لون من التحليلية العقادية فى ترجمته للفاروق ، ان عمر هنا يبدو كونا من الكون ، وليس مجرد نبات ضامر على حفافى تكون هذا الكون .. وهو ما ننشد بالفعل أن يكون فى كل التراجم المصدية لتقييم الرجال ، فان التاريخ قد أعطى حيواتهم بلا حصر ، وعدد أيامهم بلا تقصير ، أن البصيرة هى ما تغورنا فى هذا الضدد ، فليست حيوات أولئك الرجال مجرد أيام تمر ، أو حوادث تقع فى أول أو منتصف أو حتى نهاية الطريق !! ..

والملاحظ فى منهج العقاد هنا انه يبدأ القضايا بالتقعيد أو ترسيخ الأصول ، ثم يمضى بعد فى محاولات تطبيقية جادة تنويعا

على هذا الايقاع الصميمي . وتأكيذا لصوابية مقولاته على
الاطلاق ..

لقد نلتقي بعمر والدولة الاسلامية .. وبعمر والحكومة
العصرية .. وبعمر والنبى .. وبعمر والصحابة .. وبثقافة عمر
.. وبعمر فى بيته .. وبعمر فى صورة مجملة .. ولكن لقاءنا
بالفاروق فى كل هذه الأبعاد يزيدنا اقتناعا بأن العقاد حين عقد
بيننا وبين عمر مثل هذا اللقاء لم يكن هادفا الى وعظنا من جهة ،
ولا الى تعليمنا من جهة ثانية ، ولا الى حشد رؤوسنا بمعلومات
ناضبة عن حياة الفاروق آخر الأمر .. ولكنه كان هادفا الى تعرية
الحقائق الكبرى فى حياة واحد من العظماء الذين غيروا محاور
الفكر ، وحولوا منطلق الزمن ، ورسخوا فى الأرض مقولات ومفاهيم
بحجم كل العظمة فى كل مناط !!

ولسنا نريد الاستطراد مع كل وقفة من هذه الوقفات ، حتى
لا تستحيل حركتنا نحن الى « تلخيص » لعبقرية عمر ، فما الى
شىء من هذا قصدنا حين تحركنا بالقلم صوب هذه السطور ..
ان استشفاف المنهج التحليلي من عبقریات العقاد هو ما نهدف
اليه ، وقد تقترب من آمالنا فى هذا الصدد خطوة أو خطوات حين
نرصد على وجه التقريب بعضا من ملامح هذا المنهج ، وهى بحق
كثير .. كثير !!

ان التأكيد على أن يكون لكل شخصية « مفتاح » يفضى بنا
الى مداخل وأبهاء هذه الشخصية واحد من ملامح هذا المنهج
التحليلي .

ان التعيد والتطبيق ملامح آخر من ملامح هذا المنهج .

ان تحليل كل الظواهر والمواقف ملامح آخر .

ان البداية من منطلق التسليم . والتدرج الى صميم الحركة
والبطل للانتهاء الى قرار يصوب أو يخطئ ملمح آخر .

ان الحتمية المفضية الى توشيح أواصر البطل بالكون ملمح
آخر .

ان الإعجاب بعظمة العظيم والذيادة عن هذه العظمة ملمح
آخر .. وقد لا يكون أخيرا .

من هذه الملامح المرصودة هنا على عجل .. يمكن أن نهتدى
الى طبيعة تراجم العقاد .. فهى « تراجم » هذا لا يقبل الجدل ..
وهى تراجم « تحليلية » هذا لا يقبل الحوار .. وهى خطوة على
طريق التأصيل لمنهج فكرى ناهض على الأخذ من التراث العالمى
وعلى العطاء لهذا التراث العالمى جميعا ، هذه مقولة آمل أن لا تقبل
الجدل وأن لا تتحيف من صميميتها ثرثرة الحوار .. وقتها تتوسد
رؤوسنا المعانية وسائد الشروق !!

« في عبقرية الصديق »

- ٤ -

يخيل الى القارئ لعبقرية الصديق بعد قراءته لعبقرية عمر . . انه مع كاتبها أمام رجل فرغ من اسقاط رؤياه في الرجال ، وفي البطولة حين كتب عبقرية الفاروق . . وانه قد أتيح له من أبي بكر مثال تطبيقي أو مقارن على وجه أدق ، فحاول أن يدرس عظمته مقارنة الى عظمة عمر ، ودوره مقارنا الى دور عمر ، ومواقفه مقارنة الى مواقف عمر ، مع اختلاف مسلم وطبيعي بين طبيعة هذا وطبيعة ذاك .

ولكننا ما نكاد نمضي في قراءتنا لعبقرية الصديق حتى نحس على الفور بان العقاد الى جانب مقارناته وموافقاته ومخالفاته جميعا ، قد نحا بعبقرية الصديق منحى يضيف الى حركة الفكر ، ويشري مجارى التطور !!

وطبيعي انه لا يعني أن يقول العقاد في مقدمة كتابه انه لا يكتب ترجمة . . فتلك شنشنة نعرفها ولا ننخدع ببريقها أبدا . . لانه اذا لم تكن عبقریات العقاد تراجم فماذا اذن تكون ؟ ان كل العبقریات ينسبها التأليف ، وبمنهجها التحليلي ،

وباستقالتها: لرؤى النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، تقف من التراجم على يفاع غير منكور . . . قد يكون العقاد متهيبا أن يقول انها تراجم ، وقد يكون رأيه فى كتابة التراجم شيئا آخر لا ندرية ، لان الذى ندرية من رأى العقاد فى هذا الصدد انه يرى فى التراجم شيئا أبعد من رصد الوقائع الحياتية ، وحركة أعمق من استقصاء الملامح المادية ، ولقد ناقش فى هذا المعنى واحدا من أكبر من أبدعوا فى ميدان التراجم الغيرية وهو « اميل لودفيج » وتوهج من خلال حواراه مع مقولات هذا الكاتب مايمكن أن نسميه: ملامح منهجه فى كتابة التراجم . . وهى ملامح تنعطف صوب المنهج التحليلى بكل أبعاده لا تتعداه . .

واذا كنا فى حوارنا حول مقولات المنهج التحليلى فى « عبقرية محمد » وفى « عبقرية عمر » قد استبنا بعض ملامح هذا المنهج . فانه من المؤكد اننا فى حوارنا مع مضامين « عبقرية الصديق » سنضيف الى الملامح ملامح أخرى ، والى الأبعاد بعدا جديدا . . ولكن لنا ملاحظة أولى ينبغى أن نضعها هنا على هون . . هى انه ربما لو تغير ترتيب فصول هذا الكتاب لكنا قد حصلنا على ترجمة تحليلية متنامية ، وليس على مجرد ترجمة تحليلية . . وسيدرك هذه الحقيقة كل من يتأمل ترتيب هذه الفصول . . ولكننا نمضى :

فى « عبقرية الصديق » يركز العقاد منذ البدء على الملمح النفسى العاكس لخالق أبى بكر وبواعث أعماله جميعا . . مركزا على جانب الاحتياز وليس على جانب الطرح ، فان من حق العظيم أن يوفى حقه من التوقير وأن ترفع صورته الى مكان التجلة وان لم يمنع ذلك أن نصدقهم الوصف والتصوير . .

وحين يتصدى العقاد لمقولات هاجمة على بطله لا يأخذ القضية مأخذ الروع ، ولا يأخذها كذلك من منحى الاعتباط . . وانما هو محتشد لمركته بكل ما يملك ، ضارب بكل ثقله ، محيط بالقضية

الموضوع استيعابا ومنحا ، راکض الى خصمه من كل صوب ،
يخاور .. ويدأور .. ويحلل .. ويعلل .. ويقلب الوجه الواحد
على عديد من الوجوه ، فاذا انتهيت معه الى نتيجة بهرتك فيها
قوة العارضة وشمولية النظرة .. واذا اختلفت معه حول هذه
النتيجة فأنت لا تملك الا احترامه كخصم فاهم وذكى وقادر على
منح القضية أبعادا جديدة بلا اسراف !!

لقد تتضح هذه الخاصية فى الفصل الثانى من عبقرية
الصدیق والذى كتبه العقاد تحت عنوان « الصديق الأول والخليفة
الأول » .. لقد لغل اللاغظون بأن الصديق لم يصل الى الخلافة
الا من خلال مؤامرة مدبرة .. ولكن العقاد حين يتصدى لهذه
المقولة الهابطة يتألق فى حشد من الدلائل الدافعة ، وتأهيب كل
دليل على جبنية من جبهات الدفاع ، ومحاصرة القوى اللاغطة بمزيد
من الوعى والاستبصار وروعة الشمول ..

ان وفاء عائشة وترددها فى التبليغ .. واشراكها لحفصة ،
ولحفصة بنت عمر بالذات .. واشفاقها على أبيها أن يحمل بدء
الشؤم فى أول خلافة بعد موت النبی .. وأخلاقيات كل من حاول
المستشرقون اشراكهم فى هذه المؤامرة المدعاة .. ومفاجأة القوم
بما حدث تماما حتى اللعنة .. وغياب أبى بكر المتصدى للزعامة
عن بيت النبی وجواره فى هذه الاناء ، وانذهال عمر حتى حافة
العدوان على كل من يردد النبأ الفاجع .. وتدوير عمر فى نفسه
كلما يواجه به اجتماع السقيفة .. وتدوير أبى بكر فى نفسه
كلما مثل ذلك .. وانتفاء أى موقف مسبق فى مواجهة اجتماع
السقيفة بين أبى بكر وعمر .. ولقاءهما الاتفاقى المحض مع
أبى عبيدة فى الطريق .. وتلويح عمر لأبى عبيدة بتولى الخلافة
اما مقتنعا أو مختبرا .. ورفض معقولة أن يكون الاتفاق قد تم
قبل أن يمرض النبی مرض الموت لاحتمال أن يفسح القرآن هذا

الاتفاق وأن ينزل بغير ما اتفقوا عليه أو يوصى النبي بغيره . . .
ان كل ذلك يضرب كل افتراء بادعاء المؤامرة في وجهه ، وينفى
تماما أن يأتصر القوم في مثل هذا المجال بمثل هذه المؤامرة التي
لا تتفق مع ما رباهم عليه محمد من أخلاقيات !!!

هذا هو لون الدفاع الدارس الفاهم الشمولى الذى لا يترك
وجهة الا توقف عندها ، ولا هاجسة الا استنبطها ، ولا خلجة فكر
واحدة الا صاغها في مناطها الطبيعى من حركة القضية -
الموضوع !!

وانسيابا مع موقف العقاد من بحثه الدائب المقتنع من
« مفتاح شخصية » لكل واحد من أبطاله العديدين ، يتلمس هنا
مفتاح شخصية الصديق في «الاعجاب بالبطولة» . . ويلقى العقاد
درسا في التراجم الأدبية كيف ينبغي أن تكون ، حتى لنحس مع
استطراده التحليلي حول مصطلح الاعجاب بالبطولة اننا أمام كاتب
فرغ نفسه تماما لدراسة هذه الظاهرة ، ولكننا لا نلبث أن نجد
تطبيق كل هذه المقولات في حياة الصديق ، مما يوحى بأن المنهج
التحليلي الذى ارتضاه العقاد ليس شقشقة هامشية من جهة . .
وليس تععيدا متأبيا على التطبيق من جهة أخرى ، وانما هو مزاج
من التعيد والتطبيق يقضى فى النهاية الى نظرية متكاملة تضىء
أبعادها بكل الرؤى ، ويتوهج مداها بكل المضامين . . ان البطولة
التي تفتن العقاد هنا هي بطولة الكل المتوحد الشامل . . وليست
هذه الامشاج المبعثرة التي نأخذ منها بعضها وتدع منها بعضها
الآخر . .

وكان العقاد في بحثه الدائب عن تكامل نظرى لمنهجه التحليلي
لا يريد أن يدع جانبا من جوانب الابداع دون استقطابه وارتفاقه ،
فهو من خلال عبقرية الصديق يدخل عنصر الحوار أو المنولوج قضية
من قضايا تصميم التراجم . . ولكن هذا الحوار لا يأخذ الحقائق

مأخذ البديهية ولا يتناولها من منظور السرد .. فان أعدى أعداء المنهج التحليلي أن تحتل البديهية مناط الفكر .. وأن يغتال السرد شقائق التحليل ..

وتتألق ظاهرة التفصيل بعد الاجمال ، أو التطبيق بعد التقييد في حديث العقاد عن « اسلام » أبي بكر .. وهنا تتضح ملامح المنهج العقادي .. فهو يؤصل للقضية أولا .. ثم يفلسف هذا التأصيل ثانيا .. ثم يطبق المقولات على المترجم له آخر الأمر .. وكما يلجأ العقاد في توثيق قضاياها بالايجاب يلجأ كذلك الى توثيق هذه القضايا بعنصر السلب .. فلم يكن أبو بكر مهددا في سيادة مضروبة على أعناق الناس ، ولم تكن لأبي بكر مصلحة في دوام الجاهلية ، ولم يكن الرجل مغلق الذهن ولا وصفه أحد بذلك ، الى آخر هذا السلب الموحى بجذور كل الايجاب ..

لا أريد أن أستطرد مع كل فصول هذا الكتاب الرائع بحق ، فان المدى يطول بنا اذا نحن فعلنا أو كنا حتى على نية أن نفعل .. وانما أريد أن أوجز عناصر المنهج التحليلي التي يمكن أن تكون عبقرية الصديق قد أضافتها الى ما أسلفنا - في عبقرية محمد وعبقرية عمر - وهي على وجه مقارب :

- المنحى النفسى فى معالجة المواقف والأحداث .
- الدفاع من منطق الاستيعاب والفهم والاحتواء .
- مفتاح الشخصية المستليم - هنا - من المنحى النفسى للمترجم له .
- الحوار أو المنولوج كعنصر جديد فى التراجم التحليلية .
- التأصيل والفلسفة والتطبيق .
- التأكيد على عنصر الجدل المتكامل وليس المتناقض .

• التوثيق بالسلب كما بالايجاب •

• التفريق بين الصدق والتجميل •

هذه هي الملامح التى يمكن أن تضاف الى ما سبق من ملامح المنهج التحليلي . وهى مع غيرها تكون الاطار العام لهذا المنهج الذى نليت وراء اطاره النهائى ومن الحق أن يقال : ان المنهج التحليلي الذى انتهجه العقاد فى تراجمه أهدى مما عداه من جهتين على الأقل :

الأولى - ان المنحى السردى فى التراجم الغيرية مهما أكب على الاستقصاء واحتواء أخبار المترجم له لن يأتى على « كل » ما يتصل بهذه الأخبار . . وربما كانت مروية واحدة مفتقدة أدل على مزاج صاحبها من كل الركام والحشد الذى جمعه وعانى فى جمعه . فيبقى المنحى السردى فى النهاية قاصرا عن الاحاطة المفيدة على كل حال !!

والثانية : ان المنهج التحليلي بعبوره على المرويات الساذجة التى لا تضيف الى ملامح الشخصية . وبوقوفه عندما يمكن أن يكون مدخلا حقيقيا الى عوالم الذات ومناحى قوتها وضعفها ، انما يقدم لنا الذات المترجمة بأبعادها جميعا أو تكاد !!

مثلا . . نحن لا نفيد كثيرا من أن أبا بكر ولد يوم كذا ، وفعل فى طفولته كذا وكذا ، وتدرج الى صباه وشبابه على هذا النحو أو ذاك - على صميمية كل أولئك فى التراجم - ولكننا نفيد أكثر من الكثير حين نعرف من بواعث المترجم له وخوالبه وقناعاته النهائية أو المرحلية فى كل القضايا وكل الحلول . . ان الرجل - اللحم والدم لا يعنينا فى التراجم كثيرا ما لم يكن صاحب عبقرية فى مجال ما ، ما لم يكن صاحب بروز فى اتجاه بعينه ، وليس

السرد هو ما يعكس لنا هذا البروز وانما هو التحليل.. والتحليل وحده على أى من الوجوه !!

اننا نفيد بلا حدود من قضية كون أبى بكر كان رجلا « اقتداء » فى حين كان عمر رجلا « اجتهد » .. ان هذا الملمح النفسى والحياتى لا يضىء لنا مرحلة الرجولة فى حياة أبى بكر فحسب .. ولكنه يضىء كذلك مراحل الصبا والطفولة والشباب .. ان اتجاهاتنا الصميمة ليست وليدة موقف ولا هى وليدة طور واحد من الأطوار .. انها وشائج عمر بكامله ، ومقومات شخصية بأسرها ، وملامح ذات بلا نقصان .. فاذا كانت هذه الذات قد تكاملت أنساقا فى مرحلة الرجولة ، فقد تنامت ايناعا مبشرا فى مراحل ما قبل الطفولة من أطوار بلا حدود !!

وحسب العقاد أن يكون أول رائد على هذا الدرب .. وأول فارس يركب جواده عاريا .. فالفرسية اقتدار لا يجبن .. ولا يلتفت الى الوراء ..

« في عبقرية الامام »

- ٥ -

في عبقرية الامام .. يتألق العقاد في احتواء منهجه التحليلي على صورة رائعة ، فان وراء كل نص من النصوص التي يوردها - مؤيدة هذه النصوص - أو معارضة - فكرا باحشا ورؤية نافذة واستشفافا بصيرا .. ان النص التاريخي لا يحمل عند العقاد قداسته الا من موافقته الطبيعية لمنطق الأشياء وهوية الذات الفاعلة ، فاذا ارتطم هذا النص بمنطق الأشياء كان وضعية كاذبة في مسار الحركة التاريخية ، واذا لم يتواءم مع هوية الذات الفاعلة كان ابتداعا باهتا منتميا بلا شرعية الى حركة الفعل الانساني في نمطه النبيل !!

وعبقرية الامام من بين عبقریات العقاد تبدو قصيدة شعر يفكر ... ان فيها من طبيعة الشجر رشاقة الحركة ... وايقاعية التخييز ... واحتشاد العاطفة في كل السطور ... وفيها من طبيعة الفكر منطقية الحدث ... وتعليل الظاهرات ... ونبش السطح في حركة البحث عن كينونة القاع ... ومن هنا يبدو الشعر في هذه الترجمة غير عدواني على تعميق حركة الفكر ... ويبدو الفكر غير

عشوائي بما هو استبصار بالبدنية الشعرية التي تعيش في حركة
اندفاعها ما وراء السطوح !!

وقد لا ندع هذا المجال ليفلت حتى نجلى أبعاده الغائرة .
ونرى الى حركة الشعر فيه كيف تستحيل الى حركة شعر بفكر
.. غير ناقصة عن استيعاب مدلولاتها الحية . ولا هاربة من قدر
المواجهة التحليلية على أى من المستويات !!

في ختام فصول «عبقريه الامام» يقول العقاد تحت عنوان :
« صورة مجملة » :

(... من كلمات الامام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في
خطاب الدنيا حيث يقول : « يا دنيا غري غري .. غري غري » !!
وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء .. انها لسان قدر ، وعنوان
حياة .. فقد خلق الامام وفي خليقة من خلائقه الكبار اجترأ على
الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجترأ ... خلق شجاعا بالغا في
الشجاعة ، وزاهدا بين الزهد ، ودراسا محبا للحقيقة الدينية
يتحراها حيث اهتدى اليها ... والشجاع جرىء على الدنيا لانه
لا يبالي بالحياة ، والزاهد جرىء على الدنيا لانه لا يبالي النعيم ،
وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لانها طريق عنده الى غاية من
ورائها ... فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف
بطاريء من الطواريء كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ صام الناس
قبله عن الدنيا ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها ...
هدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت الطبائع الى مألوفها الذي
أشربت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم
تعلمه الجزيرة العربية قط في تاريخها القديم ... وأقبل الناس
على الدنيا بل هزولوا الى الدنيا ... واذا بخليفة جرىء عليها
زاهد فيها يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها ... يصد ماذا ؟
يصد الطوفان وهو مندفع من وراء السدود ... يصد الطبيعة

الانسانية وهى منطلقة من عقال التقوى . . . يصد ما لا سبيل الى
صدده بحال . . . فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريرته ، فان
الانسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة
الشهداء . . . وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له ،
وكل حركة سعى اليها أو سعت اليه . . . فمن آيات الشهادة أنه
يساق الى الخلافة ولا حيلة له فى اجتنابها . . . ومن آيات الشهادة
انه يساق اليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك ، وتقوم الحوائل
كلها بينه وبينها قبل الأوان . . . ومن آيات الشهادة انه يساق
اليها ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مأزقها
. . . ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ،
ولا حيلة فى تبديل أولئك الأنصار . . . ومن آيات الشهادة
ألا تغره الدنيا وقد غرت حوله كل انسان فهو شهيد . . شهيد . .
شهيد !! خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه . . وخرج
منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام !!!) . . .

هل قال العقاد فى هذه السطور حوادث تاريخية ؟ أم وقائع
مادية ؟ أم مراحل حياة ؟ أبدا لم يقل العقاد من ذلك شيئا وان يكن
قد أوماً الى كثير منه . . . ولكن العقاد من خلال هذا الشعر المبطن
بروعة الفكر قد قال أكثر من الحوادث والوقائع والمراحل . . لقد
أعطانا عن « الامام » صورة نابضة تجيش فيها كل روافد الحياة :
جراءة على الدنيا من طرق كثيرة لا من طريق واحد !! وصمود فى
مسائل الطوفان غير آبه بعرامة الطوفان !! وانحناء رجل على حس
الشهادة من لفائف المهد الى مهابط اللحد !! وكشف هائل عن
مسارب الحركة الاسلامية وتخومها البشرية ايجابا وسلبا . . تجذرا
وتحدرا . . الهاما واعتما . . لو ان العقاد هنا حشد ركائما من
النقول التاريخية الصماء ليدل على ملامح المرحلة لما بلغ من ذلك
شيئا يثقل فى موازين التاريخ الحقيقى . . أو قل لقد كان يبلغ
من ذلك الى المستوى المتعارف الذى لا كتبه أقلام كثيرة واحتوته عقول

بلا حدود .. ولكن الصورة حينذاك كانت تبقى في وضعيتها
الجامدة : حادثة الى جوار حادثة .. وواقعة الى جوار واقعة ..
وآنا الى جوار آن .. تتكامل من كل أولئك مرحلة ترى وجهها
الصامت .. ولكننا لا نستطيع أن نوغل في أعماقها الساربة وأدغالها
الهائلة ، وألفافها الشاجنة الأبعاد والأغوار !!

بضربة فكر شاعر واحدة يستطيع الكاتب أن يقتنص عديدا
من الحقائق الجذرية في هذا الكون الرحيب !!

وبآلاف من ضربات الفكر العارى عن استبصاره الشعري
ربما يستطيع الكاتب أن يقتنص حقيقة شاردة من هنا ، أو حقيقة
تائهة من هناك .. ثم لا شيء !!

ولقد ارتفع العقاد في رحلة تراجمه التحليلية حركة الفكر
بالشعر ، وحركة الفكر - الشعر .. مما هيا له اقتناص هذه
الحقائق الضخمة التي نقف أمامها ذاهلين .. غير مدركين لحقيقة
سيره الواصل إليها ، وتهدفه الصميمي الى أسرها بشبكة الفكر -
الشعر .. التي لا تخطيء صيدها على الإطلاق !!

لا أريد أن أتلبث عند هذه الظاهرة أكثر مما تلبثت ..
فلنعبر تخومها الى مناحي أخرى من منهج العقاد في كتابه الرائع
عن « عبقرية الامام »

في هذا الكتاب يعترف العقاد بان هذا العمل الابداعي
« سيرة » للامام .. ولكنه يؤشب اعترافه بضوابط حتى لا يفلت
اعترافه من مناطق التحديد .. فهو سيرة .. أجل .. ولكن هذه
السيرة نوعية ربما لا تلتقي كثيرا بنوعيات أخرى قد تتأخم
حدودها .. ليس من منحى كونها عملا ابداعيا يعكس مضامينه
وشكوله معا كاتب كالعقاد .. وانما كذلك من منحى كونها سيرة

لرجل متوحد بنمطه الانساني في غمار الملايين من هذا المحيط
البشرى الزاخر الجنبات - وكما يحدد العقاد هذه الفروق :

لان في هذه السيرة ملتقى بالعاطفة المشبوبة والاحساس
المتطلع الى الرحمة والاكبار لانه الشهيد أبو الشهداء .

ولان في سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالخيال حيث تخلق
الشاعرية الانسانية في الأجواء أو تغوص في الأغوار .

ولان هذه السيرة تلتقى بالفكر - كما تلتقى بالخيال
والعاطفة - لان لصاحبها آراء في مناحي الفكر والشرعية والأخلاق
سبقت جميع الآراء في الثقافة الاسلامية . . ولانه أحجى الخلفاء
الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور
. . ولانه أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه
بذكاء الساسة المتغلبين .

ولان في هذه السيرة ملتقى بالذوق الأدبي أو الذوق الفني
- كملتقى الفكر والخيال والعاطفة - فصاحبها على استبصار
بمناهج الأدب والبلاغة والذوق والحكمة والأدب والخطابة والابداع
غير منكور في حركة الفكر أو حركة الوجدان !!

وصاحب هذه السيرة - أو الترجمة على نحو أدق - رجل
خصومة ناشبة أبدا على رأى من الآراء أو حق من الحقوق .

ورجل شكوى وتمرد وشوق هادر الى التجديد والاصلاح
(فقد أصبح اسم على علما يلتف به كل مغضوب ، وصيحة ينادى
بها كل طالب انصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم
له دولة في حياته ، وجعل الغاصبون على كل مجتمع باغ ، وكل
حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة
الاصلاح أو كأنها النفس الذي يستروح اليه كل مكظوم) !!

ولكن المنحى التحليلي البحت من منهج العقاد في كتابة التراجم الغيرية يبين أكثر من خلال هذه السطور :

(... وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما بعده حذر ، لان اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يؤول بها الى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها . فالبطل الذي يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذي يلتقى بالفكر والعاطفة ، وان هذا لأسهل من الذي يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى في ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة ، أو شغف بالبلاغة ، أو رياضة على التقوى ، مزيدا على التخيل والشعور والتفكير) !!

هذا هو الاحساس بالخطر أمام هذا اللون من ألوان التراجم التحليلية التي لا تتأتى الشخصية من جانب واحد أو من زاوية واحدة ، وانما تتأتاها من مظانها جميعا ، حتى يمكن الاحاطة بها ، مع مصاحبة الاحساس الدائم بالخطر كلما أوغلت الشخصية في منادح الفكر والخيال والعاطفة وما شاء لها وجودها أن تكون ...

ان الاستطراد مع فصول هذا الكتاب رائع الاغراء ، ولكن منادح القضية أرحب من أن يضمها هذا الاطار .. فلتكن هذه السطور تحية ان لم تستطع أن تكون دراسة .. وليكن الذهول أمام روعة النور اعترافا بمحدودية الرؤية وباندفاع آمام الحركة الضوئية الفاتنة الحدود والأبعاد ولنكن نحن من ذلك كله - كما كان أولئك الكبار - على احساس بالخطر !!!

• • فى : ذو النورين • • عثمان بن عفان

- ٦ -

على الرغم من أن كتاب العقاد : « ذو النورين • • عثمان بن عفان » لا يحمل ما حملت عبقرياته من عناوين اذا استبنا ذلك حتى من مجرد قراءة الغلاف ، الا أن منهج هذا الكتاب لا يباين منهج العقاد فى عبقرياته الأخرى ، من حيث هو ترجمة تحليلية ، وأوشك أن أقول من حيث هو أوغل هذه العبقریات جميعا فى منزع التحليل والتعميق • • حتى من جهة شكلية بحتة نرى العقاد فى مفتتح هذا الكتاب يؤكد على حقيقة أن هذا اللون من ألوان الابداع الفكرى « ترجمة » لا تعنى بسرد الحوادث ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين ، وانما تعنى من الحادثة ومن الفترة جميعا بكونهما وسيلة الى مقصد واحد : « وهو التعريف بالنفس الانسانية فى حالة من أحوال العظمية والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والأريحية » • • فاذا تجاوزت هذا المقصد الى غيره فانما تجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الانسانى ، وتخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكا غير مسلك التخبط والضلal !! •

هذا الاعتراف الأولي من العقاد بأن هذا اللون الإبداعي ليس مجرد تقدير لعبقرية من العبقریات بقدر ما هو بالدرجة الأولى تراجم تحليلية غائصة في دم ولحم هذه الشخصية الانسانية المتعينة يعنى بالنسبة لنا الكثير .. الكثير .. لأنه يجهر - ولا يكتفى بالایماء - بأن الترجمة التحليلية هي ما يملى عليه ما يكتب ، وان منهجه الإبداعي في هذا الصدد منهج مسبق ومدرس . وان كل المقولات التي تنحني عليها هذه العبقریات انما ينبغي أن تحاسب على ضوء من المنهجية الصارمة التي ينبغي أن تتوفر بدورها للتراجم التحليلية هكذا بلا تفريط !! .

وبلا فتون معصوب يقف العقاد أمام أبطاله هنا معجبا ومحتشدا بغير قليل من الاعجاب ولست أدري ماذا يمكن أن يؤخذ على العقاد في هذا الصدد .. ان كل الذين تصدوا للعبقریات دراسة ونقدا لم يرضهم أن يقف العقاد من أبطاله موقفا معجبا ، لأن الاعجاب - كما يقولون - يضرب كل فهم راشد في الصميم . وبدءا .. لا أريد أن ألامس الأشياء ملامسة ناعمة . فان غلاظة الجهل في هذا الاتهام أفعش من أن نلامس وجهها بأنامل الرفق .. ان العقاد لم يشكل أبطاله على هذا النسق الحياتي .. ان هويتهم الخاصة قد تشكلت على نحوها الخاص حتى من قبيل أن يولد العقاد .. ان بطولتهم ليست ثمرأ يطرح في حديقة أى من الكتاب أو الدارسين أو المؤرخين . ان هذه البطولة - اذا صحت الموازين - تلهم ولا تستلهم ، تعطى ولا تأخذ ، تشع ولا تقبل مزيدا من الاشعاع .. ومن هنا فان اعجاب العقاد ببطله لا يأتي من تعاطف حى أو ميت مع هذا البطل ، وانما يأتي من تعاطف أشمل من الحياة والموت مع « البطولة » في هذا الانسان ..

ربما لو كتب العقاد عن البطولة كيف أن تولد وتكون وتكون .. كنا نحاسبه على تعاطفه ولا تعاطفه .. بما هو متجاهل

أساساً أن يوجد البطل على مبدأ القوة والضعف ، الاستطاعة والعجز ، التحليق وملامسة التراب .. أما وهو يكتب عن بطولة تحققت بالفعل ، وأعطت كل طاقاتها واشعاعاتها بالفعل ، وأخذت من التاريخ حجمها الطبيعي بلا تزيد وبلا افتيات .. فان من الخطأ الفاحش والغليظ أن نحاسب الكاتب على إعجابه الخارق بلون هذه البطولة ، وفتونه البالغ بحجمها الهائل في حركة التاريخ حتى وان كان يرى فيها ظاهرة لا يتطرق الضعف الى ابعادها جميعاً !! .

واذا كان العقاد - من هذا المنظور - يطرح إعجابه على صفحات كتابه . فانه لا يفعل ذلك من خلال عشوائية جاهلة ، أو سرديّة بلا قرار .. وانما يفعل ذلك كله من خلال منهجه التحليلي القائم على المقارنة والموازنة وتعقل الأشياء . وربط كل شئ فيها على الاطلاق !! .

لابد أن نأخذ مثالا مما كتب العقاد لتأكيد هذه النظرية .. فان اطلاق الأحكام مما يناقض بطبيعته طبيعة المنهج التحليلي الذي نلهمث في غباره على مد هذه السطور .. يقول العقاد :

(... ربما كانت سيرة الخليفة الثالث - ذي النورين - أو في السير بالشواهد على الخصائص التي تلازم تاريخ العقيدة في أطوارها الأولى ، ولا سيما أطوار التحول في طريق الاستقرار ... وأبرز هذه الخصائص في تاريخ العقيدة أنه تاريخ قيم ومبادئ وليس بتاريخ وقائع وأحداث .. فالوقائع والأحداث تتشابه في العصور المتطاولة ، ولو أننا تخيلناها معروضة في الصور الصامتة لما وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التي تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين ، ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ : كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأعراضها البادية للعيان . ولكنها تختلف اختلافا بعيدا حين ننفذ من ظواهرها الى باطنها ، أو حين ننفذ من حركاتها المكشوفة الى القيم النفسية التي تكمن

في الفكر الاسلامي - ٢٥٢

وراءها والى الدعاوى التى تدور عليها ولو كانت من دعاوى المبطلين التى يصدق عليها فى بعض الأحيان انها كلمات حق أريدت أباطيل . . فالحوادث التى تدور على طلب السطوة غير الحوادث التى تدور على طلب الحرية ، ولو كان طلب الحرية أكذوبة يتعلل بها المتعلل لغاية فى نفسه يسترها ويعلمن ماعداها . . . فاذا كان المتعلل بالحرية مبطلا فى دعواه فهناك فارق صحيح بين الممارك التى تذكر فيها الحرية حقا أو باطلا ، والممارك التى لا ترد فيها على لسان أحد ولا تخطر بباله . فلولا أنها أصبحت شيئا يهتم به الناس ويتنازعونه لما ذكرها الصادقون ولا المبطلون ومتى أصبحت الحرية قيمة من القيم المحسوبة فى حياة الأمم فهناك دليل عليها ممن يتعلل بها صادقا ويتعلل بها كاذبا ليخدع الناس بها عما يريد من ورائها) !! .

هذا نموذج من المنحى التحليلي الذى يتناول به العقاد تراجمه وعبقرياته ، كل شئ فيه خاضع لمقاييس المنطق والعقلانية وتحليل المبادئ والاتجاهات . . وربما كانت كلمات العقاد فى آخر كتابه عن عثمان بن عفان توثيقا أكيدا لمنحاه التحليلي فى تراجم الرجال ، فهو يقول مثلا : (ومن الفضول فى سيرة تدور على « تحليل الشخصية » أن نطيل فى سرد أحداث الفتنة التى انتهت بمقتله . .) ويخطو أكثر نحو تعميق مفهومه فى هذا المجال حين يقول : (. . وان وجبت كتابة السير فأوجب ما يوجبها أن تكشف جانب الخير فى أغوار النفس الانسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال ، بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور) . . وهذه بعض ملامح منهجه — على الأقل من خلال هذا الكتاب — !!

ولكننا حتى الآن لا نعرف لماذا لم يطلق العقاد على كتابه عن عثمان بن عفان اسم : « عبقرية عثمان » واكتفى بأن يطلق عليه اسم : « ذو النورين . . عثمان بن عفان » . . والعقاد نفسه

يسعفنا في هذا الصدد في جراءة واقتحام فيقول : (٠٠ وهذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعبقريّة كما سمينا عبقرية عمر وعبقرية الامام وعبقرية الصديق ، لأننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان رضي الله عنه ، ونؤمن في الحق أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين . ومن أبي عليه ميزانه أن يحابي في كلمة تستدعيها المجازاة لما سبقها من الكلمات لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ ، فحسب النفس البشرية أملا انها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا المحراب) !! .

العقاد اذن يتحرك في تراجمه من منطق تحليلي يخضع حتى الهاجس العابر لمقاييس ليست ضاغطة أجل . . ولكنها صميمية على كل حال . . وهذا هو ما يعطى منهج العقاد قيمته الحقيقية وقدرته الهائلة على مواصلة السير في الزمن ، والتمسدد في اعراق الحركة الفكرية النابغة بلا حدود .

أن يكون العقاد في عبقرياته بادئا من منطلق تحليلي ومنته الى مناط تحليلي . . فذلك أهدي ما يمكن أن يصل اليه كاتب من طراز العقاد نشأة وثقافة واتجاه حياة . .

وأن يكون هنا - كما هو في عبقرياته - قائما على حراسة المنهج التحليلي ، رافدا كل جوانب المنهج بتطبيقات صميّة مضافة ، فذلك أروع من أن يكون مجرد زاعق بأن لعثمان عبقرية حتى أضخم من عبقریات الآخرين !!

المنهج هو الأمل والمناط . . فحركة الفكر العربي كلها بحاجة لازمة الى « منهج » يحتوى شتاتها الممزق ، وينحني على كل أبعادها الشعثاء . . والعقاد بلا مكابرة خطوة هائلة على طريق هذا الأمل العظيم !! .

رحلة في اسلاميات أحمد حسن الزيات

١

عن المولد النبوى فى أدب الزيات

لا أريد أن أصنع من هذه السطور مرثية حزن على « أحمد حسن الزيات (١) » فالجديرون بالرثاء هم نحن .. ان جدارا شامخا من وراء جدار ينقض فى حياتنا كل يوم .. تاركا مكانه للريح والظلام .. وفى حومة الدوار قد نحس بالفاجعة ساعة أو ساعات .. ثم لا تلبث الحياة أن تسحب علينا غطاءها الغليظ .. فنغفو حتى عمن نحب .. وننسى حتى أولئك الذين رادوا لنا الطريق .. وأضاءوا لنا الدياجر .. ورشدوا حسنا القاصر فاحتمل أعباءه الباهظة وأوغل فى مناطق الابداع !!

ولا أريد كذلك أن أصنع من هذه السطور دراسة أكاديمية متخصصة .. تستخلص النتائج من مقولات ومقدمات .. فان ذلك يحتاج الى عمل باذل مخلص .. يمتد فى فضاءات متعددة الى ابعاد

(١) تنيبت هذه السطور بعد أيام من وفاة الأستاذ أحمد حسن الزيات الذى لم يظفر من نقادنا بعد موته الا بكلمات قليلة .

متعددة وليس الى مجرد سياحة عابرة كمثل هذه السياحة في هذه
السطور .

وقبل البدء . . لابد أن ندين أدباء الأمة العربية كلها
بالعقوق . . فلو أن « مهرجا » مات . . لما ووجه موته بكل هذا
الصمت الجليدي الذي يبدو كأنه متفق عليه . . أو كأنه شهادة
حق على بلادة حسنا الأدبي . . . لقد انطوت حياة رائد قاتل من
أجلنا بحق . . وأعطى في أدبنا بلا حدود . . فما زدنا على أن ذرفنا
دموعنا الشحيحة في كلمات مسطحة . . كأن كل قيمة « الزيات »
كانت في كونه بشرا تربطنا به وشائج اللحم والدم . . ولم يكن
هذا الفارس الرائع الملهم ، الذي حرك الحرف العربي في انجاهاته
الراشدة . . وأقام - ما عاش - على حراسة الفكر أن يختل . . وعلى
رعاية الفن أن ينحل . . وعلى حماية اللغة أن تصير الى بوار !! .

وكما أسلفت . . فاني لا أريد أن أصنع من هذه السطور
مرثية حزن على أديبنا الراحل . . وانما أريد أن أعبر هذا الحس
المأساوي الى حيث ينبغي أن يكون وفاؤنا مجديا لذكرى واحد ممن
صنعوا لنا تاريخنا الأدبي . . الذي نتنفس هواءه اليوم بملء رئائنا
جميعا !! .

ولأضع هنا استدراجا على عجل . . ان حبنا لرائد «كالزيات»
لا يمكن ان يضع عضاية سوداء على كل نوافذ الرؤية فينا . . حتى
يستحيل اللون لونا واحدا بلا تمييز . . اعنى اننا قد نختلف مع
فكر الزيات او قد نتفق . . ولكن اتفاقنا واختلافنا جميعا يجب
ان يكونا من خلال موضوعية معينة . . وليس من خلال أى شيء
آخبر !! .

ولقد اخترت ان أتحدث عن الجانب الاسلامي من فكر الزيات
لأسباب أعتقد انها حقيقة . . أولا : لأن أبرز جوانب فكر

الزيات كان الجانب الاسلامى .. وثانيا : لأن موجة عارمة بدا هديرها يزأر فى محيطنا الأدبى .. توشك ان توحى الى كل المبدعين وحملة الأقلام ان الكاتب يكون اما أديبا .. أو مسلما .. أما أن يكون أديبا مسلما .. أو مسلما وأديبا .. فذلك شئ لا يمكن ان يكون !! وكانت كتابات الزيات المسلمة دحضا لهذه التهم .. وشجبا لهذه الادعاءات .

وربما كنت مضطرا الى القول بأن « وحي الرسالة » باجزائه الأربعة هو محور هذه الدراسة .. لا أتعداه الى غيره من كتب أديبنا الراحل الكبير .. ولن أستطيع تناول كل ما فى الأجزاء الأربعة من فكر اسلامى هكذا دفعة واحدة .. فليكن لنا الآن وقوف مع فكر الزيات المسلم فى الجزء الأول من « وحي الرسالة » لأنه فى اعتقادى يصور ملامح فكره الصميمى فان رأيت فى الأجزاء الثلاثة الأخرى ما يمكن ان يضيف الى معالم الصورة .. فلن أتردد بالطبع فى استقطابه والانتفاع به .

فى المجلد الأول من « وحي الرسالة » مقالات ثلاث عن « ذكرى المولد » .. ومقالات أربع عن : « ذكرى العام الهجرى » .. ومقالات ثلاث عن : « رمضان » بأحداثه وذكرياته .. وعن « الحج » .. « وعيد الأضحى » مقالان .. ثم اشتات من الموضوعات التى تعالج وضع المسلمين وموقف الاسلام فى العالم المعاصر .. من أمثال مقالاته عن « الشيخ محمد عبده » ، « والامتيازات والدين » ، « والأزهر بين الماضى والحاضر » ، « ومحمد الوالد » .

ولقد نستطيع ان نقول ان الزيات فى حديثه عن « المولد النبوى » من خلال مقالاته الثلاث .. كان شاعرا مفتونا بروعة هذا الحدث الرائع المعجز .. الذى حرك مخاور الكون .. وصوب منطق التاريخ .. وأدال للحق المضى من الباطل المظلم .. أكثر منه عالما

يربط النتائج بالمقدمات .. ويقفز على متون الجدل العقلاني من قضية الى قضية أخرى .. كان الزيات شاعرا مفتونا أكثر منه عالما بارد النظرات .. والدليل على ذلك انه في مقاله الأول عن « ذكرى المولد » يعرض لفساد الحياة الجاهلية في هذا الاسلوب المكتنز بالشعر : « كانت قافلة الحياة يومئذ جائزة السبيل حائرة الدليل خائرة العزيمة ، والعالم الانساني يكابد في هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية توبق الروح .. وجاهلية توثق العقل .. ومادية ترهق الجسد .. وكانت الولاية على الدنيا في ذلك الحين لأعقاب من الروم شفهم الفسوق والترف .. وأخلاف من الفرس هدهم الفلول والطمع .. والناس عدا هؤلاء وأولئك أوزاع وهمج .. اللهم الا شعبا نبيل الفطرة اعتصم بالصحراء من هذا الفساد الشامل ، فما عبث بضميره سلطان ، ولا عدا على خلقه طاغية .. نشأتاته الطبيعية على سجاياها المرسله ، وراضته على نظمها المحتومة ، وصفاه الانتخاب الطبيعي بالغزو المتلاحق ، والدفاع المتصل ، فأودى بضعيفه وأبقى على قويه ، حتى لم يدم على اديم الجزيرة الا سيف صارم ، وفرس جواد ، وذارع بطل !! ثم تنخل من هذه الصفوة الباقية في القرن السادس أمة وسطا تحمل المثل الأعلى للانسان الأعلى (سوبرمان) في قوة الحيوية وكمال الرجولة وصفاء الحس .. تلك هي الأمة العربية التي اختارها الله لقيادة شعوبه الحائرة ، واختار منها محمدا لتبليغ رسالته الأخيرة ، !!

ان الزيات هنا لا يرد ظواهر الأشياء الى بواعثها الكامنة .. ولا يسوق القضايا مصحوبة بما لها وما عليها جميعا - ولا يعلل لماذا كانت الحركة في العالم القديم غير راشدة ... انه معنى قبل كل شيء بالتحديق في روعة ما أنجز هذا اليتيم النبي في عالم مدمر تماما - بهذه العبارة الضخمة .. وهذا البيان الرقراق .. وهذه الانسيابية الهادئة التي لا تفتعل معاذلة .. ولا تميل الى تعاظم ما ..

وربما كان ايثار الزيات للعفوية الشاعرية في تناول القضايا الاسلامية بالذات .. لوّنا من الوان التمرد على كل الكتابات المثقلة بقضايا المنطق .. وقضايا التحليل .. والتدليل .. والتعليل .. حيث لا يمكن ان يكون ايمان بلا عفوية .. وبلا طرح متعمد لكثير من مقولات المنطق .. ومزاعم الفلسفة .. وكبرياء العقل حتى في زحاب أخطر مناطق الحساسية .. وأكثرها مزلق غير مأمونة المصير !! ان الاسلام دين الفطرة ، ويجب ان يكون في فكرنا كذلك .. فلنقبل عليه متهللين .. ولنندع لجفاف المنطق الضاغط ان يريحنا الى حين !!

لا أريد من وراء هذه السطور ان اهدر قيمة المنطق .. ولا ان أهون من دور العقل .. ولا أن أضرب الفلسفة بالسكين ... فان كل حقولنا الفكرية .. والدينية .. والادبية جميعا .. تصاب بما يشبه الضياع ان هي فرغت من العقل ، أو جنحت الى الحدس .. أو سافرت بلا فلسفة على الاطلاق !! كل الذي أردته وأريده بلا حدود . ان يتعانق على صعيدنا العربي منطق الأشياء وعفوية الأشياء .. ان ذلك وحده جدير بان يبقى للحقائق نبضها الحي .. وللعواطف مدلولها السوي .. وللجماهير حرية ان تتعاطف مع حقائق الكون من خلال اطلالها العقائدي الشاعر بروعة الأشياء !!

ان رجلا كالزيات يمثل في فكره الاسلامي جانب العاطفة المتوهجة .. والاحساس الشمولي .. والافتتان بروعة هذا العالم الجليل .. بينما يمثل رجل كالعقاد في فكره الاسلامي جانب العقل المتألق .. والمنطق الصارم .. والغوص من خلال الظاهرة الى مهيئاتها وبواعثها جميعا .. ولناخذ على ذلك مثالا من كتابات كل من الرجلين .. يقول الزيات في مقاله عن «ذكرى المولد» في الجزء الأول من «وحى الرسالة» :

« .. بين ايوان كسري وبلاط القيصر اشتهر مهد العبري

اليتيم في أرض مكة .. فتصدع لهزته الايوان .. وتطامن لهيبته
القصر .. !!

ويقول العقاد في مثل هذه المناسبة من كتابه « عبقرية
محمد » :

« ما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في اقناع أحد
بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة أو كان ثبوت الاسلام متوقفا
عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ
مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا انها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي
بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة
بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ، ولم
يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه ،
وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض
ومغاربها ، فاذا جاز للمصدق ان ينسبها الى مولده .. جاز للمكابر
ان ينسبها الى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين
والمكابرين الا بعد عشرات السنين » !!

ان العقاد هنا يمثل الجانب العقلي والجذلي .. بينما يمثل
الزيات الجانب العاطفي .. وليس في مقولة واحد منهما مصادرة
لمقولة الآخر .. وانما هما معا مكملان فعلا في قضية ان يكون لنا
فكر اسلامي ، ينزع جانب منه عن فكر منطقي مخدذ ومغلل ..
وينزع جانب آخر عن عاطفة صادقة .. واحساس متفتح .. ووعي
شاعر !!

قلت من قبل .. ان الزيات قد استهل مقاله الأول عن ذكرى
المولد النبوي بتصوير رائع لفساد الحياة الجاهلية حتى القرار ..
ثم عطف على حادث الميلاد .. فبين انه كان سقيفة الانقاذ .. ومباراة
الاشباع .. وربيع الأرض .. وبدء رحلة العالم كله من مناطق

الكساد الروحي والعقلي والاجتماعي .. الى مناطق الصحو بكل
أبعاده .. وبكل آفاقه .. ثم انهى مقاله الرائع بالتوجه الى مسلمي
اليوم .. في مشارق الأرض ومغاربها في محاولة جاهدة لاستنهاض
ماخمد من الهمم .. وابتعث ماركد من العزائم .. وتحريك ماجمد
من السواعد والسيوف .. مرة بتبشيع عالمهم لهم .. ومرة أخرى
بتضويء ماضيهم ومستقبلهم الذي ينبغي أن يكون !!!

ولأن الزيات كان يعرف جيدا منهجه في تناول القضايا
وتحريكها الى غاياتها المرسومة .. فلقد أتى مقاله الثاني عن
« ذكرى المولد » كذلك تصويرا للبيئة الهابطة .. واعلانا للمولد
كرجفة من رجفات الطبيعة تحيي بها الأرض .. وتخصب بها الجفاف
.. ووقفا عند صراعات النبي الفاتح مع الجامدين والحاقدين من
قومه .. في اروغ ملاحم التاريخ اثاره .. وضراوة .. وتألبا على ضوء
الصباح .. ويختتم الزيات مثلما فعل اولا مقاله بالتوجه الى مسلمي
اليوم .. صارخا فيهم بذلك النشيد اللاهب : « اليس من خذلان الله
لنشئنا الجدد ان يلوكوا جاهرين اسماء فلان وفلان ممن رأى رأيا
.. أو أنشأ قصيدة .. أو ألف كتابا .. ثم يتركوا عامدين اسم
محمد الذي جمع العرب من شتات .. وايقظ العالم من سبات ..
وأقام للسماء دنيا في الارض .. وأسس للارض دنيا في السماء ؟؟ »
وفي مقاله الثالث عن « ذكرى المولد » يعطف الى العالم القديم
فيدين فساده والحاده ثم يتأمل الدور الهائل الذي نهض به محمد !!
والزيات هنا .. في هذا المقال .. يعطى أبعاده محددة تماما لما يريد
أن يقول .. فهو يتحدث عن دور النبي في إعطاء العالم مثله الاعلى
بديلا عن عبوديته للخرافة والعجز .. وعن دوره في اعطاء العالم قوة
الخلق ، وشعلة الضمير بديلا عن عبوديته لتحلل الرجولة ، وذوبان
العاصم .. وسطوة السرف .. ثم في نهاية المطاف يعطف على
محاولته التي لا تمل .. محاولة استنهاض كتل المسلمين الضائعين

فى الأرض .. الضالعين مع القهر .. الضارعين فى كون لا يعرف
غير الأقوياء !!

من هنا .. نستطيع ان نقول أن منهج الزيـات فى تناوله لذكرى
مولد النبى .. كان منهج التعاطف من أول الامر .. ثم تشريح الموقف
الحياتى للعالم قبل المولد بفساده وكساده .. ثم رحلة المعاناة التى
خاضها النبى مع واقع البشر الآجن المتخلف .. ثم وقفة على مرتفع
من الأرض .. ليصبح فى جماهير الأمة المسلمة صيحاته المروعة ..
رجاء أن يسقط القناع .. وان ترتفع السارية .. وان يأخذ المسلمون
طريقهم الى مواكبة العصر .. ومجاربة التجدد .. ومعاونة الخطى
فى مسيرة الرفض الى عالم جديد !!

٢

عن الهجرة فى أدب الزيـات

بمثل روعة الشعر يدور حديث اديبنا الكبير أحمد حسن
الزيـات فى كتابه الرائع : « وحى الرسالة » عن الهجرة النبوية ..
وأقول بمثل روعة الشعر .. لأن الهجرة « كموضوع » تكاد لا تظهر
على سطوح مقالاته جميعا .. وانما الذى يأخذ فى احتلال نفوسنا
مع مطالع السطور .. هو انعكاس الهجرة على فكر الزيـات وقلمه
الفنان .. وكأنه يريد أن يقول من أول الطريق .. أن الهجرة
ليست قضية قابلة للأخذ والرد بما هى حدث تاريخى فرض نفسه
على واقع الحياة .. وبما هى حركة رائدة ورائعة معا فسحت
للدعوة الناشئة فى مجالى الانطلاق .. وكسبت لها أرضا جديدة ..
وأنصارا جديدين .. الهجرة بما هى كذلك ليست قابلة للجدل ..
ولكن الذى يبقى عند ادارة الحوار من حول الهجرة دائما .. هو
ما نحسه نحن من خلال وضعيتنا الحياتية الراهنة ، التى انكست

فيها الأمة .. وضاعت الهيبة .. وتلعثمت خطواتنا على الطريق ..
ان تعاطفنا مع الهجرة يجب أن يكون مع ما أحدثت من تطور
خارق .. وقلب لموازين القوى بين الدين واللادين .. وليس مع
مجرد كونها حادثا وقع .. فلا يكاد يختلف اثنان في وقوعه أبدا ..
وليس كذلك مع مجرد خوارق الأشياء التي صادفت المهاجر الرائع
الذي كان - عبر كل المخاطر - كأنما يحمل بين جفنيه مصائر
الكون جميعا .. فهو يحركها في اتجاهه غير هائب شيئا على
الاطلاق !!!

في المقال الاول عن « العام الهجري » يأخذ الزيات من الهجرة
نقطة انطلاقه .. ثم يصوب فكره وقلمه على الاشياء من حوله ..
نافضا فيها من روحه الملهب .. ساكبا عليها من حنانه الصيب ..
صارخا فيها بكل ما يحمل الصوت من عذابات وجراح .. ان بعث
الامة المسلمة يشد خطواته منذ أول السطور .. وكل عاشق ملتزم
.. يأخذ الزيات في رصد الحياة الخفية السارية في العروق ...
« ففي مصر تضرب الحياة الجديدة في البراعم النابتة وتضطرم نوازي
الكمال في النفوس الهامدة .. ويفيض نبل الاحساس في صدور
الناس ... » !

وفي فلسطين تدافع العروبة جراد أوروبا الملاحق .. وتصارع
الاستعمار المسلح الحاتل .. وتطلب عز الحياة بعز الممات وشرف
التضحية .. !!

« وفي سورية يقظة عاملة فطنة .. !! »

« وفي العراق امة تنشي الحياة .. !! »

وهكذا .. وهكذا .. يدور قلم الزيات المبدع في أرجاء الجزيرة
.. ومراييع الجزائر .. ومجالي تونس .. واعطاف مراکش .. وآفاق
تركيا .. وإيران .. وأفغانستان .. والهند .. والصين ..
وإندونيسيا .. وروسيا .. ويوغوسلافيا .. وكل بلد يخفق فيه

قلب واحد بكلمة التوحيد ومعنى الاسلام وروعة العقيدة .. وهو
في كل هذه الملاحظات شاغر قبل ان يكون باحثا .. وعاشق قبل
ان يكون قاضيا .. وفنان قبل ان يكون وزانا لحقائق الأشياء !!

ولا ينسى الزيات في نهاية مقاله ان يقف على مرتفعه صائحا
في أمته .. لافتا بصرها الى ما ينبغي ان تقدم على مذبح الحياة
من قرابين « رمزا على الجهاد الواجب في سبيل العقيدة ..
والاستشهاد المروع في سبيل الحق » !!

وفي المقال الثاني عن « العام الهجري » يتساءل الزيات :
« هل انفرجت خوائق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية ؟ هل انجلت
غواشي الغفلة عن العيون الساهرة ؟ هل انجاب قتام الذل عن
النفوس العزيزة ؟ هل أثلفت على عوادي الخطوب هذه القلوب
الشتية ؟ » !!

ثم يستطرد في استعراض حالات التمزق التي يعاني منها
العالم العربي .. في مصر .. والشام .. والعراق .. وفي شبه
الجزيرة .. راثيا لمحاولات النهوض التي تجهض قبل ان تولد ..
ومحاولات التوحيد التي تخنق قبل ان تكتمل ..

وفي نهاية المقال يلقي بالحكمة البالغة في هذا السياق
الشاعري الشفاف : « .. ان الرسالة العربية التي هاجرت مغلوقة
من مكة الى المدينة .. سافرت غالبة من الشرق الى الغرب .. بفضل
مبدئها الالهي الذي قامت عليه ودعت اليه وفازت به .. وهو توحيد
الله .. وتوحيد الكلمة .. وتوحيد القوى .. وتوحيد الغاية » !!

ويجنح الزيات الى شيء من التفصيل في مقاله الثالث عن
العام الهجري .. فهو يرمي الى ما في الاسلام من عطايا المبدأ ..
والعقيدة .. والأخوة .. والمساواة .. والابداع .. والحرية التي
تخصب المدارك .. لأن رسالتنا لم يوجهها الجوع .. ولا الظم ..

وانما أوحاها الذى خلق الموت والحياة .. وجعل الظلام والنور ..
وأوجد الفساد والصالح .. ليدراً قوة بقوة .. وينقذ انسانا
بإنسان !!

ويبكي الزيات مانعانى من غفوة غافية .. تاركا موضوعه
الحقيقى الذى شرع من أجله القلم ليكتب .. وهو موضوع «الهجرة»
.. ليسيح مع خواطره الحزينة الاسيانية فى شعاب التأمل وأودية
الاستنهاض وآفاق التنظير بين ماض زاهر بالقوة وحاضر مجذب
حتى من الآمال !! ولكنه فى نهاية مقاله لايفقد القدرة على العطاء ..
انه ينادى بالعودة الى «الاسلام» ككل .. « ان الاسلام روح فهو
حياة .. وعقيدة فهو قوة .. وشريعة فهو دستور .. ومحبة فهو
سلم .. فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه .. وتغنموا رفته ..
اما الخداع والرياء .. أو الشدة والجفاء .. فتلك أسلحة مفلولة
ان قطعت قبل أمس قلن تقطع بعد اليوم » .

اننا لو تجاوزنا قليلا موضوعية الحديث عن الهجرة كحدث
الى حديث الزيات عن الاسلام كدين لراعنا ان الرجل بالفعل يفهم
من حقائق دينه مالا يفهمه سواه .. ولكنه لايتشدد بهذه المعرفة ..
ولا يسوقها الى القارىء فى ثوب جاهم يوحى بالفلسفة والفكر وهو
عار تماما من الفكر والفلسفة .. ان بساطة الفهم .. وبساطة
العطاء .. هى ما يميز فكر الزيات بلا تردد .. ولكن هذه البساطة
ليست مرادفة على الاطلاق للسذاجة .. أو للاعتباط ... والا لما أمكن
للزيات أن يلخص فى كلمات روح الاسلام وشكله جميعا : « ان
الاسلام روح حياة .. وعقيدة فهو قوة .. وشريعة فهو دستور ..
ومحبة فهو سلم » !!

وفى مقال الزيات الرابع والاخير عن « العام الهجرى » فى الجزء
الأول من « وحى الرسالة » .. يلفت الكاتب الى ما ينشعب فى أوربا

من صراعات الحرب والدمار .. وإلى ما فى الشرق من « امن وسلام »
عازيا ذلك كله الى ان هذا الشرق يعيش بدينه فهو فى امان .. ولو
كتب الزيات مقاله اليوم .. أو قل لو أنصف الزيات حين كتب
كلماته لكان قد قال .. ان هذا الشرق لم يعرف دينه .. ولم
يعرف الطريق الى السلام .. انه قطع من الكسالى والقانطين .. الذين
أهملوا حس الحرب ففقدوا القدرة على معايشة السلام .. ان عالم
اليوم عالم مائج بحركة القوة .. وقوة الحركة .. وهو محكوم بمنطق
التفوق التكنيكي .. ولا مكان فيه لقانع .. أو قانط .. أو هارب
خلف غباءات صمته الى دخان الضياع !!

وهكذا نستطيع أن نعرف من منهج الزيات فى كتاباته عن
الذكريات والمواقف الاسلامية .. انه كاتب جمالى .. يعنى بالكلية
الراقصة .. والجملة القافزة .. والسياق الشاعر الرفاف .. ولا
بأس من جملتين تتفقان شكلا .. وتسلمان الى جملة ثالثة كأنها
آتية لتلخيصهما معا .. ولكسر رتابة السجع الذى يمكن ان يعيق
تدفق الحركة فى السياق .. ولعل لا أترك المجال هنا حتى انبه الى
شئ خطير .. هو ان كلمة « كاتب جمالى » قد تفسر على نحو
مافسروها به حين كتبوا عن الزيات سطورا هشة فى جريدة يومية
.. فلقد زعموا ان الزيات كان أسلوبيا بحثا .. بمعنى انه كان
رجل تزويق بيانى .. لا يتعدى هذا المجال الى مجالات الخلق والابتكار
فى المضامين .. ولو انصفوا لقالوا : ان الأدب العربى والعالمى على
السواء .. لا يمكن ان يكون أدبا الا اذا كان مرتكزا على فهم حقيقى
لجمالية التناول الشكلى .. ان الفنون جميعا جمالية بالدرجة
الأولى .. وهذا ما يميزها عن سائر أنماط الكلام .. تستطيع مثلا
ان تقول عن القمر انى أرى ضوء القمر .. وتستطيع أيضا ان تقول:
ما أروع ما يتدفق على يدى فى الليل من شلال أضواء .. انك فى
المقولة الأولى تضع تقريرا عن شئ ثم لا شئ .. ولكنك فى المقولة

الثانية تضيف الى جمال المرثى جمال احساسك به .. وجمال
انسكاب الشعر في الجمال !! ان جمالية الزيات لا يمكن ان تستحيل
مطعنا في اذنه .. وهي واحدة من أزوع ما تخلف الرجل من سمات !!
ويديهي ان خصب الزيات لم يكن وليد حس جمالي مجوف .. وانما
كان وليد حس جمالي غائص في بحار حقائق الأشياء .. لقد كان
الزيات يستطيع فعلا في عباراته الجزلة .. وسياقه الرائع ..
ان يعطي من الحقائق ما يعطيه غيره من كبار الكتاب .. ولكنه كان
شاعرا قبل كل شيء .. شاعرا في تعاطفه مع القضايا .. شاعرا
في تناوله للقضايا .. شاعرا في اعطاء المتلقي نوعية احسن منه
بجذرية هذه القضايا وصميمية وجودها في الوجود !!

ولكننا في النهاية نجد أنفسنا محاصرين بالخلاف مع الزيات
في شيء صميمي .. هو ان الرجل كان ينعي على العالم الاسلامي
وضعه الراهن .. وهو محق في ذلك بلا حدود .. ولكننا في حاجة
الى من يقول لنا لماذا نحن هكذا الآن ؟ وما الطريق الى خلاصنا الواعد
من هذا الوبال ؟ ولسنا في حاجة الى من يبكي لنا .. أو يبكي
علينا ..

افهم ان الزيات كان يبدأ في مثل هذه الكتابة من نقطة
بالذات .. هي تسليمه الاولى بصوابية ما يتصدى للحديث عنه ..
ولكن المتلقي ليس مطالبا بتسليم اولي من أي لون كان .. انه يريد
ان يفهم حتى يعتقد .. ان يؤمن حتى يناضل .. ان يشارك في
عملية التحليل والتركيب حتى يشارك في عملية العطاء والمنح !!
والمتلقي يطالب الكاتب بأن يكون دليل رحلته .. وليس ناعي
مأساته .. وهذا ما يمكن ان يكون قد فات كاتبنا الكبير .. اعني
انه كان يستطيع من خلال تسليمه الاولى .. ومن خلال تعاطفه
الخميم .. ومن خلال شاعريته المبدعة .. يستطيع ان يحدد الهدف
.. وان يرسم الغاية .. وان يوصل لمسيرة الفكر في هذه الشعاب

.. فإذا لم يكن الزيات قد فعل هذا الذي كنا نرجو له ان يفعل
فلقد فعل قريبا منه .. وهو تحريك الجماهير العريضة نحو دينها
بعفوية قابلة .. وتعاطف وهاج .. وليس يمكن لكاتب ما .. ان
يكون شموليا هكذا بلا ضمور .. ان ابداعه في جانب قد يتحيف
من قيمة ابداعه في جانب آخر .. وهكذا كان كاتبنا الرائع ..
« أحمد حسن الزيات » فلقد جنح في سماوات التعاطف الملهم ..
والبكائيات المؤسسية .. والاستجاشة الهادرة .. وتفتيح أحداقنا
جيذا على جراح يومنا المشخن بالجراح .. فان يكن قد قصر في
جانب « تعفيل » كل الأحاسيس .. وفلسفة كل الاشياء .. فليطر
بجناساته الطبيعية .. وليحاول سواء ماترك هو من مجالات لم
يهيئ لها من بداية الطريق .. وليضئ الكل من خلال تكامل
الأبعاد .. فان للصورة ظلا كما لها ضوء .. وللوردة دائما شوك
كما لها عبير !!

٣

عن رمضان وفلسفة الصوم في أدب الزيات

وكما يتدفق العطر من الفاف حديقة غناء .. يتدفق حوار
الكاتب العربي « أحمد حسن الزيات » عن رمضان .. والصوم ..
وذكريات أمس واليوم في تلقى هوائف الروح في ليالي وأيام هذا
الشهر العظيم .. فهو يرى بدءا .. انه : « لا بد من رمضان بعد
أحد عشر شهرا قضاها المرء في جهاد العيش مستكلب النفس ..
مستأسد الهوى .. متنمر الشهوة » والواقع ان هذه النظرة الى
معنى الصوم في رمضان قد استبدت بكل مفكرى المسلمين قاطبة ..
انهم يرون ان رمضان واحة ظليلة يأوى اليها المسلم بعد رحلة
المعاناة .. والكدح .. والايفال في عماء المادة .. والمسلم الحقيقي

.. كما يرون .. يطرح عن كاهله في هذه الواحة كل أعباء الطمع ..
وكل أوهام الأثرة .. وكل آصار التيبس الروحي ليستقبل في
رمضان جنة النفس .. وسماء الفكر .. وربيع الوجدان ..
ولو انصف مفكروا المسلمين .. لعدلوا بعض الشيء في نظرتهم هذه
الضيقة إلى معنى الصوم في رمضان .. فلقد يخيل إلى أن الإسلام
العظيم لا يمكن أن يريد لشهر من الشهور أن يعرى المسلم من جواذب
المادة .. وهواتف الأرض .. ليجعل منه روحاً فضائية سباحة في
نور الكمالات .. لأن معنى ذلك أننا نفرغ الفرد من طبيعته ..
لنملأه بطبيعة أخرى .. أثرية قد تكون .. أو ملائكية ربما ..
وما لهذا هيء الإنسان من أول الشوط .. وما لهذا يمكن أن يهيء
في منتصف الطريق !!

ان المسلم مسلم لأنه يعرف جيداً كيف يزاوج بين الروح
والجسد .. بين المادة والقيمة .. بين الواقع والمثل .. وهكذا
ينبغي لنا نحن ان نفهم الصوم .. وكل ذكريات أيامنا المسلمة ..
ليس على أنها محاولة لاجتثاث الإنسان من تربة العصر .. لزعه
في تراب القبور .. ولكن على أنها محاولة لكسر رقابة الأشياء
في حياته حتى لا يآلفها .. ويستعصى بعدها على الدخول في تجارب
من لون جديد .. ان الصوم .. فوق حكمته الالهية .. محاولة
لانتزاع الإنسان ليس من احضان المادة وجواذب التراب .. ولكن
من احضان الالف والعادة .. حتى يكون دائماً فوق العادة والالف
.. مهياً لاستقبال كل ما يأتي به القدر .. وكل ما تمخض عنه
حوادث الأيام .. فان ذلك وحده قمين بأن يؤهب كل ملكاته للعمل
في كل المجالات .. فلا تبقى ملكة واحدة معطلة ، ولا يبقى الارتظام
بما يفجأ ان يعطل فيه قدراته على استيعاب كل المفاجآت !!

بالطبع .. لست انكر ان احياء مناطق الروح والنفس ..

ومكانن الايثار والبذل .. ومنازع الطموح والاستعلاء .. بعض رسالة الصوم .. ولكننى انكر ان تكون هى وحدها حكمة الصوم ..

والزيات .. يرحمه الله .. قد استطاع ان يلمح من هذا المعنى الكبير فى مقاله الأول عن رمضان .. حين قال مازجا قيمة المعنى الروحي بقيمة المعنى الحياتى :

« فرمضان رياضة للنفس بالتجرد ، وثقافة للروح بالتأمل ، وتوثيق لما وهى بين القلب والدين ، وتقريب لما بعد بين الرفه والمسكين ، وتأليف لما نقر من الشمل الجميع ، وتنديّة لما يسر من الرحم القرية ، ونفحة من نفحات السماء تفعم دنيا المسلمين بعبير الخلد ، وأنفاس الملائكة » !!

« ورمضان ثلاثون عيدا من أعياد القلب والروح ، تفيض أيامها بالسرور ، وتشرق لياليها بالنور ، وتفتت مجالسها بالأنس » !!

« ورمضان مظهر قومي رائع » !!

« ورمضان بعد ذلك كله ربط اجتماعى وثيق ، يؤكد أسباب المودة بين أعضاء الأسرة بالتواصل والتعاطف ، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف ، وبين أهل الملة بذلك الشعور البسامى الذى يغمرهم فى جميع بقاع الأرض بأنهم يسرون الى غاية الوجود قافلة واحدة ممتزجة الروح ، متحدة العقيدة ، متفقة الفكرة ، متشابهة النظام ، متماثلة المعيشة » !!

ثم يهيم الزيات فى وصف خواطره كصائم بين ذكريات رمضان فى المدينة ، وذكريات رمضان فى الريف !!

قلت ان الزيات قد استطاع ان يلمح من معنى رمضان انه ليس مجردا محضا .. وليس هروبا من ملازمة المادة فى مسيرة

الحياة .. وذلك حين ارتفع بمقوله الصوم الى كونها توثيقا للعري
.. وتعميقا للأخوة .. وتأصيلا للوحدة والامتزاج .

وأقول هنا الآن .. ان الزيادات في مقاله الثالث عن « الصيام
بين عهدين » قد استطاع ان يلخص فلسفته الشاعرة عن الصوم كما
يحسبها في رمضان :

« كان عهدنا بالصوم قبل اليوم ان يكون عصيانا للنفس في
طاعة الله ، وحرمانا للجسم في مبرة الروح ، ونكرانا للذات في
معرفة الناس » !!

وهي فلسفة قائمة أساسا على مزج المادة بالروح كما أسلفت
.. وعلى لمح المعنى الخطير للصوم وهو كسر رتابة العادة لتهيئة
النفس دائما لاستيعاب كل مخاطر الأيام .. يتألق ذلك في قوله
عن الصوم : « .. ان يكون عصيانا للنفس في طاعة الله » !! ان
عصيان النفس هنا ليس تعذيبا ساديا بلا مبرر معقول .. وانما
هو عصيان لزحفها الأملس في مخاضة الأيام .. وعصيان لركضها
الذاهل على تراب العادة .. وعصيان لدورانها الدائخ الأعمى في
سباقية الطقوس الشهوية المنهومة التي تسلمها من خبز يابس ..
الى ماء قراح .. الى حوض وثير !!

ان العصيان هنا ليس قمة لشيء .. ولكنه هو القمة والشيء
جميعا .. وهذا هو الضمان الدافع الى ان تظل النفس المسلمة على
الدوام في مستوى الفعل لا في مستوى الانفعال .. فهي سيدة أيامها
ولياليها .. سيدة حتى حاجاتها الطبيعية الى الامتلاء والارتواء !!

وفي مقال آخر عن « ١٧ رمضان » يدور الحديث ليس عن
رمضان كوعاء لحركة الصوم .. وانما عن رمضان كوعاء لحركة
الجهاد والفتح .. فغزوة بدر الكبرى .. تلك التي اتخذت من
رمضان إطارا لأحداثها الجسام .. هي محور حديث الزيادات في

هذا المقال .. والغريب في هذا القلم الوداع الثرى الرائق المتعرج ..
.. انه حين يسجل خواطره عن الجهاد والحرب .. يستحيل فعلا
الى قلم ثائر ومغربد .. تقطر كلماته بالدم .. وتوحى عباراته
بأزيز الرصاص :

« كان الاسلام المهاجر من مكة الجاهلية لايزال خافض الجناح
في شرب ، وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لايزالون
تحت البلاء .. يمتحن الله صبرهم بالألم ، ويختبر ايمانهم بالفتنة .
ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة ، ويعلم الذين يصطفيهم لجهاد
الرسالة ، فالقرشيون يوثبون عليهم القبائل ، واليهود ينصبون
لهم القبائل ، والمنافقون يدسون لهم الغدر في الملك ، فلما اذن الله
لدينه ان يعود ، ولجده ان يسود ، ولنوره ان يتم ، ارسل جنوده
الثلاثمائة الى وادي بدر ، يتعاقبون على سبعين نضوا من أباقر
المدينة ، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة ، وبغزة المؤمن على
الذلة ، وبغفة الزاهد على الفاقة ، ويسرون في استغراق الصوفى
الى ما وعدهم الله من احدى الطائفتين : العير أو النفير .. واحدى
الحسنين : النصر أو الشهادة » !!

ان حس الحرب يطل من كل عيون الحروف في هذه الكلمات
.. ان الصمت بين المقاطع يرزم بالغضب .. ويوحى بالتفجر ..
ويجأر بتموج الأعماق !!

ولعل خصائص منهج الزيات .. وخصائص اسلوبه جميعا
لم تخف لحظة واحدة .. فقد بدأ مقالاته هنا بالتهيبىء لقدم
الدعوة والداعية .. ثم استعرض أبعاد الصراع الذى ينشب بين
القادم الرائع وما استتب على الأرض من انحذارات !! ثم غنى لانتصار
الحق والنور .. كل ذلك فى اسلوبه الوداع الممتلىء .. بثلاثياته
المألوفة .. كما فى قوله مثلا : يوثبون عليهم القبائل ، وينصبون

لهم الحبائل ، ويدسون لهم الغدر في الملق .. وكما في قوله متلا :
فلما اذن الله لدينه ان يغود ، ولجده ان يسود ، ولنوره ان يتم ..
وكما في قوله مثلاً : يستعيتون بصبر المجاهد على القلة ، وبعزة
المؤمن على الذلة ، وبعفة الزاهد على الفاقة !!!!

هذا منهج الزيات لم يتخل عنه .. وهذه خصائص اسلوبه
لم تفارقه .. وربما كانت واحدة من سمات الأصالة في كاتب ما ..
أن يكون له نهج فلا يتحيفه .. وأسلوب فلا يتخلى عنه .. وملامح
فلا يرتدى غيرها من ملامح البشر .. أو من أقنعة المهرجين .. وهكذا
كان الزيات العظيم .. رسم المنهج والتزمه .. وابتدع الأسلوب
ومارسه .. وغنى من خلال حنجرته الموهوبة .. فردد صدى
أغنياته جيل بأسره .. فتنه مافي الصوت من أصالة ومافي النبر
همس دافي متعاطف شاعر خزين !!!

٤

عن محمد .. والدا .. وزعيما .. في أدب الزيات

ربما كان من الأوفق أن أعيد مقررته طويلاً .. من أن كائبنا العربي الكبير
الكبير الراحل .. «أحمد حسن الزيات» كان واحداً من أروع من حملوا
أمانة القلم .. وأداروا معارك الفكر .. وضربوا منطق الأشياء ..
وهو في كل أولئك جميعاً .. قد ينزع عن فكر واضح ومحدد ..
ولكنه ينزع بالدرجة الأولى عن تعاطف شاعري متوامض الآفاق ..

ويمكن للحزن ان يستقطر من قلم الزيات مالا يستقطر
النجدل .. فان حساً مأساوياً شقيقاً يغيم دائماً كلماته .. ويتمطى
فاجعاً في سطورهِ .. ويهيم بلا حدود في رؤيته حتى لمباهج الكون
.. واعراس الطبيعة الفيحاء !!

وكان موضوع كه موضوع « محمد الوالد » بمثابة الكنز لهذا الشاعر المأساوي الحزين .. الذي عايش مزاراة الفقد في ولده « رجاء » متعاطفا مع الفقد في كل شيء .. وكأنما أحس بأن فقد محمد لولده الوحيد ابراهيم .. يمكن أن يكون معراجا لأفراغ أحزانه الشرة .. وتضعيد آهاته المكبوحة .. فعطف على هذا الموقف النبوي .. وضور الجو النفسي الغائم الذي كان يلف بيت النبوة حين فرغ الرسول من مصاولة الكفر ، ومقارعة المشركين .. « وتنبهت في الانسان الأعلى مشاعر الطبيعة ، وتجددت في العربي الرسول عواطف الآبوة ، وحزفي نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابة ، فبيوتهن التسعة حول المسجد المهمل الذاكر غرقى في السكون الرهيب ، والصمت الموحش ، لا يؤنس حجراتها غناء المهد ، ولا يبهج أفنيتهها مرح الطفولة » !!

وكانما أحس الزيات بعد هذه الكلمات الصادقة ان عيونا تحديق في قلمه بقسوة .. وتكاد ان تتهمه بالمروق .. فقد ألف الناس أن يتحدثوا عن محمد حديثهم عن كائن مبتوت الجذور بالأرض ، مقطوع الضلة بالمادة ، مبتور الاحساس بعواطف الحب ، ونوازع الآبوة ، وهواتف الحنين .. كأنما أحس الزيات فعلا بهذه المحاصرة غير المرئية .. فعطف من فورة يقول :

« لا ريب ان أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم الاسلام أجمع ، ولكن أسرة محمد الرجل لاتزال لنقصها إلا من آلام العبقرية ومحنة من محن البطولة » !!

لا أرى أبدا مبررا لأيراد هذه الحقيقة بعد كلمات كاتبنا الكبير عن حنين النبي الى طفولة تولد له .. ألا ان يكون احساسه بحصار الأعين .. وحصار الرجم بالمروق .. وكاتب كالزيات كان يجب ان يرتفع بقلمه وبإيمانه جميعا .. ان يكونا موضع مساومة

من أحد أو مع أحد .. فلا شيء يضيع روعة العمل الفني والفكري
أشجع من محاولة استرضاء كل التافهين ..

ان محمدا النبي انسان قبل ان يكون أى شيء آخر ..
ولو تعطلت فيه حاسة الأبوة لتعطل فيه حبس ان يكون أبا للمسلمين،
يشيل أحزانهم فى مآقيه .. وينحنى على عذاباتهم فى رفق حميم

ويمضى الزيات فى وصفه الرائع للاحسم الصدام بين محمد
وقبيلته .. حتى أخرس الشوك .. وحطم الوثنية ، وقهقه فوق
خرائب الطغيان .. ثم يعطف الى استقباله الحميم لوليد المبطىء
القادم .. وفرحه الباذخ بجماله الطفل .. وقفزات الرؤى فى عينييه
الضائعتين فى أبد الدهول !!

ولكن الموت الصديق لا يترك الوليد يشد أقماطه .. فيأخذه
فى حضنه البارد ويغيب به عن عيني والده الجاهد الحزين !!

« أخذ النبي ابراهيم من حجر أمه فوضعه فى حجره ، ثم
نظر من خلال الدمع الى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال
بصوت متهدج ، وفؤاد متأجج ، واستسلام مطمئن : « انا يا ابراهيم
لا تغنى من الله عنك شيئا » !!

قد يكون الرصد التاريخي لهذا الحدث الانساني معروفا لدى
كل الدارسين .. ولكننى لا أتحدث من أدب الزيات عن جانب
الرصد التاريخي فيه .. وانما عن جانب الاحساس بإيقاع الحدث
التاريخي كأنما هو متفجر للحظته من أعماق البداهة الأولى ..
وهو ما برع فيه قلم الزيات بلا حدود .. حتى ليحس المتلقى ان
الرجل قد شاهد الميلاد والموت .. وما بين الموت والميلاد من إيقاع
متوتر النبض .. مخطوف الأسارير !!

فاذا تركنا « محمدا الوالد » .. الى : « محمد الزعيم » ..
راعنا ان الزيات يهتف بكل زعامات العالم اليوم : « تعالوا يازعماء
اليوم عانين خاشعين الق عليكم درسا من زعامة محمد !! ان فيكم
زعماء أحزاب وليس فيكم زعيم أمة ، أما هو فكان زعيم الانسانية
جمعاء » !! وراعنا كذلك ان الزيات يلفت الى حقيقة هائلة حين يقول
لزعماء العالم المعاصر : « انكم تكونون قبل الزعامة ناسا كالناس ،
ثم تصبحون بعدها آلهة كالألهة ، تنكرون الخاصة ، وتزدرون العامة ،
ثم تمتازون فتدخلون بفضل المبادئ المزورة ، والمناصب المستخرجة
في دنيا النبلاء والأغنياء ، وماذا بعد هذا ؟ اما هو فقد ملك الحجاز
واليمن ، وجبى الجزيرة كلها وماداناها من العراق والشام ، وظل
ينام على فراش من آدم حشوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليالى
طاوين لا يجدون عشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون نارا ، ان هو
الا التمر والماء ، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على
الناس أقبية الديباج المخصوص بالذهب ، فاذا اقبل على أصحابه فقاموا
اجلالا قال لهم : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ،
انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » !!!

وراعنا كذلك ان الزيات يلخص فلسفة الدعوة الاسلامية في
قوله : « .. ثم كانت سياسة كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص
ولا الزمن ، انما هى سر الخالق العظيم استعلن في سكون الصحراء
على لسان الرسول العظيم ، ثم دوى في غياهب الآفاق ومجاهل الأبد
ليكون الشعاع الهادى لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل » !!!

هذه ملامح الزعامة كما استنبطها الزيات في تأمله لمواقف
النبي .. زعامة أروع مافيهما أنها شاملة .. وأعمق مافيهما أنها
أصيلة ، وأخلد مافيهما انها على الأرض وفوق الأرض .. وفي الزمن
وأعرض الزمن .. ومن الناس وأروع من عبقریات كل الناس !!!

الزعامة هنا ليست احتجاجا لثروة ظائلة .. أو اعتسافا
لسلطة غاشمة .. أو ارتباء لقمة زعامية مهجورة .. وانما هي
زعامة مقاتلة بلا حدود .. ومقاتلة في كل اتجاه .. لقد قاتلت
الفقر والعريضة .. وقاتلت الطغيان والقهر .. وقاتلت الجمود
والوراثية .. وقاتلت الخرافة والجهل .. وقاتلت انطفاء المعنى
في الشيء .. وطغيان الشيء على المعنى .. وقاتلت حتى استتب
العدل في الأرض .. والعلم في العقول .. والرحم في الناس ..
والتطور في التاريخ !!! وحين تفقد الزعامة واحدا من هذه الأقاليم
.. تصبح بالضرورة زعامة مجوفة .. لا تقدر على العطاء الموصول
في زمن مائر بالفعل ورد الفعل .. وبالشئ ونقيضه .. وبالتطور
الخارق المحدث آثاره على كل جبهات القتال !!

في نهاية هذه الرحلة مع أدب الزيات .. أستطيع أن أقول
في وثوق لا يهزمه التردد .. ان الزيات ما يزال حيا .. بكلماته
الشاعرة .. وبحسه المرهف .. وبسياقه الفنان .. وبتعاطفه
حروفه الملهمة مع كل ذكريات تاريخنا المكتنز .. وبهذه القوة
الدايقة التي يسكبها عصيرا في شرايين موضوعه .. فاذا القديم
جديد على يديه .. واذا الأمس ماثل لنا في اليوم .. واذا الزمن
كله مسرح تتراقص على حواشيه مأساته وملهاته .. واذا نحن
جمهره وممثلوه .. مزاميره وأغنياته .. خطبه ونارنه .. شهوده
وقضاته !! ومن خلال هذا التدامج الكوني نحس لحظة أننا ..
نحن .. وما أروع ان نحس ذواتنا حتى للحظات !!!

الاتجاه التاريخي الحديث

في

كتابة التراجم الإسلامية

١٤

من الأوفق قبل ان نوغل في الاستطراد - ان نحدد ماذا نعني بمصطلح (الاتجاه التاريخي) . فان هذا التحديد سيعين من غير شك على تكامل الفهم ، وعلى ربط هذه الدراسة بمفهوم علمي غير قابل لقضية التمييز !!

نعني بالاتجاه التاريخي - في كتابة التراجم الإسلامية - التزام الكاتب بنمط تاريخي استقصائي يبدأ من نقطة ميلاد البطل وينتهي الى وفاته . . متجاوزا ذلك - عبر كل الدراسة - الى التفرس الدارس في ما وراء الظواهر الحياتية من بواعث ، وفي ما وراء الوقائع الوجودية من ملامح وسمات . . بشرط الا يتحيف هذا التجاوز حركة الحس التاريخي الاستقصائي ، لأن ذلك وحده هو ما يجعل من هذا الفعل التاريخي ترجمة فيما تعني بكلمة الترجمة . . ان الكاتب اذا انصرف بالاستقصاء التاريخي عن استقراء الملامح

والسمات وما وراء الظواهر من بواعث وأشجان ، فقد كتب تاريخا
ربما • أو سيرة يجوز • ولكنه يبقى في النهاية أمام مصطلح التراجم
في حاجة الى كثير هائل من المراجعات التي تتيح له بعدها ان يقف
تحت مظلة مفهومها الذي نرجو ان نكون قد حددناه حين زعمنا انه
معنى الرحلة في الحياة ، وليس هو مجرد الرحلة في الحياة !!

ولقد حمل العصر الحديث - منذ مطلع هذا القرن - نماذج
من هذا الاتجاه في كتابة التراجم الاسلامية ، ونرجو ان نكون
مفهومين حين نقول (الاتجاه التاريخي) اننا لا نقصد بذلك على
الاطلاق ان تكون هناك ترجمة تاريخية وأخرى أدبية • فإن هذه
المقولة مرفوضة بما هي ساقطة تحت سنابك التناقض الهائل • ان
كل التراجم تركز في حركة وجودها على العنصر التاريخي ،
وتقسيمها العشوائي الى تاريخية وأدبية يوحي بأن الأدبية منها
لا تحمل من عناصر التاريخ شيئا ، في حين ان ذلك لو حدث يخرج
على الفور هذا النمط الأدبي غير المرتكز على أرضية تاريخية من مدى
التراجم كلها ليستحيل الى قصة ، أو رواية ، أو غير ذلك من
الأنماط !!

اذن •• فنحن نعني (بالاتجاه التاريخي) •• حركة الاستقصاء
في مقابل حركة الانتقاء ، بمعنى أن كاتباً كالدكتور محمد حسين
هيكل في (حياة محمد) يعتبر صاحب اتجاه تاريخي •• في مقابل
ان كاتباً كعباس محمود العقاد في (عبقرية محمد) يعتبر صاحب
اتجاه تحليلي •• لأن الأول منهما - الدكتور هيكل - عني باستقصاء
حياة النبي صلى الله عليه وسلم • ميلادا • وخطوبا • ونهاية ••
على نحو استغراقي •• في حين ان الثاني منهما - العقاد - ركز
على ابعاض صميمية من حياة النبي على نحو انتقائي ظاهر الوضوح ،
وأخذ يبني عمله الفني على ضوء من هذا الانتقاء !!

ونرجو الا يفهم من هذا ان كاتباً كالدكتور محمد حسين هيكل

فى ارضائه للمنهج التاريخى قد عزل نفسه عن التأمل والغوص والتحليل وعرض كل مقدماته ونتائجه على العقل والعلم وأحدث المنجزات . . فهو بالفعل قد قدم من هذه الألوان فى تراجمه للنبي . . ولأبى بكر . . ولعمر . . أمثلة بارزة . . ان الاستقصاء التاريخى لا يعادى ما عداه ، أو هكذا نحن نقصد به فى هذه الدراسة ان يكون !!

وحتى لا ندور فى الفراغ - كما يقولون - فسنبدأ بتأمل الاساسيات الفكرية التى بنى عليها الدكتور هيكل انجازاته الفكرية فى هذا المجال ، مع ملاحظة ان الدكتور محمد حسين هيكل - يرحمه الله - يعد بحق رائد هذا الاتجاه التاريخى الحديث فى كتابة التراجم الاسلامية بلا منازع على الاطلاق . . واذا قلنا ان هذا الكاتب يمثل عنصر الريادة لهذا الاتجاه التاريخى . . فيجب ان نردف على الفور : والعقل والعلمى . . فقد حرص الكاتب نفسه على تأكيد هذه العقلانية وهذه العلمية فى كل خطوة من خطوات شرحه لمنهجه - أو تقديمه له ، أو الحديث عنه فى كل معرض هنا أو هناك .

فى تقديمه لكتابه الرائد (حياة محمد) ينعى على الشعوب الاسلامية - فى مراحل انحطاطها وتخلفها - انها أضافت الى حياة النبي (ما لا يصدق العقل (١)) . . وان رعيلا رائعا من الشباب المسلم قد اتهم بالالحاد والكفر والزندقة . . وان جيل الشباب المعاصر لهم شعر بان الزندقة تقابل فى نظر جماعة من العلماء المسلمين الذين اتهموا هذا الرعيل الرائع (حكم العقل والمنطق) (٢) . . وان جيلا جديدا يدرس تراثه الآن (على الطريقة العلمية

(١) حياة محمد - طبعة أولى - ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق - ص ١٥ .

الحديث (١) ٠٠ وانه حين اعترم كتابة حياة محمد فقد فكر في ذلك (على الطريقة العلمية الحديثة) (٢) ٠٠ وانه التزم في كتابته لحياة محمد حدود السيرة لا يتعداها (على الطريقة العلمية الحديثة) (٣) ٠٠ (فحياة محمد جديرة بأن ينقطع لبختها على طريقة علمية جامعة أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها) (٤) ٠

ان هذا الإلحاح على قيمة (العقل) و (العلم) ٠٠ وهذا التأكيد الضمني لعقلية الإبداع وعلمية المنهج ٠٠ يقتضى بالضرورة أن يكون الاتجاه التاريخي الحديث قابلاً بطبيعته لمزيد من العطاء العقلي حتى يخرج عن مجرد كونه سرداً ٠٠ ولمزيد من العطاء العلمي حتى يخرج عن مجرد كونه بوحاً ٠٠ وهو بالفعل ما نراه ماثلاً في (حياة محمد) لهيكل ، هذا العمل الإبداعي العظيم الذي قاد حركة التراجم الإسلامية في مسار آخر مختلف تماماً عن المسارات التي كانت تتلأأ فيها فيما غبر !! وهو بالفعل ما نراه ماثلاً في (الصديق أبو بكر) و (الفاروق عمر) على نحو منهجي قائم على حركة العقل ومعطيات العلم بلا حدود !

فما هي الأساسيات المنهجية التي اتكأ عليها الكاتب في رحلته مع التراجم الإسلامية ! عن هذه الأساسيات المنهجية يمكن ان نلاحظ ما يلي :

-
- ١) المرجع السابق - ص ١٩
 - ٢) المرجع السابق - ص ٢١
 - ٣) المرجع السابق - ص ٢٢
 - ٤) المرجع السابق - ص ٢٢

١٠٠ . ب. اتكاء المؤلف على القيمة العقلية في كل ما يتصدى له . . .
 نستبين ذلك واضحا في كل ما كتب من التراجم الاسلامية ،
 وهو في اتكائه الفاهم على القيمة العقلية انما يرد للفكر العربي
 الاسلامي اعتباره وجلاله ، ويعطى ابداعه - في الوقت نفسه - مذاقا
 انسانيا عاما يخاطب العقل المعاصر بنفس الطريقة التي يتعامل بها
 هذا العقل المعاصر مع الأشياء والأحياء . . . وربما كانت ثقافة الدكتور
 هيكل وقراءاته المتعددة في الأدب الغربي هي التي أقنعت به ضرورة
 تجاوز المراحل العاطفية في التفكير ، وإنتهاج سلسلة من التحديات
 العقلية في مواجهة آلاف من التحديات التي يراد من ورائها هدم
 كل شيء على هذه الأرض ، أو على الأقل زرع الزرارة بكل ما على هذه
 الأرض من مقدسات . . . ان ملاحظة المنزع العقلي لا تخفى على قارئ
 لكتبه (حياة محمد) و (الصديق أبو بكر) و (الفاروق عمر) . .
 ولكن هيكل في (حياة محمد) بالذات قد جوبه بمشكلة معضلة :
 كيف يوفق بين النزعة العقلية الخالصة التي تخضع كل شيء لمنطق
 العقل وقوانينه الصارمة ؟ وبين اشتتات من الخوارق والمعجزات التي
 هي بطبيعتها تتجاوز لمنطق العقل ، وتخط لقوانينه الصارمة ؟
 الحق ان الرجل كان موقفا الى مدى بعيد حين اختار لنفسه
 ان يتناول محمدا من المنحى الانساني (١) . . مؤكدا ان فذاذاته
 في هذا الصدد ، وارتفاع قامته المديدة الى آفاق تنحسر دونها عيون
 ارتال من العباقره والنايغين ، هو وجوده الدليل الحاسم على نبوته
 من جهة . . . وهو المدخل الطبيعي الى التسليم له بكل الخوارق
 والمعجزات من جهة أخرى ، بلا حاجة الى الدبدب . . أو فدامة جدل
 تافه مريض !! فاذا أضفنا الى ذلك ان محمدا نفسه (لم يلجأ في
 اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق) (٢) . . وان

(١) أنظر : محمد وهؤلاء - لأحمد عبد المعطى حجازي .

(٢) حياة محمد - ص ٧٣ .

محور دعوته كان العقل بالدرجة الأولى ، فقد يشبت لنا بعد ذلك ان الكاتب هنا موفق الى مدى بعيد في اتكائه الفاهم على القيمة العقلية في كل ما يتصدى له .

٢ - اعتماد المنهج العلمى فى تركيب المقدمات والنتائج ، وفى حرية القبول والرفض ، وفى النظر الى القضايا عارية من التقديس فى مراحل البحث الأولية .

وقد لانبثت طويلا عن هذه الملامح المنهجية فى كل ما كتب الدكتور هيكل من التراجم الاسلامية ، فهو لا يفتأ فى كل مرحلة من مراحل ابداعه يذكر بهذه الحقيقة التى يعتنقها ، ويؤمن بها ، ويدافع عنها ، ويدعو اليها . . . ليس ذلك فحسب . . . وانما هو يطبق مقولاته الصارمة فى كل ما يكتب ، فهو معنى دائما بشىء (من تقليب الروايات ، وموازنتها ، واقتناص الحقيقة من خلالها) (١) . . . وهو حين يشرع فى كتابة (حياة محمد) انما يفعل ذلك (على الطريقة العلمية الحديثة) (٢) . . . وهو يقف أمام كل القضايا الكبرى التى يمكن ان تثار فى أى من تراجمه الاسلامية ليس موقف المصدق مسبقا ، أو المكذب مسبقا . . . وانما موقف البادىء (بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية ، فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يشبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسس ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وما هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته) (٣) .

(١) الصديق أبو بكر - ص ٢٤ .

(٢) أنظر مقدمة (حياة محمد) .

(٣) حياة محمد - ص ١١٢ و ١١٣ .

٣ - دراسة الوسط الطبيعي . . . والوسط الاجتماعي . . .
والوسط النفسى . . . والوسط الفكرى . . . والوسط الذاتى . . .
لبطله الذى يترجم له .

وهو يعنى بالوسط الطبيعى : الموقع الجغرافى ، وطبيعة
الأجواء السائدة ، ونوعية المناط الذى ولد ويقيم فيه .

وهو يعنى بالوسط الاجتماعى ما يميز سكان المناطق التى
يقيم فى ربوعها البطل ، من ملامح صميمية تبدو فى أنظمتهم
الجسمية ، والأخلاقية ، والعقلية ، والاجتماعية ، والسياسية .
والاصلاحية .

وهو يعنى بالوسط الفكرى ما تقع عليه عيننا بطله من ابداع
واختراع ، وتحرر وانخلاق . والنظر فى مقولات البطل من حيث هى
بين الفرد وضميره ، وبين الفرد ونفسه ، وبين الفرد والفرد .

وهو يعنى بالوسط الفكرى ما تقع عليه عيننا بطله من جمال
وقبح ، وتحرر وانخلاق . والنظر فى مقولات البطل من حيث هى
أثر دال على نوعية ما يتحرك داخل الوجدان البشرى من ذبذبات .

وهو يعنى بالوسط الذاتى ما يكون عليه (الانسان) فى
(البطل) . . . من الجانب المادى ، والجانب الفكرى . . . الجانب
المادى من حيث هو مناط التوتر أو الهدوء . . . والجانب الفكرى من
حيث هو مناط التحرر أو الجمود . (١)

(١) أنظر ص ١٥٣ و ٩٦ من كتابه (فى أوقات الفراغ) .

٤ - رفض المنهج التاريخي القديم ، القائم على مجرد الحشد والسرِد وتكديس آلاف من المرويات .

والدكتور هيكل في هذا الصدد معاصر ، يجمع : . . ويحقق . . وينقد ويرتب . . ويفسر . . فالمراجع العربية القديمة التي تتحدث عن أبي بكر مثلاً . . (يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث المروية فيها عسيراً في بعض الأحيان كل العسر ، ثم أنها كثيراً ما تثبت روايات هي إلى الخرافة أدنى منها إلى التاريخ ، وقد يجد الإنسان في موازنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعنيه على تمحيص الحوادث ، ولكنها تتوافر روايتها أحياناً لحوادث يقف الإنسان منها موقف الحيرة ، فلا يسعه إلا أن يشبها مع الإشارة إلى ما يخالجه من الريبة فيها) (١) .

ليس الاضطراب والخرافة هما كل شيء في هذه المراجع . . فبعضهما . . (لا يتعرض إلا لأمور جليلة الخطر ترويه المراجع الأخرى مفضلة أدق التفصيل ، فالطبري ، وابن الأثير ، والبلاذري ، لا يكادون يتعرضون لجميع القرآن وجمع القرآن من جلائل الأعمال التي أزدان بها عهد الصديق إن لم يكن أجلها) (٢) .

ليس ذلك فحسب . . وإنما يلوح الاضطراب في الحديث عن حروب الردة ، وعن فتح كفتح العراق ، ثم عن فتح كفتح الشام يقع عليه الخلاف بينهم . . (بل ترد الروايات المختلفة في أمره في الكتاب الواحد من كتبهم ، حتى ليحار الإنسان أي الروايات يأخذ وأيهما يدع) (٣) .

(١) الصديق أبو بكر - ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق - ص ٢٤ .

(٣) المرجع السابق - ص ٢٤ .

(: .) والخلاف على الزمن الذي حدثت فيه الوقائع لا يقل عن الخلاف في تصوير الوقائع جسامة ، وكثيرا ما يكون تحديد التاريخ لبعض هذه الوقائع مغامرة لا تستند الى أساس يمكن الاعتماد عليه في شيء من الدقة (١) .

ان هذه الخرافية . . وهذا الاضطراب . . . وهذا الاختلاف على الشيء الواحد . . هو ما عزز رفض الدكتور هيكل للمنهج التاريخي القديم ، ودفعه الى اعتناق منهج تاريخي حديث . . قاعدته : (العقل . . والعلم) . . فأبدع من خلاله تراجمه الاسلامية . .

ويمكن أن نلمح ببساطة التزام الكاتب نوعية من المنهج التاريخي تلائم بشكل واضح طبيعة التراجم الغيرية ، تلك هي التزامه الواعي (بتنامي الترجمة) . . اي البدء من نقطة الميلاد والانتهاء الى لحظة الموت ، عبورا بكل ما عجت به حياة أبطاله من وقائع وهزائم وانتصارات . . ان هذا الترتيب التعاقبي مما يحرص عليه الدكتور هيكل ، ويضعه امام عينيه في كل تراجمه ، وهذه السمة تكاد تكون أبرز سمات تقنية هذا الكتاب فيما يبدو في هذا المجال من كتابات .

هـ - دراسة العصر . . والحضارة . . والدولة . . من خلال تراجمه لبعض من أبطاله الذين كان لهم دور في توجيه الدولة والحضارة والعصر ، تأكيدا لعنصري التأثير والتأثير .

وقد يبدو ذلك واضحا كل الوضوح في كتبه : (حياة محمد) و (الصديق أبو بكر) و (الفاروق عمر) . . فهو في حياة محمد قد تجلى موقف الامبراطورية الاسلامية الاولى من كل الاتجاهات ، وأقام علاقات هذه الامبراطورية مع كل القوى المعاصرة لها على مستويين : عقائدي . . وسياسي ، على المستوى العقائدي في اشتباكها مع

(١) المرجع السابق - ص ٢٤ .

المسيحية واليهودية في حوار هائل ومنتصر .. وعلى المستوى السياسي في اشتباكها مع الروم والفرس والعرب المناوئين في معارك هائلة ومنتصرة كذلك !! وهو في (الصديق أبو بكر) قد درس مرقف هذه الامبراطورية الاسلامية من المرتدين ، ومن مانعي الزكاة ، ومن فتوحات الشام والعراق .. وهو في (الفاروق عمر) قد تأمل صراع هذه الامبراطورية الاسلامية كذلك مع الفرس والروم تهيئاً لعبورها المنتصر بعد الى مصر .. وافريقيا .. والمغرب .. والى حدود الصين!

هذه على نحو مقارب ، هي الاساسيات المنهجية التي اتكأ عليها الدكتور محمد حسين هيكل في كتابته للتراجيم الاسلامية ، وهي اساسيات تضع الرجل على مستوى طليعي من اولئك الذين اصلوا بفكر فاهم وبفن حقيقي معا لهذا اللون الرائع من ألوان الابداع الادبي المعاصر بلا جدال !!

ويمكن أن نستطرد فنركز على أهم الظواهر البارزة التي ركن عليها الدكتور هيكل في تراجيمه ، وان نركز على نوعية مواجهته الفكرية لهذه الظواهر بمنطق المنهج التاريخي الذي قاعدته : العقل والعلم .. والذي ارتضى هو أن يكون - على كل المستويات - أساس حركته الراشدة في هذا المجال .. ولكن المدى بنا يتسع اذا نحن حاولنا أن نفعل من ذلك كله شيئاً .. فليكن الايماء هنا أجدي من الاستطراد .. وربما أتيج لنا من الزمن أن نعود !!

بعد ذلك .. نستطيع أن نضج اعمال الدكتور طه حسين التاريخية : (عثمان) و (علي وبنوه) و (الشيخان) و (مرآة الاسلام) .. داخل هذا الاطار .. ان الاتجاه التاريخي الحديث الذي قاعدته : العقل والعلم .. هو الذي يسيطر على حركة الابداع في هذه الأعمال واذا كان هيكل يمضي بالمنهج التاريخي في اطاره الموضوعي لا يتعمده فان طه حسين يمضي بنفس هذا المنهج خطوة الى الامام : حيث يشتبك

به على الفور مع كل تيارات العصر السياسية والاجتماعية والفكرية فهو حين يتجهت - مثلا - عن طبيعة الحكومة التي حكمت المسلمين منذ أسست الدولة حين هاجر النبي واصحابه الى المدينة الى أن قتل عمر واستخلف عثمان . . يتساءل : هل كان هذا النظام (تيوقراطيا) ؟ هل كان (ديمقراطيا) ؟ هل كان (حكما فرديا) ؟ الى آخر هذه التساؤلات التي تخلق لدى المتلقي احساسا حقيقيا بان هذا العمل الفكري يتحرك منذ البدء في اطار معاصر تماما يشتبك مع كل تيارات العصر السياسية والاجتماعية والفكرية . . ان طه حسين لا يخضع منهجه لغير العقل . . والعقل المستوعب المتأمل الدارس الذي يتحرك بالفرد - موضوع الدراسة - من خلال مجتمعه ، وبالمجتمع كذلك على ضوء من الفعل التاريخي لافراد الموهوبين ، ان المحصلة النهائية - فيما يرى - ينبغي أن تكون حاصل جمع : (الفرد . . والمجتمع . . والأحداث) وربما كان اهتمامه الأكثر صميمية ليس على حيوات بما هي (حياة وموت) . . وانما على هذه الحيوات بما هي (فعل وفكر)

ان (الفتنة الكبرى) - وهي هذا العمل الجليل بحق - لا تبدو ترجمة بساذجة لاحداث الحياة اليومية التافهة ، بقدر ما تبدو ترجمة لاحداث الفكر والسياسة والاجتماع . . وهذه الظواهر الصميمية التي نجعل من الحياة اليومية بحق حياة !!

واذا كان الفنان في طه حسين ابرز من المؤرخ فيه : فان عمله التاريخي يبدو كأنما هو خلق جديد : لان فكرة الكاتب وليس فكرة الحدث هي التي تتراءى لنا . . وان كان هذا الظاهر مخاتلا بلا حدود . . فالدكتور طه حسين يعالج الواقع والأحداث بمنطقها هي لا بمنطقه هو : ولكن الشكل الفني في ابداعه هو الذي يحددنا عن هذه الظاهرة ويخيل الينا أن منطق الكاتب وليس منطق الحدث هو الذي يحتل مساحة الحلول في عمله الكبير . . .

وقرب الفراغ من هذه الرحلة ، لابد من تأكيد قضية الخلف
بين رؤية كل من الكاتبين : هيكل وطه حسين . . . لنفوس المنهج
التاريخي الحديث الذي قاعدته العقل والعلم . . . ان هذا المنهج -
تطبيقا - ليس متماثلا عندهما تمام التماثل ، لأن معنى ذلك لو حدث
اينا فلغى تكوينات كل من الرجلين على المستوى الحياتي والفكري
جميعا . . . ان لكل كاتب منهما رؤيته الخاصة في تطبيق منهجه ، وهذه
لا يظعن في ضمير القضية على نحو من الانحاء . . .

ان حش الاستقصاء الحياتي للمترجم له يبدو في تراجم هيكل
أكثر وضوحا منه في تراجم طه حسين . . . وكذلك فان الترتيب
التعاقبي لوقائع الحياة وأحداثها المتشاجنة يبدو في تراجم هيكل
أكثر التزاما منه في تراجم طه حسين . . . ولكننا نلاحظ كذلك أن
(الاسقاط) الفكري والثقافي في تراجم طه حسين أخصب منه في
تراجم هيكل . . . كما نلاحظ ان المعطى الفكري في تراجم طه حسين
أغزر منه في تراجم هيكل . . . اننا مع تراجم هيكل في عالم من
المقولات المدافع عنها بعقل العصر ومنهجه العلمي . . . ولكننا مع
تراجم طه حسين في قلب العصر كله بعقله وأدبه وفنه وسهاسه
واجتماعه ومذاهبه وتياراته . . . وليس في هذا الرأي تغليباً لجانب
على جانب - كما يظن - لأن الدكتور طه حسين يتحرك في تراجمه من
خلال قناعاته النهائية بمذاهب عامة في الفكر والفن والأدب والسياسة
والاجتماع . . . بينما يتحرك الدكتور مجاهد حسين هيكل - كالعباد
في ذلك - من خلال قناعات جازمة بأبعض من هذه المذاهب العامة .

ورفض لأبعض أخرى من هذه المذاهب العامة ربما لا تتواءم طبيعيا
مع طموحه الفكرى ، أو اقتناعه العقائدى !!

ونستطيع بعد ذلك أيضا أن نضع أعمال (أحمد أمين) من مثل
(زعماء الإصلاح) فى هذا الإطار ، على تفاوت مسلم بين طبيعة
الرؤية ، وطبيعة العرض ، وطبيعة التكوين .. وان نرصد أهم ملامح
اتجاهه الفكرى والتقنى .. ولكن المدى سيمتد .. وستتراحب الآفاق
.. فليكن الآن وداع ... ولنخيب مواعيدنا فى أمل اللقاء !!!

الفهرس

٣	• • • • •	مقدمة
٥	• • • • •	قضايا من الفكر الاسلامى
٧	• • • • •	دعوة الى أدب اسلامى
١٧	• • • • •	عن البطولة والبطل •• من المنظور الاسلامى
٤٧	• • • • •	تأملات فى تكوينات الشخصية الاسلامية
٧١	• • • • •	الهدين اهو الحل
٧٧	• • • • •	التطور منطق لا خرافة
٨٣	• • • • •	عن (التجربة) •• بين الخلط والتحديد
٩١	• • • • •	فلسفة الاحساس الجمعى •• من الوجهة الاسلامية
١٠٣	• • • • •	الكلمة من المنظور الاسلامى
١١٤	• • • • •	قضية الفكر الاسلامى بين المد والانحسار
١٢٣	• • • • •	دراسات قرآنية
١٢٥	• • • • •	الاعجاز القرآنى •• فى فكر المعاصرين
١٤٣	• • • • •	حوار حول قضية قرآنية
١٥٣	• • • • •	من مناهج التربية فى القرآن
١٦١	• • • • •	هذا الزحف من يتصدى له
		الفن القائد •• بين الزحف •• والتصدى •• وتساؤلات
١٨٧	• • • • •	أخرى
١٩٥	• • • • •	قراءة فى فكر الاسلاميين المعاصرين
٢٢٣	• • • • •	ملامح المنهج التحليلى فى عبقریات العقاد
٢٦٠	• • • • •	رحلة فى اسلاميات أحمد حسن الزيات
٢٨٣	• • • • •	الاتجاه التاريخى الحديث فى كتابة التراجم الاسلامية

جمهورية مصر العربية

مطبوعات

المجلس الأعلى للثقافة

رقم

٢٦٧

القاهرة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٣/٤٦٠٠

ISBN ٩٧٧ - ١٢٢٠ - ٠٥ - ٥

